سلسلة الأدب الروسي 7

فيكتوريا توكاريڤا

طائر السعادة

ترجمة

سيد حرفوش

دار نشر
أنباء روسيا
Russian News
www.russiannewsar.com

Перевод книги

«Птица счастья»

Виктория Токарева

الناشر

أنباء روسيا

Russia News

www.russiannewsar.com

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

د. حسين الشافعى

secertary_ert@yahoo.com

المراسلات

114 ش جوزيف تيتو - برج رقم (2) الدور الثالث - النزهة الجديدة - القاهرة - جمهورية مصر العربية.

Tel. & Fax: +(202) 219 271 57 & 58

الإخراج الفني/ أحمد عثمان

مراجعة لغوية / د. مروة مصطفى أمين

الطباعة

دار الطباعة المتميزة

مدينة العبور – القاهرة

Tel. & Fax: +(202) 4478 96 44 & 46

الطبعة الأولى 2018

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.

لا يحق إعادة طبع أو نسخ محتويات هذا الكتاب إلكترونياً أو ضوئياً دونما إذن كتابي من الناشر.

رقم الإيداع

31815/2017

بالتعاون مع

المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم

Совместно с

Египетско-российским фондом культуры и наук

www.a-rfcs.org

فيكتوريا توكاريفا

طائر السعادة

ترجمة / سيد حرفوش

دار نشر

أنباء روسيا
Russia News
russiannewsar.com

www.russiannewsar.com

طائر السعادة

«جاء طائر السعادة المستقبلية مُصدراً أصواتًا بجناحيه، أنا هنا.. أنا هنا.. يا طائر السعادة المستقبلية ....».

إن لم تكن سعيد الحظ، فسيطير من فوقك، و يختار شخصًا آخر بجوارك، في حين ستظل أنت واقفًا بلا حراك من هول الصدمة.

لذا عليك أن تأخذ زمام المبادرة: تقفز عاليًا وتمسك بالطائر من ذيله، والأهم أن تقوم بذلك قبل الآخرين.

قرأت نادية ذات مرة أن عشيقة «ألبرت أينشتاين» كانت زوجة لأحد النحاتين الروس المعروفين، فشرعت تبحث وتنقب عن تلك المعلومة. وهيهات أن يكون أينشتاين العظيم قد أولى اهتمامه إلى هذه الفتاة الروسية، لأنه كان مشغولًا آنذاك بنظريته النسبية ولم يكن ليولي وجهه عنها. ولا عجب في أن زوجة النحات الروسي قد أخذت زمام المبادرة ووجدت الثغرة المناسبة التي تدخل منها إلى أينشتاين العظيم، الذي رحب بالأمر ولم يعترض. ولمَ لا وقد جاءته الفرصة من تلقاء نفسها. الشيء نفسه ينطبق عليك وعلى طائر السعادة؛ هو لا يفكر لأنه طائر، يحلق من دون غايات أو خطط مصدرًا أصواتًا بجناحيه. وسيكون الأمر مدعاة للسخرية إذا اعتمدت على مجيء الفرصة. لأن عليك أن تصنعها بنفسك.

ولـدت نادية في مدينة روسـتوف الواقعـة على نهر الـدون، في حقبة الرئيس ليونيـد بريجنيـف. بعد ليلة سـاخنة بين أبويهـا اللذين لم يتأهبـا لهذا الحدث المفاجئ. ونادية ليسـت فتاة عادية بقدر كونها جوالق لا يسـبر غوره، جوالق تهدمت فيه الحياة وتحطمت.

ذبلت نضارة الأب سريعًا، ولم يبق سوى شيئين، أولهما: قضاء الليالي الحمراء بعد حفلات الرقص، فلزمته الشـهوة وأضنته. وثانيهما: الركض كل صباح إلى مطبـخ الأطفـال من أجل الحصول على زجاجات اللـبن. لكن هذا الوضع لم يستمر طويلًا، لأنه هرب ذات يوم إلى أحد الفنادق ومنه إلى موسكو، ثم غاص بين سمع الأرض وبصرها.

ظلت الأم كسـينيا ترضع ابنتها لمدة سـبعة أشهر، قبل أن ترسل هذا الكنز الثمين إلى والدتها، جدة نادية، حتى تسـافر إلى موسـكو غير قاصدة من ذلك أن تبحـث عـن زوجها. وقد أدركت سـريعًا أن مسـقط رأسـها الصاخـب المليء بالمسـاحات الخضراء ما هـو إلا مكان في أعماق الريـف. والأفضل يوجد دائمًا تحت سماء موسكو.

ومـا إن وطأت قـدم نادية هناك حتـى التحقت بالمعهد الفـني الصناعي، وهذا لأنهـا هامـت منذ أعوام طفولتهـا بالأعمال اليدوية. فكانـت أصابعها هي التي تُفكر، بالطبع بجانب عقلها، لكن أصابعها كانت أكثر ذكاءً ومهارة.

أجـادت الأم كل الإجـادة في صنـع البراويز المخصصة للوحـات، وتفننت في استخدام الطين، كـما أتقنت طرق التحميص وصناعة الفخار والخزف. فكان يخرج من تحت يديها أطباق رائعة مختلفة الألوان.

لم يسبق أن غالبها الكسل، فتعلمت الكتابة باللغة العربية، التي كانت تضع حروفها على حافة الأطباق التي تصنعها. ليس مجرد حروف، وإنما شـيء ما من الخط النظامي.

وحازت أعمالها إعجاب الجميع إلا أستاذها في المعهد، الذي قال متهكمًا في مرة من المرات:

- يا لها من براعة، لقد قمتِ بما لم يقم به غيرك، وإن كان هناك عيب صغير.

لم تفهم كسينيا وتساءلت:

- أي عيب؟ هل تُعد البراعة شيئًا سيئًا؟

كانت كسينيا امرأة شقراء ذات عينين بنيتين. مزيج نادر من الصفات كان يمكنه أن يشفع لها عند معلمها فلا يسخر منها.

امتاز المعلم بأسلوب خاص في المعاملة: يستميل شخصًا ما إلى جانبه، ويهمل آخر كأنه حذاء مزغب تحت أريكة ما. واستمال المعلم شخصًا يقال له هيرمان جليبوف، شخص وسيم لديه العديد من المواهب، لكنه يسرف في الشرب. ومع ذلك لم تستطع كسينيا أن تلوي رأسها عنه، كانت عيناها تذهب معه أينما ذهب، وعندئذ يتوقف الزمن تمامًا.

كان لـ هيرمان عينان واسعتان يتوسطهما مقلتان جاحظتان، وحاجبان مرتفعان وقذال صبياني. ورقبة عاجية تلهب الإحساس. قالوا إنه من طبقة النبلاء، وإنه شخص أرستقراطي سيء الطباع انحطت أخلاقه وفسدت. ولكن ها هي الحاجة تظهر ليمد كل منهما يده للآخر ويمسكها، فأخذت كسينيا زمام المبادرة، ولا غرو في ذلك.

مر شهر كامل لم يذهب فيه هيرمان إلى المعهد. ثم جاء وفي يده لوحة فنية، وسأل:

- قط برأس إنسان. هل تعرفون المقصد من هذه الرسمة؟ تقول اللوحة إن الحيوان المفترس يشبه الإنسان، والعكس صحيح. فالمعلم - على سبيل المثال - يشبه الدب، وفي الوقت نفسه يشبه الفنان بابانوف.

ولع المعلم بهذا القط، فأظهر اللوحة للجميع قائلًا:

ـ ما زال بيراسماني يعيش بيننا.

إلا أن بيراسماني الحي كان غارقًا في السكر حينها، وكأنه اختار أن يسير في طريق الضياع. الأمر الذي جعل المعلم يتأجج غضبًا، لكنه كظم غيظه، وتنهد:

ـ حسنًا، هذا ليس غريبًا في روسيا، كل شخص يتمتع بالصحة يشرب مثل الخنزير.

نستنبط من هذا ضرورة امتلاك المرء لبعض المثالب الخطيرة حتى يصبح شخصًا بارزًا.

لكن كسينيا ليس لديها عيوب أو مثالب، على العكس، تتمتع بعدد من المميزات يكثر فيها الحديث؛ فهي امرأة جميلة، متواضعة، تحب العمل، أمينة، إذا أعطيتها قرضًا سترده في وقته.

ومن ستقع في حبه سيرى الجنة في وجودها، وسيحرم نفسه من الكثير ذلك الذي سيضيع هذه الفرصة. فهذا هيرمان, على سبيل المثال، كانت كسينيا تطعمه وتعتني به وتحمله على ظهرها، مثل جوالق البطاطا، عندما لا تقوى قدمه على السير.

وفي الأوقات العادية كانت تمسك يديه بقوة. فيضحك هيرمان ويقول:

ـ لماذا تمسكين يدي هكذا؟ وأنا الشخص الوحيد، الذي سيبقى معكِ إلى الأبد.

نعم، هذه هي الحقيقة. فعندما أدرك هيرمان الموت، لم يرحل بعيدًا عنها، وعاش في قلبها. بعدما منحها أكثر مما منحها المعلم، الذي لم يكن يفعل

شيئًا سوى انتقادها. الأمر الذي جعلها تقنط وتستسلم للقدر. بل وتصدق ذمهم وتصارح نفسها قائلة: « نعم، أنا لا أستطيع فعل أي شيء. أنا نكرة» .

وكانت تستعيد قواها فقط بفضل حالة الحب التي تعيشها. لا سيما أن هيرمان دائمًا ما كان يقول لها: «أنتِ أفضل من الجميع». فآمنت كسينيا بهذا. نعم، إنها أفضل من الجميع، وسيتحقق لها كل ما ترجوه.

وفي السنة الأخيرة تشاجرت كسينيا مع هيرمان؛ فقد سئمت من سكره الذي لا ينقص أو ينتهي. ووجهت إليه بعض الاتهامات المهينة. الأمر الذي جعل هيرمان يقول في إحدى المرات:

ـ ستمتلكين كل شيء في المستقبل، وسأرحل أنا، عندئذ ستشعرين بأنكِ لست على ما يرام ...

وأصبح الأمر جليًا بعد موته. وقد نظر الجميع إلى هذا على أنه البلية الكبرى. وفهمت كسينيا أن روحها ستكون من الآن فصاعدًا مثل روح المراهق الشريد، الذي يهيم على وجهه في الأقبية ومحطات القطار. لقد ذهب شيء ما ولن يعود مجددًا.

أصبحت كسينيا تعيش بمفردها تاركة كل الخطط المستقبلية التي كانت ترسمها. وقد نقلها ذلك الوضع التعيس إلى مكان مختلف تمامًا.

«ستمتلكين كل شيء في المستقبل، وسأرحل أنا، عندئذ ستشعرين بأنكِ لست على ما يرام....»

وبينما كان مصير كسينيا يتدهور ويتعقد، كانت نادية تعتمد على نفسها بوصفها فتاة عصامية في مدينة روستوف الواقعة على نهر الدون. بعدما مرت أعوام طفولتها في منزل جديها سريعًا، ثم اشتد ساعدها عند بلوغها سن الثالثة عشرة. وإذ فجأة تلاحظ أن جديها أصبحا غير مواكبين للعصر، فلا

يسمحان لها بفعل أي شيء، ولا فكاك مما هو ممنوع؛ لا تذهبي إلى هناك. ولا تصاحبي ذاك. فضلًا عن أنهما كانا يعاقبانها بإخفاء حذائها عندما تحصل على درجات سيئة في الاختبارات، و يجلسانها في البيت.

وفي يوم من الأيام هربت نادية حافية القدمين. وعاشت بضعة أيام عند صديقاتها حتى تلقن جديها درسًا قاسيًا، لعلهما يقلقان عليها. وبالفعل تحقق لها ما أرادت. فعانت الجدة من الضغط المرتفع، وأخذ الجد يولول مثل المرأة المنكوبة.

وآل الأمر في النهاية إلى اتصال الجدين بكسينيا وهما يصرخان:

ـ اعثري على البنت واعتني بتربيتها! لن نشعر بالراحة ما دامت ابنتك معنا.

فهمت كسينيا أن الوقت قد حان لتأخذ ابنتها لتعيش معها، لكن هذا الوقت غير مناسب بعد.

أما الآن فأمامها عرض جيد، وهو صنع أطباق تذكارية لمتجر أوزباكستان. وكان هذا يعد نجاحًا باهرًا من وجهة نظرها وسيجلب إليها أموالًا طائلة.

طرقت فكرة الزواج ذهنها، لكن للأسف لم يكن عن حب. مجرد زواج صوري، من أجل التسجيل في موسكو، وقد رأت في هذا نقطة الانطلاق. لأنها ستتمكن من الحصول على شقة في الجمعية الإسكانية ثم تأخذ نادية لتعيش برفقتها.

وفي سبيل ذلك نجحت كسينيا في إقناع أبويها أن ينتظرا سنة أو اثنتين. فوافقا، على الرغم من أن الابنة كانت تُسبب لهما المتاعب المستمرة. وكيف لهما أن يرفضا هذا، وهو طلب ابنتهما الوحيدة. لكن أصبح جليًا أن الفجوة العمرية الكبيرة بين الجيلين قد زادت الأمور تعقيدًا. وأن الفتاة في حاجة إلى أبوين أكثر شبابًا.

كانت كسينيا دائمًا ما تحقق أهدافها: ببطء، لكن بإصرار. تحصل بنفسها على قوت يومها، وتدبر الأموال، وبالفعل دخلت الجمعية الإسكانية كما كانت تخطط. وحصلت على شقة تتكون من غرفتين، لا تدخلهما الشمس. لأن النوافذ تطل على الشمال. لذلك كانت كسينيا تذهب كل صباح إلى النافذة وتشاهد كيف ترسل الشمس شعاعها البراق إلى المنازل الموجودة على الجهة المقابلة، وكيف تداعب الجدران وتنتقل ببطء باحثة عن نوافذ المنازل المجاورة، التي كان أصحابها أكثر حظًا من كسينيا، التي كانت تسعد لسعادة الآخرين. وقد غاب عنها داء الحسد والجشع. الأمر الذي كان يمنعها عن مساومة العملاء أو التفاوض معهم على السعر. فبقدر ما كانوا يمنحونها من أموال كانت تشكرهم وترضى بنصيبها. إنه لشيء جيد أن تتعامل معها، لأنها امرأة بهية، حاسمة، متأدبة في المعاملة. يمكنك القول إنها تتمتع بالعديد من المزايا والصفات الحميدة. لم يسبق لها أن جلست من دون عمل مع تمسكها بالمبدأ القائل: في التأني السلامة، وفي العجلة الندامة. حكمة شعبية قام الزمن بتأكيدها.

كان الحب هو الشيء الوحيد الذي ينقص كسينيا، التي كانت في حاجة إلى شخص ما يساعدها في تنظيف الشقة، ثم يخلدان سويًا إلى النوم، ويتغلبان معًا على صعوبات العمل التي كانت تصطدم بها دائمًا. ويصمتان معًا أيضًا، لأن الصمت بمفردها كان شيئًا ثقيلًا على قلبها.

ذهلت كسينيا عن ابنتها وحاولت جاهدة أن تؤخر ظهورها، الذي حدث في عامها الخامس عشر، وقد جاءت ممشوقة القوام، تشبه أهل القرية التي جاء منها فارلاموف. ولا تشبه كسينيا السلافية في شيء. كانت الابنة أقرب إلى الفتيات الآسيويات. وكان الناس يقولون إن هناك شخص منغولي قد انسل في وقت ما إلى تلك القرية و تزوج من إحدى نسائها. فظهرت جيناته على ملامح نادية، التي ينتفخ جفنها العلوي، وتتمتع بشعر كثيف لونه لون حجر الفحم الصلب. أما عيناها فرمادية تميل إلى الخضرة، مثل فاكهة الأفوكادو. فتاة جميلة

و قبيحة في الوقت نفسه، تمامًا مثل حجر ألكسندريت، الذي يتغير لونه مع الضوء. فعندما تكون حالتها المزاجية سيئة، ستبدو لك حفرة من الكآبة. أما إذا كانت تتمتع بحالة مزاجية جيدة فسوف تراها منبعًا للسعادة. والاختلاف بين هذا وذاك يتجلى في عينيها. فنادية السعيدة تتمتع بالاستسلام الأنثوي. أما نادية التعيسة فتتميز بالترقب اليقظ، وكأنها تنتظر شخصًا سيظهر فجأة لتضربه...

كانت كسينيا تتطلع، شأنها شأن الأمهات جميعهم، إلى ابنتها فتتملكها مشاعر مزدوجة. فمن ناحية هي قطعة من لحمها، ومن ناحية أخرى هي شجرة تقطع طريقها. شجرة لا يمكن إماطتها أو تكسيرها، أو حتى تجاوزها. وتغيرت حياة الأم قليلًا، حيث توقفت عن دعوة الناس إلى منزلها حتى لا يكوِّنوا انطباعًا سيئًا عنها، وقد اتخذت قرارًا بعدم العودة إلى مدينة روستوف، فألحقت ابنتها بإحدى المدارس القريبة، التي شرعت نادية تدرس فيها بداية من الصف التاسع. وكونت هناك بعض الصداقات، أبرزهما فتاتان يقال لإحداهما ناليا وللأخرى نينا.

ساعد تواصل نادية مع زملائها على إعادة الأمور الحياتية إلى نصابها. فكانت تذهب في المساء إلى زيارة صديقتيها. تارة تجلس مع ناليا, وتارة تجلس مع نينا.

وكان الذهاب إلى ناليا أكثر إثارة للاهتمام، لأن الأم غالبًا ما تكون في العمل، وبالتالي يكون المنزل خاليًا، فضلًا عن وجود مجموعات كاملة من مجلة أمريكا. فكانتا تجلسان لساعات طويلة وتشاهدان الصور الباهتة باللون الأبيض والأسود، ثم تقلبان الصورة تلو الأخرى وهما تمعنان التفكير في حياتهما.

وفي مرة من المرات قرأت نادية إحدى المقالات عن جاكلين كينيدي. طرح فيها المحاور سؤاله على النحو الآتي:

ـ كيف سولت لك نفسك أن تتزوجي من أوناسيس الأصلع بعدما كنتِ زوجة لجون كينيدي الوسيم ؟

فأجابته جاكلين قائلة:

ـ عندما يقف أرسطو أوناسيس فوق أمواله يصبح الأعظم شأنًا.

أحسنتِ، جاكلين. لأنكِ لم تترددي وقمتِ بما يجب عليكِ القيام به.

لمعت عينا نادية مثلما تلمع عيون القطط ليلًا. وقد أدركت أن هذا الطريق سيكون طريقها، وأنها لن تكمل ما بدأه أجدادها.

وكان جديها قد تخرجا في كلية الطب. ومع ذلك، كيف يعيشان الآن؟ حياة بسيطة يعيشها غالبية الناس، وتكمن سعادتهما في أنهما يعيشان بصورة طبيعية، ولا يقارنان أنفسهما بالآخرين. جملة القول إنهما لا يعرفان من الأساس كيف يعيشان حياتهما.

أما كسينيا فقد مر عليها عشرة أعوام بعد حصولها على الشقة، وما زال أمامها مثلهم حتى يذبل شبابها وينضب. فتدخل في مرحلة الشيخوخة، التي يدفن فيها المرء رأسه في الرمال ولا يلتفت إلى أي شيء.

تركت نادية المجلة من يدها وهناك شيء يدور في رأسها، بعدما أصبح وجه جاكلين ذو الأنف الأفطس والأعين المفترقة مرشدًا لها في حياتها.

وبجوار تلك المجلات كان يوجد برافان ذو مرآة، ومجموعة كاملة من مستحضرات التجميل الفرنسية خاصة بوالدة ناليا.

تزينت الفتاتان ونظرتا لأنفسهما في المرآة، من الأمام ومن الجانب ومن الخلف. ثم تجردتا من ملابسهما ونظرتا مرة أخرى إلى المرآة. الأمر الذي جعلهما يتنفسان بصعوبة ويشعران بالخزي بسبب تلك الجراءة.

الشيء الوحيد السيء أن ناليا لم يكن لديها طعام جيد، فقط الكشك والسجق. أما منزل نينا فكانت تفوح منه رائحة الطعام الشهي، زد على ذلك أن هناك خادمة تُدعى نورا تقوم بإعداد الطعام وتقدمه للضيوف، ثم ترفعه عن المائدة بعد الانتهاء من تناوله.

وكانت نادية تسعى من أجل هذا إلى زيارة نينا خلال أوقات الغداء. فتشرع نورا على الفور في إعداد الطعام، وقد تطرح على نادية بعض الأسئلة من نوعية:

- أين والدك؟

فتضطر نادية إلى قول إن والدها يعول أسرة أخرى وأبناء آخرين.

- و هل تتقابلين معه؟

- كيف يمكنني مقابلته وهو يعيش في هولندا؟، هل تفهمين؟! هولندا.

- وإلامَ تطمحين أن تصبحي في المستقبل؟

- لا أعلم.

على الرغم من أنها تعرف حق المعرفة ما تطمح إليه. تريد أن تصبح زوجة لأحد الملياردير ات. لكن سيسخر الناس منها إذا قالت هذا.

وعلى الناحية الأخرى قررت ناليا أن تصبح ناقدة سينمائية، وأن تتعلم اللغات من أجل مشاهدة الأفلام بلغتها الأصلية. أما نينا فاتخذت قرارًا بالالتحاق بمعهد الهندسة المعمارية، وتعلم الرسم البياني. وتظل نادية تُفكر وتفكر: كم يلزم من الوقت من أجل الحصول على الأموال الكافية لعيش حياة مرفهة؟ ربما، فترة جيلين على الأقل؛ أي مئة وستون عامًا. أما إذا تزوجت من أوناسيس، فسوف أحصل على ما أريده كله في الحال، ولن أضيع يومًا واحدًا.

وما إن انتهيتا من تناول الغداء حتى نهضت نادية عن مقعدها وغادرت؛ لأن نينا كانت تستعد في تلك الفترة للالتحاق بالكلية، فيأتيها المعلمون من هنا وهناك بهدف تجهيزها إلى هذه المرحلة الفارقة.

وبمجرد دخول نادية إلى المنزل، أخذت كسينيا كعادتها في إعادة كل شيء من جديد.

وأدارت أغنية الثور الأبيض ثم شرعت تسأل:

- ما الكلية التي تريدين الالتحاق بها ؟

- ولماذا تسألين ؟

- لماذا أسأل! لقد نجحت في الحصول على شهادتين.

قالت كسينيا وتكاد فرائصها ترتعد من الخوف، وتقصد بالشهادتين مدرسة الموسيقى، التي درست فيها سبع سنوات، بجانب المعهد الفني الصناعي.

- و ما الفائدة التي عادت عليكِ من ذلك التعليم؟

- جعلني أعيش حياة كريمة. أنا أحب ما أعمل .

- هذا لأنك لا تعرفين كيف يعيش الآخرون .

- وكيف يعيشون؟

- هل تعلمين أن ثمة أناس يملكون طائرات وجزر؟!

- وما حاجتي إلى امتلاك جزيرة كاملة؟

- هناك يمكنكِ التعري تمامًا والسير على الشاطئ. أتعرفين كم هو رائع أن تسيري عارية؟

ـ لا أعرف. و كيف عرفتِ أنت ذلك؟

لقد عاش الجد والجدة طوال حياتهما في غرفة لا تتعدى مساحتها ١٢ مترًا. ونادية الآن تطمح إلى امتلاك جزيرة. من أين جاءت بتلك الأفكار؟ ومن أين لها بهذه الجينات؟ بالتأكيد، ليس من ذلك الشخص المنغولي. لكن ربما يكون من ذلك المكان الممتلئ بالسهول، التي لا يقطنها الناس إلا على بعد عدة كيلومترات. فالجينات هناك مختلفة تمامًا.

تمنت كسينيا لو تسير الابنة على خطاها، وأن تحقق أهدافها: ببطء، لكن بإصرار. ثم تستريح عندما يحين سن الشيخوخة وتستمتع بثمرات عملها.

لكن نادية لم يعجبها ذلك البطء، لأنها رغبت في الحصول على ما تريده اليوم، وليس غدًا. ولا مانع لديها أن تستمتع بثمار عمل الغير. الأهم ألا تستمتع بها في سن الشيخوخة فقط، بل تأخذ نصيبها في سن الشباب، عندما تتهيج الرغبات ويزداد الشغف.

عادت والدة نينا، المطربة المعروفة، من المجر، ومعها لابنتها سراويل بجيوب كبيرة على الركبتين والأرداف. قامت الفتيات بتجربة الملابس بطريقة عشوائية، فحازت إعجابهن. وقفت نادية أمام المرآة فأدركت أنها لن ترتدي مجددًا السراويل القديمة التي تنتجها شركة «نو.. باجادي». وقد أخبرتها ناليا ونينا أن السراويل تناسبها أكثر منهما. وهذا لأنها تمتلك سيقان طويلة ومؤخرة مستديرة.

وفي تلك الليلة انفجرت نادية باكية، فغضبت كسينيا، وقالت بنبرة صارمة:

ـ أووف، لماذا تبكين؟!.

ـ لماذا تعيش نينا حياة راقية، وأنا لا؟

ـ لأن لديها أبوين يعملان، أما أنا فهنا بمفردي.

- ولماذا لا أملك أبًا ؟

- هكذا شاء القدر. لقد كنا نختلف كثيرًا.

- الأمر نفسه لدى نينا. أبواها يختلفان أيضًا. تعود والدتها، مطربة البوب، إلى المنزل كل يوم بسيارة مختلفة. أما والدها فيعود ماشيًا على قدميه عابس الوجه. أعتقد أنهما أكثر الأزواج خلافًا على وجه الأرض. إلى درجة أنني أعجز أحيانًا عن إدراك الشيء الذي يجبرهما على العيش سويًا. حسنًا، لقد تذكرت، نينا هي التي تجبرهما. لأن كليهما يحبانها أكثر من أي شيء في حياتهما. وسيصبح الحب الذي جنته في الطفولة مصدرًا للاستقرار والأمان طوال حياتها.

أما نادية فلا أحد يحبها. جديها يعيشان في مكان بعيد. والأب مستقر في هولندا. والأم مشغولة طوال اليوم بغسل الأواني والأطباق.

تشعر كسينيا بالندم أحيانًا فتحدث نفسها قائلة: لماذا انفصلنا أنا وفارلاموف؟ لماذا هرعت وراء مشاعري غير الناضجة، مثل الغيرة, والأنانية, والجزع. كان يبدو حينها أن الحياة ما تزال أمامي، وأن الحب سيأتي عما قريب. وهذا هو الأهم. إلا أن الحب لم يسبق له أن طرق أبواب كسينيا يومًا واحدًا. يبدو أن القدر اتخذ قراره: «لك الصحة والنجاح في العمل، أما السعادة في حياتك الشخصية فلن أهبك إياها، وإن سألتيني عنها».

نعم، من المستحيل أن يمتلك المرء كل شيء. ربما يمكنه التمتع بشيء أو اثنين. وهذا بالمناسبة ليس أمرًا سيئًا. لأن هناك أشخاص لا يملكون شيئًا البتة.

تجاوزت الفتيات السنة الدراسية التاسعة، وحان موعد عطلة انتهاء العام. ذهبت ناليا بصحبة أمها إلى دول البلطيق، ورحلت نينا إلى سوتشي لزيارة أقارب والدها. أما نادية فها هي تجلس في شرفة منزلها تحت أشعة الشمس، وبجانبها علب الطلاء الفارغة.

رأت نادية أن صديقتها ناليا تتنزه في دول البلطيق بين أصحاب الأعين الزرقاء. ونينا تسير على شاطىء البحر الأسود بين سكان أمريكا الجنوبية. أما هي فتجلس في الشرفة. أمر جعلها تتمتم لنفسها قائلة: لماذا كل هذا الظلم ؟ ثم ذهبت إلى والدتها:

ـ لماذا لا تستريحي قليلًا، ونذهب سويًا إلى مكان ما؟

ـ لا أحبذ الجلوس دون عمل. سأشعر بالملل.

كانت كسينيا تشعر بالاتزان خلال أوقات العمل فقط، عندما يكون رأسها ويداها مشغولين. لأنها إذا جلست دون فعل شيء ستتسلل إليها الأفكار المحزنة على الفور؛ ومنها أن صديقها القديم، نيكالاي كوليا، الفنان الفقير ذا الشعر الغريب الذي لم يسبق له أن صفقه مرة واحدة، قد تزوج من فتاة تبلغ اثني عشر عامًا. وقد سألها ذات مرة عبر الهاتف:

ـ أما تزال نادية تسير هنا وهناك وتتذمر، ولا تعرف ماذا تفعل؟!

وفي يوم من الأيام دفع الفراغ نادية إلى كتابة بعض السطور الشعرية، ولسبب ما كانت تلعب فيها دور الرجل: «أنظرُ إلى ركبتيك النظيفتين الجذابتين، فتثير إعجابي. وما يحزنني أنني لا أتمتع بمثليهما».

مرقت كسينيا بنظرها على تلك السطور، ثم قالت:

ـ هذه سخافة.

ـ لماذا؟

ـ لطالما كانت. من الذي ينظر إلى ركبتيكِ؟ وأين ؟

ـ في الأماكن كلها؛ الحافلة، والمترو.

ـ يا إلهي.

أعرضت كسينيا عن ابنتها. لأنها لم ترد أن يصيبها التوتر. فكما يقولون: إذا أحب شخص شخصًا آخر عليه أن يصرف النظر عن أفعاله وأفكاره الخاصة. فقط ينأى بنفسه ويكتفي بالمشاهدة من بعيد. وهناك، بالمناسبة، أناس مقربون؛ الوجه في الوجه، ومع ذلك لا يشعرون ببعضهم بعضًا.

قدمت نادية تلك السطور الشعرية إلى والدة ناليا حتى تقرأها، لأنها تعمل محررة في إحدى المجلات.

طالعتها ثم قالت:

ـ قصيدة لم تنضج بعد. لكنني أستطيع الشعور بالعاطفة التي تغمرها، ورؤية الطاقة المنبعثة منها، وما فيها من رسالة جريئة.

لك أن تتخيل أن المرأة الغريبة لاحظت تلك الرسالة، ولم تلحظها الأم، التي أخمدت بفعلتها هذه شعلة الحماس داخل ابنتها، وسحبتها إلى القاع.

كانت والدة ناليا قد ترملت بعد اختفاء زوجها الطيار في ظروف غامضة. عندما اختفت طائرة كانت تنقل حمولة ما إلى إفريقيا بمن على متنها من ركاب. ربما سقطت في الأدغال فقامت الحيوانات البرية بافتراس أجسادهم. حسنًا، ما يزال الأمر غامضًا. ولا أحد يعرف شيئًا.

بات الوالد والزوج المفقود أسطورة في العائلة، ومصدرًا يبعث على الفخر. الأمر الذي جعل الزوجة تعلق صورته في أحد الأماكن البارزة في الشقة، وتضع بجوارها وردة مجففة، كما جعل الابنة تقتدي به في تصرفاتها، فنجدها تقول أحيانًا: «إذا كان أبي موجودًا فسيروقه هذا»، أو «نعم، أبي كان سيتصرف هكذا». وبهذا الشكل أصبح الأب علامة بارزة في حياة ابنته.

وعلى الصعيد الآخر، هناك أب تخلى عن عائلته، فأخذت الابنة تسعى جاهدة إلى إخفائه عن الجميع، وكأنه عار يلاحقها. وقد التهبت نيران الغيرة

داخلها، لأن ناليا تملك علامة بارزة في حياتها، أما هي فلا، تبحر في بحر الحياة من دون دفة أو شراع. تذهب غالبًا إلى تلال لينين. لأنها تحب الوقوف على منصة المراقبة والنظر من الأعلى إلى موسكو، المدينة الكبيرة الهائلة، التي لا تختلف كثيرًا عن الكوكب الكامل. ونادية فيه مثل حبة الرمال. فتاة بائسة تريد الزواج من شخص بارز؛ الرئيس، على سبيل المثال. وتصبح السيدة الأولى، أو تتزوج من أوناسيس من أجل التحكم في مجريات الأمور بموسكو، حيث تقوم الشمس أحيانًا بإكساب الغيوم لونًا أرجوانيًا فيتغير المنظر تدريجيًا.

وبعد عام واحد دخلت الفتاتان المعاهد التي تمنتا الالتحاق بها. فالتحقت نينا بمعهد الهندسة المعمارية، والتحقت ناليا بمعهد السينما الحكومي، أما نادية فالتحقت بمعهد المعلمين، فقط لأن كسينيا كانت على معرفة ببعض الأشخاص هناك. لكنهم لم يستطيعوا أن يقدموا المساعدة لابنتها،التي فشلت فشلًا ذريعًا.

خافت نادية أن تعود إلى المنزل، وذهبت إلى صديقها أفيت، الذي كان في المعهد نفسه وفشل معها أيضًا. أصدقاء التعاسة.

تمكن أفيت من إقناع نادية أن تقضي الليلة معه. لا سيما أنه يملك غرفة خاصة في المنزل. وفي هذا اليوم فقدت نادية عذريتها بطريقة وضيعة ومجانية، حتى من دون أي شعور بالحب. أما أفيت فلم يستوعب أنها كانت فتاة عذراء، وعند بزوغ شمس اليوم التالي لم يقم بتقديم الشاي لها. بل لقد حدقت إليها والدته، المرأة الأرمانية العابسة قائلة:

ـ ماذا، هل أعجبكِ قضيبه؟

صمتت نادية ولم تعرف كيف تجيب عن هذا السؤال:

ـ لماذا تسألين؟ أفيت شاب جيد.

أما بخصوص «القضيب» فلم تكن نادية تفهم ماذا تقصد والدته، ولم تعرف ما الفائدة من سؤال كهذا. لم يحدث سوى مبادلة للقبلات وشيء ما أكثر إثارة.

توجهت نادية بعد ذلك إلى صديقتيها وأخبرتهما بالنبأ الصاعق. فعُقِد اجتماع طارئ، وفيه قالت نينا:

ـ ألا تعرفين أن مركز المتعة يوجد في الدماغ؟

اتسعت عينا نادية، فهي لا تفهم كيف دخل القضيب في دماغها.

التقطت نينا ورقة وقلم رصاص وأخذت تحدد مناطق الإثارة لدى المرأة، ودعمت فكرتها بالأرقام. ما الذي يثير، وأين يوجد، وما ترتيبه. كانت نينا بارعة في إثبات نظريتها. إنه سر مختبئ تحت ستار الظلام. ثم شاركتهما ناليا بوجهة نظرها. صديقتان خبيثتان للغاية. ويسمونها صداقة.

الصداقة، لقد خلقها الله من أجل إراحة الروح، تمامًا مثلما تفعل الأموال. على العموم، لن يجدي هذا نفعًا. فلا يجوز أن تضع نادية نفسها في مأزق، ثم شرعت تفكر في كيفية التصرف؛ فتاة صريحة لا تستطيع إمساك لسانها، وهذا ليس جيدًا في الأوقات كلها.

كانت الفتاتان تدرسان في معاهد مختلفة. نينا في معهد الهندسة المعمارية. وناليا في معهد السينما الحكومي، كما لو كان هناك شخص ما سوف يطالع مقالاتها، في وقت لم يكن أحد فيه يرمقها بعينيه، مع ذلك ستجد الابتسامات الصفراء على وجوههم مجاملة لها. فضلًا عن أنها ستتزوج من ناقد سينمائي ، سيشاركها في أكل الرافيولي وتبادل أطراف الحديث.

قرأت نادية، ذات مرة، على صفحات مجلة أمريكا أن كريستينا، ابنة أوناسيس، تزوجت من رجل روسي. فتعجبت نادية قائلة: هل من المعقول أن

يصل الحب بكريستينا إلى درجة تجعلها تسافر إلى موسكو وتعيش في شقة تتكون فقط من أربع غرف. ثم وجهت نظرها إلى صورة ذلك المحظوظ: شخص عادي، مُعاب في عينه. وهذا يعني أن طائر السعادة قد حلق قليلًا، ثم حط على كتف شخص ما.

*****

ألحقت كسينيا ابنتها بوظيفة في سكرتارية إحدى المدارس الفنية الصناعية. الابنة، التي كان الملل يصارعها بمجرد شروعها في مباشرة عملها، فتتغلب على ذلك بوضع يدها على المنضدة وإسناد رأسها إليها، ثم تدخل في سبات عميق. ومع ذلك لم يسبق لناظرة المدرسة أن رأتها في ذلك الوضع؛ لأنها كانت ترفع رأسها بمجرد أن يُفتح الباب وتنظر أمامها، تمامًا مثلما تفعل الفقمة. كانت مهددة بالإقالة في أي وقت. وبالمناسبة، لم تكن نادية متمسكة بهذه الوظيفة التي لا تجني منها سوى قروش قليلة. فثمة أهداف أخرى أمامها لتحققها.

أخذت نادية تتمتم قائلة: إذًا، ما الأماكن التي يتطلع الأجانب إلى زيارتها؟ مسرح البولشوي، الميدان الأحمر، السيرك، منصة المراقبة. مسرح البولشوي سيصعب علي الوصول إليه، والميدان الأحمر بعيد عن المنزل، أما منصة المراقبة الموجودة فوق تلال لينين فيمكن بلوغها بعد تجاوز أربع محطات باستخدام الحافلة الكهربائية.

وفي الليل ذهبت نادية إلى المنصة وقلبها يرتجف من حين لآخر، وفجأة ...

اليوم هو الثلاثاء من أيام الأسبوع. وكيف تنساه نادية وهو اليوم الذي تتقاضى فيه الراتب.

هطلت الأمطار لوقت قصير، فرحل الجميع عن المنصة ولم يبق سوى بائعي الهدايا التذكارية.

وفي مكان ليس ببعيد عن المنصة كان يقف شخص ما ألماني الجنسية بجوار دمى المتريوشكا مساومًا البائع، الذي يشير له بأربعة أصابع، في حين يشير هو بثلاثة.

شعر البائع بالضجر، فلوح بيده: البيع بثلاثة دولارات أفضل من عدم البيع نهائيًا.

أخذ الألماني دمية الماتريوشكا، وكان راضيًا كل الرضا أنه اقتصد دولارًا كاملًا، ما يعادل مارك ونصف. مبلغ لا يستهان به في روسيا.

قررت نادية أن تأخذ زمام المبادرة، ألماني أشقر أفضل من لا شيء، فاقتربت منه:

- كم الساعة؟

حدق الألماني إلى نادية وهو لا يفهم ماذا تريد منه، في حين تمعن نادية في النظر إلى وجهه الممتلئ بحب الشباب؛ شخص غث للغاية، يبدو أنه لم يمارس الرياضة من قبل.

أشارت نادية إلى الساعة. ففهم الألماني أنها ترغب في شرائها، وقد أومأ برأسه مؤكدًا أنها ليست للبيع:

- ناين.

فأخذت نادية تنقر بإصبعها على الساعة قائلة:

- لست في حاجة إلى ساعتك. فقط أريد معرفة الوقت.

دقق الألماني النظر مرة أخرى محاولًا معرفة ماذا تريد. وإذ فجأة يرى فيها جمالًا لا نظير له: الشعر الأسود الحريري ينسدل على وجهها ذي الحاجبين الآسيويين، والعيون خضراء تشبه فاكهة عنب الثعلب عندما تداعبه الشمس. والأسنان بيضاء ساطعة تشرق من وراء شفتين نضرتين.

وكانت الجينات المنغولية قد تفاعلت منذ فترة طويلة مع الدم السلافي، فظهر تأثير ذلك على وجه نادية، التي ظلت واقفة أمامه في شموخ وثقة كبيرة، في وقت لم يرفع فيه الشخص الألماني عينه عنها. ينظر إليها والخوف من رحيلها يجتاحه. أمر جعله ينزع الساعة من يده ويمنحها إياها. وكانت هذه هي هديته الأولى والأخيرة.

وبعد مرور عام واحد تزوجت نادية منه. وكانوا يدعونه جونتر. ولم تقف كسينيا أمام هذا الزواج، لأن جونتر شخص متعلم: تخرج في كلية الهندسة. لكن يجدر بنا أن نذكر هنا أن المهندس في الغرب شيء والمهندس في روسيا شيء آخر. فهناك يقدرون المهندسين حق قدرهم، ويدفعون لهم مرتبات عالية مساواة بالمحامين والأطباء.

لم تشعر نادية بأي مشاعر تجاه زوجها، لأنها كانت تراه مجرد عجلة ستنقلها من بلاد السوفيت إلى الخارج بصورة شرعية. فخلال فترة الركود المتأخر كان يمكن الرحيل إلى الغرب بثلاث طرق لا رابع لها: الانشقاق، أو الهروب، أو الزواج الشرعي.

الانشقاق أمر مزعج وفي منتهى الخطورة. أما الهروب فلن يمر مرور الكرام إذا قام أحد باكتشافه. يمكنك فقط فعل هذا إذا كنت شخصًا بارزًا في المجتمع، مثل روستروبوفيتش أو سولجينتسين. وبالتالي يكون الزواج الشرعي هو الحل الأمثل لبلوغ هذا الهدف. فما عليك سوى جمع الأوراق المطلوبة والرحيل، ثم تتطلع إلى مستقبل مشرق هناك. فالعالم كله، آنذاك، سيكون تحت عينيك. وبالمناسبة هذه ليست منصة المراقبة.

وقع الزواج تحت ستار الظلام ومن دون حفل زفاف، بعدما ظهرت رغبة كبيرة في إخفاء العريس عن أعين الناس. لأن كسينيا خافت أن يحدث شيء ما غير متوقع يُفسد تلك المناسبة، نعم، هي تخاف دائمًا. وهكذا هم الفنانون

يشعرون بالاستقلال، ويعترضون دائمًا، ولا يُصدرون الأوامر، ولكن ماذا بعد؟ كسينيا ليست مقاتلة، لا سيما في الصراع مع الحكومة. فالدولة كبيرة للغاية أما هي فشيء صغير.

جاء الجد والجدة من مدينة روستوف. وقد أعجبا بجونتر كونه متواضعًا ومهذبًا، فضلًا عن أنه يحاول تربية نادية وتعليمها. ويسعى إلى تحويلها إلى إنسانة جيدة. لكن نادية الكسولة لم تكن تستفيد بأي شيء يفعله معها ولا تنصت لنصائحه.

بدأت الموسيقى، فطلبت نادية من جدها أن يرقص معها. فوافق الجد الذي كان يجيد الرقص حق الإجادة، فنجده يحرك قدميه بثقة عالية على تلك الأرضية المرقعة. في حين تتألق نادية في فستان جميل أبيض اللون حريري الملمس قد احتضن جسدها الممشوق. وإذ فجأة تفيض أعين كسينيا من الدمع حزنًا على رحيل نادية إلى دولة أجنبية وعيشها بين أناس غرباء لا تعرفهم ولا يعرفونها. ويزيد من بكائها أن شبابها قد رحل، بعدما لوح لها بيده. وفي الوقت نفسه تشعر بالأسف تجاه جونتر الساذج الذي أذهب الحب عقله.

هكذا هي الحياة: تريد شيئًا وتحصل على شيء آخر. والعزاء الوحيد في ذلك أن الناس جميعهم يعيشون بالقانون ذاته، وليس بالجوار شخص واحد يهنأ بسعادة كاملة.

لم تعانِ مدينة مونستر من أهوال الحرب العالمية الثانية. ولم تسقط عليها قنابل الجيش الروسي، الذي لم يُجبر على فعل هذا، لأن ألمانيا كانت قد استسلمت آنذاك، فلم تظهر حاجة وإن صغرت إلى تدمير هذا الجمال الأخاذ.

وسط المدينة، شارع صغير مائل ذو أرضية لامعة. يرتكز على جانبيه منازل عتيقة، وعوارض خشبية داكنة تبرز من خلال الجص الأبيض. منازل لا يشبه بعضها بعضًا، فكل منها قد شُيد على طراز خاص، ونوافذها تلمع

بشـدة بفضل نظافتها. فالنسـاء الألمانيات مولعات بالنوافذ، حيث يعتقدن أنها بطاقة التعريف بأصحاب البيت.

لم تستوعب نادية هذا الولع الألماني. فهي لا تحب التنظيف، ولا طهي الطعام. الأمـر الـذي كان يدفع جونـتر إلى إعداد الطعام بنفسـه، طعام لذيذ وسـريع التحضير. ولم يكن لديه في ذلك حل آخر.

كانـت ناديـة تحب الـتردد على المتاجـر حتى تـرى ماذا يعرضـون هناك، وكانـوا يعرضون كل شـيء. وكأنها جنة للأقمشـة، حدائـق بابل. هناك سـتجد ملابس التنـزه وملابس البيـت وملابـس الرياضة، فضلًا عـن الأحذية والحقائـب والمعاطـف. وثـمـة محلات أيضًـا تبيع بأسـعار باهظة ومتوسـطة وزهيـدة. الأمر هنا يختلف عما في موسـكو، حيث تنتقـل قطعة الملابس من يد إلى أخرى حتى تصبح مثل الخرقة. أما هنا فلا تمسكها سوى اليد التي سوف تشتريها.

تخيلـت ناديـة أنها تختار بعض الهدايا لأقاربهـا وصديقاتها، وأنها ترتدي من قطـع الملابس مـا يحلو لها، تتخيل ليس إلا. لأن جونـتر لم يكن يمنحها نقودًا. فهو لا يعرف لماذا ينفق المرء النقود على شـراء الملابس؟ شخص ألماني، مثله مثل كل الألمان، يفضل إنفاق النقود على السفر ولا يعنيه سؤال: من يرتدي ماذا؟

عرجـت ناديـة على أحد المحـلات التجارية التي تبيع بأسـعار باهظة، وأخذت تجـرب بعض السـاعات المعروضة. فوجهت إليهـا البائعات نظـرات احتقار، وقد عرفـن أنها امرأة روسـية لن تشـتري شـيئًا. فقط سـتبعثر الملابس هنـا وهناك ثـم تغادر. وبالتالي سـتظهر الحاجة إلى التنظيف ورائها ووضع كل شـيء في مكانه. يبـدو أن البائعات لم يكن على علم بالنظام السـوفيتي في التوزيع، أو العجز، أو كلمة «الشـراء». ماذا نفعل عندما تتوفر النقود؟ فقط نذهب إلى المتاجر ونشتري الأشياء. أمر في غاية البساطة.

لم يستوعب جونتر هذا، و لم يرد أن يرهق نفسه في التفكير. مع ذلك كان وجهه يتأجج غضبًا عندما يحين وقت سداد فاتورة التليفون، لأن راتبه الشهري لم يكن يكفي لسد تلك الاحتياجات. فثلث المرتب يذهب على المكالمات التي تجريها نادية بمعارفها في موسكو. وكان الزوج يحصل على راتب جيد، لكن نصفه يذهب بطبيعة الحال إلى دفع إيجار الشقة، والتأمين الصحي، والضرائب. وما يتبقى منه هو ما يكفي للعيش، وقد تمنيا لو أن هناك جزءًا من المرتب يمكنهما أن يدخراه لقضاء عطلة جيدة. بالإضافة إلى ضرورة وجود بعض الأموال في البيت تحسبًا لأي ظروف قد تحدث. هكذا كان يُتصرَّف في الراتب الشهري. ونادية لا تفكر في أي شيء، فالأهم بالنسبة إليها هو سماع صوت والدتها وصديقتيها والتحدث باللغة الروسية. كانا يتشاجران كثيرًا ويتبادلان السباب، كل منهما بلغته الأم. وفي مرة من المرات نفد الصبر، فشرع جونتر يركض وراء نادية، التي سقطت في نهاية الأمر بين يديه، فأخذ يقرصها بأصابعه مثلما يفعلون مع الإوزة. فترك هذا كدمات أرجوانية على جسدها.

كان جونتر يعد الطعام بنفسه، أمر لا يستصعبه أحد في ألمانيا، حيث لا يضطر المرء إلى طهي البرجر من اللحم السيئ. فقط كل ما عليه فعله أن يضع قطعة من اللحم الطازج على المقلاة وينتظر خمس دقائق. وها هو العشاء قد أعِد، ويوضع بجواره طبق من السلطة، لأن الفيتامينات لا تقل أهمية عن البروتينات. كان جونتر يقف أمام المقلاة نادبًا حظه، لأنه تزوج من امرأة كسلى، ومبذرة. أمر أسوأ مما يمكن للمرء أن يتخيله. مع ذلك كانت هناك بعض الدقائق التي يغفر فيها الزوج كل شيء لزوجته.

نعم .. لم تتلاق سبل نادية وجونتر في التفكير، لكنها تلاقت من الناحية الجسدية، ففي النهاية هي زوجته، وبما أن جونتر لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره، فمن الطبيعي أن تطغى الناحية الجنسية على كل شيء آخر.

مـر بعـض الوقت. وبدأت نادية تختلط مع النـاس تدريجيًا. وقد أطلقت على متجر (جيه .. أس) اسم «الجيش السوفيتي» وفقًا للحروف الأولى من الكلمتين، وتعرفت فيه البائعة جريتا. امرأة ألمانية من أصل كازاخسـتاني، تسـكن في ألمانيا بصحبة أمها، وزوجهـا وأبنائها. لكن معرفتها لم تمنح نادية أي امتيازات في ألمانيا، حيث ينأى الناس بأنفسهم عادة عن التعامل في الخفاء.

وكانت نادية تتعامل برحابة صدر مع جريتا، لأنها فرصتها الوحيدة من أجل التفوه ببعض الكلمات الروسية التي تهدئ الروح وتسكنها.

وفي يوم مـن الأيام قامت جريتا بدعوة نادية إلى حضـور حفل عيد ميلادها. مائـدة بيضية يجلـس عليها مهاجـرون كازاخسـتانيون، يأكلـون الطعام الروسي ويرددون بعض الأغاني الروسية. وكانت كاترين الثانية قد فتحت، منـذ ثلاثـمئة عـام، الباب أمـام الألمان حتى يدخلوا روسـيا، فلـم يتباطئوا عن الانغمـاس في ثقافة الدولة. ولكن جار الزمان على كل شـيء ولم تبق سـوى الأسماء.

كان زوج جريتا يشرب بشراهة مصوبًا نظراته العابسة إلى المائدة، ويتمنى لو يرحل عن هنا إلى كازاخسـتان، حيث كان يشـغل منصب مرشـد اللجنة التنفيذيـة في المنطقة؛ أي أنه كان شـخصًا بـارزًا. أما هنا فهو عامل مسـاعد في أحـد مصانع الخرسـانة، يقـوم بثني الحديـد، فتؤلمه يداه أشـد الألم. وكان يتقاضـى راتبًا شـهريًا جيـدًا إلى حدٍ ما، لكنـه يعرف حق المعرفـة أن عموده الفقري سيُفتق ذات مرة، وسيهلك قريبًا. حسنًا، هذه ضريبة الهجرة وهذا ثـمن الاغتراب.

أمـا والدة جريتا فكانت سـعيدة بمجيئها إلى هنا، حيث يقوم الأطباء الألمان بمعالجتهـا. أطبـاء ماهرون لا يجـدون صعوبة في تشـخيص الأمـراض ووضع الأدوية المناسبة لها. كان من الممكن أن يدركها الموت في كازاخستان قبل

عشر سنوات لولا سفرها إلى ألمانيا، التي يتمتع قاطنوها بحياة مديدة وصحة وفيرة. ومن أجل هذا فقط يجب الذهاب إلى ألمانيا، فما الشيء الذي سيكون أكثر أهمية من الحياة؟

تمتعت جريتا بنظرة حالمة، وقد تمنت أن تصبح سيدة أعمال، وبمجرد نطقها لمسمى تلك الوظيفة كانت الآمال تتراقص أمامها وتفتنها. في حين ترتسم ضحكة ساخرة على ثغر نادية التي تتمتم قائلة: ماذا تكون سيدة الأعمال إذا ما قورنت بزوجة أوناسيس؟

حسنًا، لقد أطبقت التعاسة ذات مرة على حياة أوناسيس بسبب مصرع ابنه جراء تحطم طائرته الخاصة. ولم يكن لدى الوالد النقود الكافية التي يمكنها أن تشتري لابنه حياة أخرى، أوناسيس الفقير، أوناسيس المسكين.

كلاوس وتانيا – ألمانيان سلافيان، متخصصان في الأدب السلافي. صداقة أخرى كانت أكثر فائدة وأهمية بالنسبة إلى نادية.

تضم مدينة مونستر جامعة عتيقة، مبنى مهيب من الطوب الأحمر، كان يدرس فيه من قبل كل من لمانوساف وباسترناك، اللذان كُتب اسمهما على إحدى اللوحات البرونزية في الجامعة.

وفي مرة من المرات قررت نادية القيام بنزهة إلى الجامعة. ولمَ لا؟ وما فائدة التردد على المحلات من الأساس إذا كان من الممكن أن يتعرف الناس بعضهم بعضًا في الجامعة؟

اقتربت نادية منهما، ثم قدمت نفسها. وقد أخذت زمام المبادرة:

ـ أنا نادية فارلاموفا. وأنتم؟

ـ أنتِ من روسيا؟ هذا جيد. لغتك الأم هي الروسية.

كانت تانيا تمتلك جسدًا بدينًا ووجهًا جميلاً، وتتمتع بروح الدعابة، فأخذت تتقابل عن طيب خاطر مع نادية وتمرن لغتها الروسية. ورحبت نادية بذلك ورأته فرصة جيدة من أجل الانغماس في البيئة الألمانية. لا سيما أنهما ليسا من المهاجرين الكازاخستانيين.

وبدورهما قام كلاوس وتانيا بتقديم نادية إلى أصدقائهما السلافيين، الذين لم يكن من بينهم فرد واحد من عينة أوناسيس، وإن كان معظمهم أثرياء.

مونستر – مدينة الطلبة والعميان، الذين يأتونها من أنحاء ألمانيا جميعها، فهنا تقع مدرسة خاصة، يجب على الطلاب من أجل الوصول إليها أن يعبروا الطرق رافعين عصيانهم حتى يتحسسوا كل شيء من أجل الشعور بالاطمئنان. وفي بعض الأحيان كان العميان يهيمون على وجوههم باسطين أياديهم إلى الأمام وبمجرد اقتراب نادية منهم يأخذونها في أحضانهم. فتسير هي أيضًا متلمسة الهواء بأصابعها.

وعلى الجانب الآخر كانت ناليا ونينا تكتبان الخطابات إلى نادية بصورة مستمرة وتشتكيان من الفوضى التي أحدثتها البيريسترويكا. و يحسدونها لأنها تعيش في بلد مستقر. ليتهما تعرفان، لكن هيهات أن تعترف نادية بإخفاقاتها. فبالنسبة إليها كان الشكل أكثر أهمية من المضمون.

لم تكن مدينة مونستر تحتوي على منصة للمراقبة. ولا على أجانب؛ لأن الجميع كان أجنبيًا. ويقع مبنى البلدية على مشارف المدينة، أحد المباني التي لم تكن جميلة مثل نظيرتها في وسط المدينة, لكنها مع ذلك لم تكن قبيحة كما هو الحال في ضواحي موسكو. وربما خرج المبنى بهذا الشكل بفضل المصنع الذي يعمل فيه زوج جريتا المسكين الذي يثني الحديد بصعوبة، فيخرج من تحت يديه إنتاج ذو جودة عالية. هكذا هم الألمان يتمتعون بثقافة العمل المتقن.

وكان يعمل في ذلك المبنى عدد هائل من الأتراك، أولئك الأجانب الذين عنهم يدور حديثنا، ومنهم شاب تركي أخذ يرمق نادية بنظراته الفاتنة، ففهمت نادية سريعًا، لكنها لم تكن تعلق آمالًا على القصص الرومانسية؛ لأنها تهتم بالنقود فقط. وفي يوم من الأيام فُتنت نادية ببدلة مصنوعة من الجلد الأسود كان يعرضها أحد المتاجر الراقية. وكذلك تريد الاتصال بموسكو، لأنها كانت في حاجة إلى سماع صوت أمها، مثلما يكون الغواص في حاجة إلى إنبوب الأكسجين. وجونتر لا يفهم سبب تعلق الزوجة بوالدتها إلى هذا الحد.

اشترت البدلة، ولم يقتصر الأمر على ذلك.

يقولون: من يفرح يضحك، ومن يرد يصل، ومن يبحث يجد. وبالفعل تمكنت نادية من شراء كل شيء تمنته: ملابس التنزه، وملابس البيت، وملابس الرياضة. واشترت أيضًا لأمها ملابس الرياضة وملابس التنزه فقط؛ لأنها كانت تمتلك العديد من ملابس البيت. ومن أجل القيام بهذا احتاجت نادية إلى شخصين من الأتراك. هناك هدف وهناك وسيلة؛ الهدف هو شراء الملابس لنفسها ولأمها، والوسيلة شخصان من الأتراك. والوسيلة لا تهم إذا ما قورنت بالهدف. لأن النتيجة دائمًا ما تكون أهم من الفعل. والنتيجة هنا أن نادية قامت بإرسال طرد إلى أمها، التي اتصلت بها فور وصوله، ويكاد صوتها يطير من السعادة. وكان عمرها آنذاك أربعين عامًا. العمر الذي قالوا عنه في القرن التاسع عشر إنه بداية الشيخوخة. أما في القرن العشرين فهو أوج العمر. لأن كل شيء يبدأ في سن الأربعين.

وكذبت نادية على أمها خلال المكالمة التليفونية وأخبرتها أنها تعمل مترجمة للمجموعات الروسية. وأنه قد وُضِعت بعض الخطط المستقبلية لتنظيم عدد من الرحلات السياحية إلى روسيا، وستقوم بدعوتها إلى مدينة مونستر.

ولم يمر وقت طويل حتى سقط القناع، وانكشف أمرها، فأصبح كل ما هو غامض واضحًا كالشمس.

ففي إحدى الليالي الهادئة، عندما كان جونتر عائدًا من عمله. اقتربت منه الحارسة وهمست قائلة:

ـ لا أريد التدخل في حياتك. لكن عندما تغيب عن المنزل يأتي إلى زوجتك رجال. واحدًا تلو الآخر.

لم يفهم جونتر ما معنى «واحدًا تلو الآخر»:

ـ كيف هذا؟

سألها جونتر وقد تحطم كل شيء بداخله، كما لو كانت المعدة قد سقطت في قاع البطن، وسقط القلب في المعدة.

ـ في الساعة الثانية، والثانية عشرة .

لم يعرف جونتر ماذا يقول. ماذا كنت ستفعل أنت؟ يمكنك أن تقول «شكرًا»، لكن في مثل هذه المواقف لا يتوجه الناس بالشكر.

نظر جونتر باشمئزاز إلى وجه الحارسة الصارم. وتوقف عن استدعاء المصعد. ثم صعد السلم على قدميه. لأنه كان يود البقاء بمفرده في أسرع وقت ممكن. فمن المهين له أن يظل واقفًا بجوار الشخص الذي كشف فضيحة زوجته، وشهد على تدمير حياته. ماذا أحضر معه من روسيا؟! وفي حب من قد وقع !! أحمق. لقد صدق هذا. وأينما ذهب سيكون أحمقًا. ولكنه كان يعرف كيفية الدفاع عن نفسه، وعدم السماح للناس بتخريب حياته.

وصل جونتر سريعًا إلى باب شقته وفتح الباب بمفتاحه الخاص. وأمسك نادية من يدها وسحبها إلى خارج الشقة. ثم دخل وأغلق الباب وراءه، وقد أحكم إغلاقه.

حدث كل شيء بسرعة ومن دون ضجة تُذكر.

وقفت نادية وعلى وجهها علامات الحيرة. فعلى الأقل كان عليها أن تأخذ المعطف وحقيبة الوثائق معها، لكنها خافت أن يراها مرة ثانية فيضربها بشيء ثقيل أمامه، لا سيما أنها كانت تسمع من وراء الباب أصوات تكسير الأطباق. يفعل جونتر هذا، وهو بخيل أشد البخل. لقد حطم كل شيء، فتوترت الأجواء واشتعلت.

لملمت نادية شتات نفسها وأخذت تنزل السلم.

نظرت إليها الحارسة بشكل عدائي ويقظ، مثلما يفعل الجرذ. فأدركت نادية أن الحارسة لها يد في ذلك، فحدثتها بلغتها الروسية والابتسامة ترتسم على وجهها:

- كلبة، حمقاء، تبا لكِ.

- دانكي .

خرجت نادية إلى الشارع. إنه شهر نوفمبر. المناخ ليس باردًا كما هو الحال في موسكو، التي تقل درجة حراراتها عن نظيرتها في مدينة مونستر بعشر درجات. لكن هذا أيضًا ليس الصيف. وخاصة أن نادية ترتدي بلوزة قطنية خضراء اللون بأكمام قصيرة، اللون الذي كان موضة هذا الموسم. وكانت نادية قد شرعت في الفترة الأخيرة في ارتداء أفخر أنواع الثياب، وقد ساعدها في ذلك التركيان ماكسود وروستام. شابان مرحان ودودان حاولا تعليمها طريقة غناء الأغاني التركية، لكن نادية لم تستطع تكرار هذه الجمل الصوتية المعقدة، لأنها ليست متحدثة للغة التركية.

لم يثر الجانب الأخلاقي أي قلق لدى نادية. فالمرأة، من وجهة نظرها، لا تكون حمقاء إلا عند اكتفائها برجل واحد. وثانيًا: جسدها هذا ملكها فقط تتصرف فيه كيفما تشاء. ثالثًا: السرقة عار، أما كسب العيش فليس عارًا.

جلست نادية على مقعد أمام البيت لا تعرف إلى أين تذهب. تنتظر والأمل يحدوها، فربما سيفتقدها جونتر ويشرع في البحث عنها، فلا يبذل مجهودًا في العثور عليها. لذلك ظلت جالسة على المقعد في انتظار أن يحدث شيء ما.

وإذا خرج جونتر إلى الشارع، ستذهب إليه نادية بنفسها وترتمي بين أحضانه، كأنه منقذها، وستنسى حينها أرسطو أوناسيس تمامًا، ولن تتحدث مجددًا عن روستام أو ماكسود.

لكن جونتر لم يخرج، ولم يشتق إلى زوجته.

ظلت نادية جالسة على المقعد لثلاث ساعات حتى أوشك جسدها أن يتجمد من شدة البرد. فكانت تحتضن نفسها بذراعيها لكي تشعر بالدفء. ثم أصبح جليًا أن الجلوس لا فائدة منه، وأنه يجب التحرك.

نهضت نادية وأخذت تسير عبر الشارع الصغير المائل قاصدة تانيا وكلاوس. وهناك لم تتحدث عن الأتراك أو الحارسة، ربما منعها شيء ما عن فعل هذا. واكتفت بقول إن جونتر قد برحها ضربًا.

تأججت تانيا غضبًا عندما استمعت لما حدث مع نادية. لأنها كانت من محبات الشهرة اللاتي يدافعن عن حقوق المرأة. كانت ترى أن العنف الأسري جريمة بشعة في حد ذاته. فاقترحت على نادية التوجه إلى قسم الشرطة. لكن قوبل هذا الأمر بالرفض؛ لأنها فضلت الجلوس بهدوء لكيلا يصبح الوضع أكثر سوءًا. بالطبع لن يصل الأمر إلى الزج بها وراء القضبان، ولكن من الممكن أن يطردوها و يخرجوها من الدولة قائلين: لا زوج لكِ ولا عمل، إذًا، ماذا تفعلين هنا؟ هيا، توجهي إلى بيتك في روسيا. ولا شك في أنها تريد ذلك بشدة، لكن

مـن العار عليها أن تعـود إلى وطنها وعلامات الخوف تجتـاح وجهها. لقد هرعت ناديـة وراء مليونـير، لكنها تلقت ضربة مبرحـة. وفي نهاية الأمر، ليس جونتر سـوى عجلة نقلتها إلى مونسـتر ثم تحطمت. إذًا، كيف يمكنها أن تتصرف الآن؟ تأخذ زمام المبادرة.

كانـت تانيا قد عرضت على نادية أن تشـاركها الفـراش. وكانت تضمر مـن الحب لزوجها كلاوس ما لا نهاية له، فشـكلا معًا فريقًـا رائعًا. ومع ذلك لم تكـن تلتزم بجدول الليالي السـاخنة، في حين كانت نادية تحب العلاقات الجنسية بما فيها من مداعبة وإثارة. فباتت على استعداد تام للدخول في تجربة جديدة مع إحدى السـيدات، لكـن، بالطبع، ليس مع تانيا، لأنهـا امرأة بدينة، ومتخمة بالدهون تمامًا مثل خالتها الجالسـة في مدينة روستوف. فما المتعة التي سـتحصل عليها وأية مداعبة ستقوم بها؟ لكنها اضطرت إلى تحمل هذا حتى تحافـظ على مكانهـا في البيت، تعيش معها وتأكل وتنـام، وتقضي بعض اللحظات السـاخنة. هكذا كان تفكـير نادية. أما تانيـا فذهب تفكيرها إلى اتجـاه مختلف تمامًا، وقـد رأت أن تلك اللحظات الحميمة لا تكلف شـيئًا البتـة. فهي مجرد رغبة مشـتركة من الطرفـين. أما الطعام فشـيء يحتاج إلى أمـوال، وعلى نادية أن تؤدي التزاماتها، ولا تجلـس هكذا، وتعيش عالة على الآخرين. فقامت بمشـاركة وجهة نظرها معهـا واقترحت عليها العمل في أمور المنـزل: التنظيف، والكنس، ومسـح النوافـذ وإعداد الطعام. أربعة أشـياء في الوقت ذاته، مرتان في الأسبوع لمدة ست ساعات.

أخذت نادية تُفكر، العمل مقابل الطعام، وممارسـة الحب مع امرأة بدينة! يـا له من طريق مسـدود. لقـد كانت الحيـاة أفضل بكثير مـع جونتر، الذي دفعتهـا الظروف إلى الاتصال به حتى تجس نبضه وتتحسـس الأوضاع. فحدثها قائلًا: يمكنك المجيء وأخذ متعلقاتك والوثائق التي تريدين. وفي خلال سبعة أشـهر سـتحصلين على شـهادة الطلاق. وبالفعل بدأت الإجراءات واسـتدعيت الحارسة من أجل الإدلاء بالشهادة.

أدركت نادية أن جونتر تعجل في القيام بالإجراءات حتى لا يمنح نفسه الفرصة ليعيد التفكير. كان يحبها، بالمناسبة، فخاف من حنان قلبه واشتياقه لها. أما نادية فلم تكن تحمل له مثقال ذرة من حب. لقد تزوجت من عجلة نزلت بها، على حين غرة، في مستنقع مليء بالوحل.

رحلت نادية وعملت نادلة في أحد المقاهي، بعدما سمح لها المدير بالنوم ليلًا في غرفة المقهى بالطابق الثاني، غرفة تحتوي على أريكة وتلفاز.

وهذه هي المرة الأولى التي تشعر فيها نادية بالتعب ولا تجلس أمام التلفاز. ففي نهاية اليوم كانت تصل بصعوبة إلى الأريكة، وتدخل في سبات عميق حتى قبل أن تضع رأسها على الوسادة. وفي مرة من المرات رأت في منامها أنها لن تتمكن من تحقيق أهدافها وستتكبد مرارة الفشل في الحياة. لكنها سرعان ما اعتادت هذا الوضع وتأقلمت مع الأجواء. كان الألمان يدفعون إكرامية: عشرة بالمئة من المبلغ المطلوب. لا يزيد عن ذلك، لكنه لا ينقص أيضًا.

أُجبرت نادية أحيانًا على حمل الصواني الثقيلة، التي كانت تسبب الألم لظهرها. فتتذكر على الفور زوج جريتا التعيس، الذي يقضي جل وقته في ثني حديد التسليح. وظيفة كان الألمان يلقون بها من على عاتقهم إلى المهاجرين، ويمكرون في فعل ذلك أشد المكر.

كان يسمح للنادلات أن يأكلن من المقهى، لكن بشرط أن يأخذن الطعام الزهيد: السجق، والسوسيس، والبطاطس. ومن المثير للسخرية أن يرى المرء الجمبري على المشواه، ولا يستطيع أن يأكل سوى السوسيس المليء بالكوليسترول.

أما نادية فكانت تضع بقايا الطعام الفاخر في حقيبة تخصها. تلك الأشياء التي تظل في الأطباق: الجمبري، وأسماك السالامون. ثم تذهب إلى غرفتها عقب انتهاء العمل وتشرع في الأكل بشكل هادئ ومنمق.

وجدير بالذكر أن الأشخاص الذين من عينة أوناسيس لا يعرجون على مثل هذه المقاهي. فالرواد الأساسيون هم فئة متوسطة من الألمان المملين، المثليين والمثليات جنسيًا. وقد تعلمت نادية التمييز بينهم: المثليون يضعون حلقة في آذانهم، ويتدللون مثل النساء. والمثليات يجلسن أزواجًا متشابكات الأيدي.

ومع حلول الليل كان المقهى يعج بجموع الطلاب، الذين لديهم الملكة في ترديد بعض الأغاني الألمانية بصورة إيقاعية مميزة. الأمر الذي جعل نادية تتذكر الأفلام التي تتحدث عن فترات الحرب، حينما كان الناس الشقر طوال القامة يجوبون روسيا منذ ستين عامًا ويرددون الأغاني ذاتها. ولا غرو في أن نادية كانت تتوق أحيانًا إلى الجلوس بجوارهم، ومشاركتهم روح الشباب، ولكنه أمر غير مقبول، وسيطردها المدير إذا عرف به.

وكان المدير نفسه يسعى إلى التمتع بشباب نادية، التي كانت تحيد عن هذا. والسبب في ذلك أنها لن تتقاضى مقابلًا، خدمة مجانية. أما إذا وقعت في الحب، فعندئذ سيكون هناك حديث آخر تمامًا. لكن الكلام لم يدرعن الحب، ولا عن النقود. إذًا، ماذا سيكون هناك؟ استغلال الإنسان لإنسان آخر.

دلف المدير في ليلة من الليالي إلى غرفة نادية، في اللحظة التي كانت تُخرج فيها من حقيبتها قطعة من الجمبري لتأكلها. لكنه لم يلتفت إلى ذلك، وإنما حدق إلى ركبتيها الموجودتين في جوربين شفافين. ركزت نادية وتأهبت للمقاومة. كان المدير شخصًا عاديًا، طويل القامة وليس سمينًا، لكن اكتسى وجهه بشيء من القبح والبشاعة. وضع المدير يداه على ركبتي نادية وحاول فتحهما، فركلته بقدمها في بطنه. ولم يتماسك المدير وسقط على الأرض. فانفجرت نادية ضحكًا. الأمر الذي بدا أكثر إهانة للمدير، الذي اختلط الأمر عليه، فنادية لا تملك أموالًا تنفقها، ولا سكن يأويها، ولا مكانة في المجتمع تُكسبها رونقًا، ومع هذا تتصرف وكأنها ابنة مستشار قررت أن تعمل في العطلات لتُزيد ثروتها.

قام المدير بطرد نادية بسبب كسلها وعدائيتها، حسبما قال. حسنًا، لا هذا حقيقي ولا ذاك. لكن هذا أمر ليس له أية قيمة. غادرت نادية من دون بلبلة أو ضجة. وكعادتها كانت تتعامل بهدوء مع تقلبات الحياة المختلفة، مثل تعاملها مع الواقع. نعم تعني نعم، ولا تعني لا.

وفي تلك الليلة ذهبت نادية إلى أصدقائها الألمان ذوي الأصل الكازاخستاني، وللمصادفة كانوا يحتفلون؛ فقد حصل توماس، زوج جريتا، على ترقية في العمل، فقررا الاحتفال بهذه المناسبة. ومن بين الحضور كان هناك رئيس توماس في العمل، شخص ألماني تمامًا، ليس كازاخستانيًا، وإنما بافاريًا ويُدعى رانير، وكان يُظهر جميل العطف على الناس جميعًا، ويتعامل بتواضع ومن دون تكلف، فيمد يده دائمًا للناس عند التحية. فلا شك في أنه كان شخصًا ساحرًا.

فرحت جريتا لمجيء نادية إلى منزلها، تلك الفتاة الجميلة النضرة، فقامت بتزيين الطاولة ووضعت الزهور عليها، ثم جلست بجوار نادية دلالة على الود والألفة، بعدما انطفأت شعلة التوتر التي كانت بينهما.

قالت جريتا بهدوء خلال تبادلهم أطراف الحديث إن رانير ليس متزوجًا، وإنما لديه خطيبة تعيش في بلدة أخرى وتأتي مرة كل أسبوع من أجل قضاء العطلة الأسبوعية؛ أي: السبت والأحد؛ النظام السائد في ألمانيا.

ونادية، بدورها، لم تُخفِ على جريتا أنها تشاجرت مع زوجها وأنها لا تمتلك مكان تبيت فيه، ثم توجهت إليها بسؤال مباشر:

ـ هل يمكنني قضاء الليل في منزلك ؟

فكرت جريتا قليلًا. لأن منزلها لا يحتوي على غرفة للضيافة. وهذا يعني أن نادية ستقيم في المطبخ، وستنام على الأريكة. وسيكون على الزوج

الاستيقاظ صباحًا. وبالتالي ستتوتر الأجواء في المنزل. فاقترحت عليها قائلة:

ـ تستطيعين أن تطلبي هذا من رانير. اليوم هو الإثنين في الأسبوع، ولا أحد في شقته.

ـ و لكنني لا أعرفه. افعلي انتِ هذا.

ـ مستحيل. فهذه المرة الأولى التي يأتي فيها هذا الشخص إلينا، وتريدين مني أن أُثقل عليه بهذا الطلب.

لم تستمر نادية في إلحاحها. على الرغم من أنها كانت في أشد الحاجة إلى مكان ما تقضي فيه ساعات ليلها، حتى وإن آل الأمر إلى جلوسها أسفل السلم. وهنا قررت نادية أن تأخذ زمام المبادرة.

وعندما اقتربت عقارب الساعة من الحادية عشرة، نهض رانير ثم خرج إلى الردهة. فهبت نادية واقفة كفرس جموح، وأخذت تسير وراءه. إما الآن وإما فلا. وراحت تسأله بنبرة هادئة وكأنها تطلب إليه شيئًا هينًا:

ـ هل يمكنني المبيت عندك؟

في واقع الأمر لم يكن هذا شيئًا هينًا. لكن ماذا سيحدث إذا وافق على ذلك؟ هل ستتهدم الجدران؟ وفجأة اتسعت عينا رانير وزحفت إلى الخارج، وقد ارتسمت آيات الذهول على وجهه. فكررت نادية:

ـ ليس لدي مكان أنام فيه.

ـ لا أستطيع.

ـ لماذا ؟

ـ لن تتفهم خطيبتي هذا.

ـ و من أين ستعرف؟

ـ أنا سأخبرها بذلك.

ـ يمكنك ألا تفعل ذلك.

ـ لا أستطيع. لا يمكنني إخفاء شيء عنها. أنا أقول لها كل شيء.

تعجبت نادية: هل يمكن أن يكون هناك مثل تلك العلاقات؟! شخصان يعيشان وكأنهما شخص واحد. ولا يوجد بينهما أي أسرار.

حز الأمر في نفس نادية، لأنها كانت في أشد الحاجة إلى مثل هذا الحب. وقد شعر رانير بالذنب وأخذ يعتذر إليها، فاستغلت نادية هذه اللحظة، وحاولت الضغط عليه مرة أخرى:

ـ لكنني لا أكذب عليك. فقط جزء صغير على أريكة.

ـ لا أستطيع. سيكون هذا فعلًا شائنًا.

ـ الأمر في منتهى البساطة، لك أن تخبرها بأنني امرأة لا أجد مكانًا أبيتُ فيه.

التزم رانير الصمت. فأحست نادية أنه متردد. فأخذت وعدًا على نفسها قائلة:

ـ سأستيقظ صباح غد وأغادر على الفور. كما لو أنني لم أكن هنا لدقيقة واحدة.

ـ حسنًا.. موافق. لكنك ستذهبين في الصباح. وأعتقد أن سوزي ستكشف الأمر. فأنتِ لست قطة، بل امرأة.

سمح رانير لنادية أن تنام في غرفة المكتب، التي كانت تحتوي على صورة كبيرة لخطيبته سوزي. وشرعت نادية تمسح كل شيء في الغرفة بعينيها الزرقاوين. ثم قالت وقد اعتادت على الالتحاف بالملاءة فقط:

ـ يمكنني النوم من دون بطانية.

فاعترض رانير وسحب لها إحدى البطاطين قائلًا:

ـ الألمان ليسوا بخلاء.

لاحظت نادية كيف يقوم الألماني بسحب البطانية وكيف ينحني بجسده ويستقيم. وكان رانير يمتلك جسدًا متوسطًا، ويتمتع بوجه عالمي يمكنك أن تراه في تركيا وروسيا وفي الهند أيضًا. والفرق بين هذا وذاك يتوقف على السترة وقبعة الرأس لا أكثر.

ـ هل أنت ألماني؟

ـ والدتي من المجر.

ـ وأين هي الآن؟ في المجر؟

ـ لا. في إنجلترا.

يا للعجب. أناس يذهبون ويعيشون أينما يريدون.

ـ ولماذا لا تعيش أنت في إنجلترا؟

ـ لأنني أعمل هنا.

يعني هذا أن الألمان يعيشون حيث يعملون، أما الروس فيعيشون، حيث توجد منازلهم.

رأت نادية طريقة سحب رانير للبطانية. وعلى الرغم من أنها لم تكن معجبة به، فإنها لم تمتلك خيارًا آخر، فتوجب عليها التشبث بحبل ما حتى تصبح حياتها شرعية في ألمانيا. وعندئذ لن يكون هناك حاجة إلى الغم والحزن؛ لأن الحياة ما تزال طويلة. نعم، الحياة بأكملها ستكون أمامها، والماضي فقط سيكون في الخلف.

وفي منتصف الليل ذهبت نادية إلى رانير. وقد أخذت زمام المبادرة.

كان الألماني في حيرة من أمره، لكنه لم يعترض. لأنه كان يتوقع هذا وينتظره. راحت نادية سريعًا تلعب على جسده، وكأنها تلعب على البيانو، واضعة يدها على المفاتيح الصحيحة. فأصدر ذلك سيمفونية مذهلة، واستمر هذا لمدة خمسة أيام، من يوم الإثنين حتى يوم الجمعة، الذي اتصل خلاله رانير بخطيبته سوزي يطلب منها ألا تأتي. وقد تغيرت قائمة اهتماماته.» زاد الحب، فتوهج، ثم انطفأ واختفى».

حاولت سوزي إقناعه بضرورة مجيئها إليه، وكافحت حتى تتحدث قليلًا. لكن عن ماذا سيدور الحديث؟ أليس الأمر واضحًا؟

اختطفت نادية السماعة من رانير ونصحت سوزي بصوتها الجذاب ألا تُعيد الاتصال مرة أخرى.

حاولت سوزي، بعد ذلك، مرارًا وتكرارًا أن تتحدث هاتفيًا إلى رانير، الذي رفع سماعة التليفون بعد فترة وقال لها عبارة غريبة: تصرفن بأنفسكن. أمر لم تفهمه سوزي؛ من هم ؟؟ هي والروسية ؟ لكن أية روسية؟ لقد ارتكب رانير خيانة كبيرة، و نام مع امرأة أخرى.

شعرت نادية بالشماتة. لقد تمكنت من تحقيق انتصار على منافستها. وخطفت منها رَجُلها – الانتصار الأنثوي الرئيس. وما غير ذلك فهو هراء. ربما كانت سوزي أكثر كياسة وتواضعًا، أكثر تربية وتعليمًا، لكن تلك الصفات الحميدة لا تساوي ثلاثة قروش إذا ما قورنت بالموهبة الأنثوية الرئيسة.

كان رانير يدير الموسيقى كل مساء ويغني بنفسه، يصدر أصواتًا مثل حيوان الموظ، بعدما تندفع سعادته الذكورية إلى الخارج.

أجرت نادية اتصالًا هاتفيًا بوالدتها في موسكو حتى تُخبرها أنها «جددت زواجها»، ولديها الآن رجل آخر. فصُعقت كسينيا من المفاجأة، وكأنك ترش وجهها بمياه باردة. وعادت بعد ذلك إلى صوابها، بعدما مسحت المياه بيديها، ثم وجهت دعوة إليهما لزيارة موسكو.

وفي ذلك الوقت كانت كسينيا تعيش قصة حب عاصفة مع أحد الشباب القوقازيين، الذي اتضح في بادئ الأمر أنه غير صالح للزواج، على الرغم من أنه كان حبيبًا رائعًا. ولم يسبق لكسينيا أن شعرت بتلك المتعة في حياتها. لكن هذا ليس بكثير. لأنها كانت تحب في الرجل شخصيته وليس شهوانيته. وبالتأكيد، سيكون رائعًا إن اجتمع الشيئان. لكن، طبيعة الحال، لا يمكن لهذا وذاك أن يجتمعا. فالخالق يوزع بشكل عادل: إما هذا وإما ذاك.

حصل رانير على إجازة من العمل، وذهب بصحبة نادية إلى موسكو لقضاء شهر العسل. وفي هذه المرة لم تتباطأ كسينيا في إقامة حفل زفاف واسع بأحد المطاعم الجورجية، وقد دعت الجميع إلى هذا الحفل. الجميع حرفيًا، الأقارب كلهم والمعارف. فكان هذا استعراضًا للانتصار الذي تحقق. فكسينيا تمتلك الآن أكثر مما يمتلك الآخرون. لا سيما أن الابنة تزوجت من شخص أجنبي حقيقي. الأمر الذي كان، آنذاك، ورقة الانتصار الكبرى.

احتشد الجيران والأصدقاء على الطاولة، وكان من بينهم نينا ونااليا بصحبة أولياء أمورهن.

وكانت نينا قد تزوجت خلال ذلك الوقت من صديقها، مهندس معماري ميسور الحال يتمتع بالإيجابية والاستقامة، الأمر الذي صنع منه شخصًا مملًا أشد الملل؛ لأن الأوغاد فقط من يكونون مثيرين للاهتمام.

أما ناليا فلم تعتدل حياتها، لأنها وقعت في حب شخص عبقري متزوج. فمن ناحية هو عبقري، ومن ناحية أخرى متزوج، فغابت التطلعات كلها، ولم يبقَ سوى الحب.

كان معهد السينما الحكومي يمتاز بوجهة نظر شاذة في فهم جوانب الحياة. فهناك لا يقدرون إلا أتباع تاركوفسكي، والفنانين الفقراء، أما تلك القيم مثل الأسرة والوفاء والرفاهية المادية، فهي مجموعة من القيم البرجوازية وأمر يفضي بالمرء إلى الشعور بالخجل. لذلك لم يكن أمام ناليا إلا أن تصبح ملهمة هذا الشخص العبقري في الإبداع، والزوجة الثانية له؛ لأن الأولى موجودة بالفعل.

وبالتالي أصبحت نادية في الصدارة، لأنها تعيش حاليًا مع شخص أجنبي في دولة تتمتع بالاستقرار، الذي ربما سيظهر في روسيا بعد مرور مئة عام، إن لم يكونوا مئتين. ولماذا ينتظر المرء مئتي عام؟ وما زال الوصول إلى مبتغاه في النهاية أمرًا غير معروف. لقد قال لينين في بداية القرن إن روسيا سوف تسلك طريقًا آخر. وبعد مرور ثمانين عامًا أصبح جليًا أنها لم تسلك الطريق الصحيح.

روسيا – دولة التجارب وهذا، بالطبع، مثير للاهتمام في حال ما إذا نظرنا إليه من المنظور العالمي. أما بالنسبة إلى كل فرد يعيش فيها فهذا ليس جيدًا، بل يمكنه في بعض الأحيان أن يكون مأسويًا. لقد تملصت نادية من وضعها الحرج. لكن لماذا؟ ربما، لأنها لم تجلس مكتوفة الأيدي، بل كانت تجازف وتجازف، ومعروف للجميع أن الذي لا يجازف لا ينتصر.

أكل الجميع و شربوا نخب بعضهم بعضًا. ثم نهض رانير ونادية وتبادلا القبلات أمام أعين الجميع. بعدما أبرز رانير شفتيه مثل ذكر البط. في الوقت الذي كانت فيه نينا وناليا تتبادلن النظرات في هدوء، مشمئزات من الشخص الألماني، هل من المعقول أن تبتعد نادية عن وطنها بسبب هذا العريس. لا شك

في أن الدول الأجنبية تتمتع بالأطعمة الشهية والأقمشة الجيدة. لكن الحب! ليس هناك شيء أهم منه. ومعروف أن الاختلاف بين الدول يكمن في الملابس والأطعمة فقط. لكن الحب يبقى كما هو بأنفاسه الساخنة، وكيميائه وعنفوانه.

مر بعض الوقت، وشعرت نادية بالملل. فأخذها رانير من يدها وخرجا إلى الشارع. وكانت موسكو آنذاك مدينة مظلمة ومضطربة إلى درجة أنه كان من الصعب إنارة الشوارع والقيام بحملات النظافة في الطرقات. وكان كل شخص لا يعنى إلا بنفسه، ويكأن هناك وطن آخر. أما موسكو فهي طفلة يتيمة يحيطها الظلام من النواحي كلها.

وقف رانير بالجوار منتفخ البطن جراء الإسراف في شرب الفودكا. فلاحظت نادية أنه بعيد كل البعد عن المثالية. لكن لعله يظل بالجوار. وسنرى لاحقًا. فمن يمكنه التنبؤ بالشيء الذي سيحدث غدًا ؟ ربما سيحلِّق طائر السعادة و يحمل نادية على أجنحته التي يُسمع حفيفهما.

لم يكن الطائر على عجلة من أمره. ومع ذلك لم يلتفت إلى نادية.

مر الوقت حاملاً معه بعض المفاجآت. أولهما أن نادية حبلت، ثم رزقها اللّه بفتاة أطلقا عليها ماشا. اسم بدا أنه شاذ في ألمانيا. فالوضع هنا يختلف عما في موسكو؛ حيث يطلقون ماشا دائمًا على الفتاة الثانية.

وثانيهما أن رانير طُرد من عمله بسبب سكره الدائم.

حذروه في البداية بعدما اقترب منه رئيس العمل شخصيًا في إحدى المرات وأنذره قائلًا:

ـ تفوح من فمك رائحة الكحول. وإن استمر هذا الوضع ستفقد مكانك بيننا.

وكانت نادية قد لاحظت منذ وقت طويل أن رانير يستقبل يومه بشرب كأس من الويسكي، ويودعه بزجاجة كاملة. ثم تغير سلوكه قليلًا، وكأنه يحاول منع نفسه من شرب المسكرات، لكنه مع ذلك كان يقوم ببعض التعبيرات المضحكة. فيضع يده أحيانًا على وجهه ويتساءل: هل هو في مكانه أو لا؟ ثم يأخذ في العطس أربعين مرة متتالية؛ حساسية من الكحول.

وهنا زالت الغشاوة عن أعين نادية. لقد كانت سوزي محظوظة، لأنها نجت بأعجوبة من ذلك السكير، تمامًا مثلما نجا الراكب الذي تأخر على سفينة تايتانك قبل إقلاعها، فغادرت من دونه. أما نادية فوقعت في مأزق، وعليها الخروج منه بطريقة أو بأخرى.

قامت نادية باصطحاب رانير إلى المستشفى، حيث خضع لبعض التحاليل الطبية التي أفادت بوجود خلل خطير في جسده. كما أظهرت أن رانير شرع في شرب الكحول منذ ٢٠ سنة.

ـ لماذا أخفيت ذلك عني؟

ـ لأنك لم تسألي.

ـ لكن كان عليك أن تحذرني قبل بداية العلاقة.

ـ كانت البداية لكِ أنتِ، وليس لي. تذكري جيدًا.

أجرت نادية اتصالاً هاتفيًا بمدينة لندن وطلبت التحدث إلى والدة رانير حتى تسألها المساعدة، وتشد من أزرها.

لكن الهواة السذج فقط هم من يفكرون بهذه الطريقة. لأن الشخص السليم سيرى أن إدمان الكحول لا شيء سوى خلاعة وانحلال. وإذا تحكمنا في أنفسنا، وكبحنا جماحها سيسير كل شيء على ما يرام. لكن هذا وهم

كبير؛ فعند إدمان الكحوليات تختل الكيمياء داخل الجسم.

توجهت والدة رانير، وتدعى إيفا، بصحبة نادية إلى أفضل طبيب في المدينة حتى يقوم بفحص التحاليل الخاصة برانير في آخر عام ونصف. أمسكت الأم رأسها يأسًا، ولم تتفاجأ بالأمر. لأنها تعرف جيدًا من أين تهب الريح. لقد كان والد رانير يعاني من الأمر نفسه؛ مرض وراثي. وكان عزاؤها الوحيد في ذلك الحفيدة ماشا، التي كانت تشبهها تمامًا مثل حبتي البازلاء. فتاة جميلة بعينين زرقاوين، ملاك صغير. على عكس نادية، التي لم تحز على إعجاب إيفا، لا مظهر لها ولا شخصية. إذًا، أين عثر عليها رانير؟ هي حتى أقل من النساء الألمانيات العاديات. أوكان على الابن أن يتزوج من امرأة روسية حقيرة وقبيحة كهذه؟

والحقيقة أن رانير شخص مدمن للكحوليات؛ أي بضاعة معابة، ومع ذلك كانت والدته إيفا تتناسى هذا، ولا تأخذه بعين الاعتبار. بل كانت ترى أنه شخص جميل وشريف، لا سيما أن العيوب تكون لدى الناس جميعًا، وليس هناك شخص واحد مثالي على هذا الكوكب.

لم يتغير رأي إيفا في رانير، وكذلك نادية، التي أدركت أن عليها الفرار في أسرع وقت. وكلما حدث ذلك بشكل أسرع كان أفضل. لكن كيف يمكنها الهروب بطفلة رضيعة في يدها؟

كان رانير يجلس أمام زجاجته المفضلة ويتفلسف بالكلام محركًا يداه بطريقة ماهرة. هكذا رأته نادية أول مرة في منزل جريتا. ثم حاولت إقناعه أن يسمح لها بقضاء الليل في منزله. فاعترض في البداية ولم يوافق على ذلك، فاستمالته وحاولت إقناعة مجددًا، امرأة غبية. والآن يجتاحها الحنق، مثلما تجتاح السيول الأراضي وتُغرقها.

أغلقت نادية الباب بقوة وغادرت. وبدا واضحًا أن عليها البحث بطريقة أو بأخرى عن مخرج يمكنها من خلاله تنفس هواء نقي.

وفي يوم من الأيام صادفت نادية في أحد المتاجر شخصًا روسيًا معتنقًا الديانة اليهودية، من عائلة روبينشيك، حجر كريم صغير، كان يعيش في ألمانيا وفقًا للبرنامج الذي أقره المستشار كول. بعدما شعر الألمان بتأنيب الضمير تجاه ما فعله هتلر مع اليهود، لذلك يحاولون التكفير عن ذلك قدر استطاعتهم. والحقيقة أن التكفير لم يكن من أولئك الذين كانوا مسئولين عما حدث في الماضي. لا يهم.

غادر روبينشيك بمفرده. وظلت عائلته في روسيا، بعدما عقد النية على الاستقرار وتدبير سبل العيش، ومن ثم إرسال دعوة للعائلة حتى تأتي إليه متحملاً وحده تلك الصعوبات التي تظهر في بداية الهجرة. وعلى الرغم من هذا لم يكن يحرم نفسه من ملذات الحياة المختلفة. الزوج المهندم المخادع- البديل اليهودي الأمثل.

ذهب روبينشيك، وكان يُدعى ليفا، بصحبة نادية إلى مقهى تابع لأحد المتاجر؛ أمر غير مكلف. ثم أخرج، صورة لزوجته وابنته ووضعها أمامها. وكانت زوجته تبدو كريمة الأصل ممشوقة القوام مثل الفرس الأصيل. إنه لأمر غريب أنها وافقت أن تصبح زوجة لروبينشيك. كان يمكنها اختيار حجرًا أثمن وأكبر. أما الابنة فنسخة من والدها، الأمر الذي كان يُعد مهينًا بدرجة ما آنذاك. لكن روبينشيك كان ينظر إلى هذا من منظور مختلف تمامًا، ربما لأنه هام بها عشقًا بفضل حسنها الذي كانت تتسع له الأعين. لكن نادية لم تلتفت إلى هذا. لأنها كانت مشغولة بحياتها وما فيها من تقلبات.

تمنى روبينشيك لو أن حديثهما يستمر أكثر من ذلك، فدعاها إلى منزله، الذي كانت تفوح منه رائحة الملفوف المسلوق، وكانت هذه، بالمناسبة، رائحة الصرف القديم. لكن نادية لم تعانِ طويلًا من هذا، لأنها كانت منغمسة في شيء آخر.

استلقيا على سرير واسع، قام عليه ليفا بإظهار أفضل ما لديه من حركات المداعبة. فهو عاشق موهوب. اتضح أنه يعنى كثيرًا بهذه الأشياء، ويصل بمساعدتها إلى ذروة لا مثيل لها. كان يداعب نادية بطريقة مختلفة ويتغنى بجمال زوجته. الأمر الذي لم يشكل عائقًا أمام نادية بقدر ما كان يحفزها ويساعدها.

عادت نادية إلى البيت بعد أربع ساعات. وكان رانير خارج المنزل في ذلك الوقت والابنة تصرخ وتنتحب، فبدا أنها لم تتوقف عن هذا طوال الأربع ساعات، لأن وجهها كان مثل حبة الطماطم وغارقًا في العرق.

أدركت نادية أن تلك هي الحالات التي يصاب فيها الطفل بالجفاف والتشنج، حيث يفقد كمية كبيرة من السوائل بسبب كثرة العرق، أمر خطير للغاية، لكن نادية تداركت الوضع سريعًا. فقامت بحمل الطفلة المرتعشة من على الفراش الرطب وضمتها إلى صدرها وهي تشعر بالخزي وتفكر في كلمات التوبيخ التي كانت ستسمعها من أمها وأصدقائها. ليتهن كُن في مكانها، امرأة في دولة غريبة بصحبة شخص سكير متدهور الأحوال.

الزوجان ثوران يجران إحدى العربات، والاثنان مقرونان معًا. وعندما يدخل أحدهما تدريجيًا في حالة من السكر، سيؤدي ذلك إلى أن الآخر سيسعى بمفرده إلى جر العربة بالإضافة إلى جره للثور الآخر. طريقة لا يجب العيش بها، وإن كان هناك من يفعل ذلك.

اشترت نادية تذكرة ذهاب إلى موسكو، وقد قررت التخلي عن أسرتها المقدسة والذهاب إلى بيت أبيها.

موسكو، تبدو في حالة غير حالتها السابقة، فقد جاءها عمدة جديد، قام بتنظيف المدينة وتشغيل الإنارة في الشوارع. الأمر الذي حول موسكو تدريجيًا إلى مدينة متألقة تختلف كليًا عن مدينة مونستر الريفية.

لقد تجاوزت الدولة مرحلة البيريسترويكا. وأصبحت كلمة البزنس هي الشائعة، بعد أن كانت تبعث على الخزي والعار. الأمر الذي ساعد كسينيا على امتلاك عملها الخاص، ألا وهو النقش والزخرفة على الأثاث. وكانت الطلبات تتوافد عليها بمعدل أسرع من حركة عقارب الساعة. ومع ذلك لم تكن ترفض أي طلب يأتيها. لأنه كان عزيزًا عليها أن تفقد النقود، التي وإن كثرت لا تغير شيئًا في حياتها. فالمنزل كما كان من قبل، يحتوي على قطع أثاث بالية. ومازالت هي، كما كان حالها في الماضي، ترتدي الملابس الزهيدة. لأنها تفهم أن ليس هناك فرق بين ما ترتديه في الشارع وما ترتديه في البيت، عادة سوفيتية متعلقة بالفقر. الشيء الوحيد الذي تغير هو الحالة المزاجية، التي تمتعت بها كسينيا في أغلب الأوقات؛ لأنها تعمل ما تحب. وقد حازت الأصونة التي تصنعها على إعجاب الجميع. فالخلفية أحيانًا تكون فستقية اللون أو خضراء داكنة تُنقش عليها وردة بسيطة بألوان قوس قزح. ولا شك في أن هيرمان كان سيوافق على هذا الإنتاج. وفي الماضي كانت كسينيا تطلب رأيه في كل شيء تصنعه. لكنه كان حاضرًا غائبًا، ولم يكن يعنى بأي شيء. وعندما يصارعها الملل في العمل تغير الخلفية إلى اللون الطوبي وتنقش عليها رسومات ورموز فرعونية.

ومع ذلك لم يسبق لكسينيا أن صنعت قطعة لنفسها، لأن هذا سيتطلب شقة جديدة، وعمارة أخرى. وهي لا تحتاج إلى شقة جديدة، لأنها راضية كل الرضا عن وضعها الحالي والأشياء التي تملكها.

ومن قانون «الجوهر أم المظهر»، فضلت كسينيا الخيار الأول.

جاءت نادية إلى موسكو في فستان أبيض ووشاح وردي، أمر جعلها تتلألأ مثل الشفق الأبيض. فهناك أتربه وهنا قاذورات وهي تقف في المنتصف مرتدية ملابسها البيضاء والوردية، التي اشترتها خلال تصفيات المحلات، حيث كان يُباع أحيانًا بعض الملابس القديمة بثلث الثمن. تخفيضات تصل إلى ٧٠٪،

ويبدو أنه لا أحد يعرف شيئًا عنها، على الرغم من عصرية الملابس.

أصيب الأصدقاء بالذهول عندما رأوا نادية كالجوهرة البراقة.

كانت نينا تعيش مع زوجها المهندس الوسيم، الذي ابتسمت له الحياة مؤخرًا، فشرع في تأجير عدد من الشقق التي يمتلكها. الأمر الذي كان يدر عليه أموالًا وفيرة. فكان قادرًا على الذهاب بصحبة نينا خلال أيام العطلات إلى المنتجعات العالمية. لكن حرمهما الله الأبناء. أما نادية فلديها ابنة كاملة، وهذه ميزة كبيرة. وبذلت الأم جهدًا كبيرًا في إخفاء النواقص التي تملأ حياتها وتغنيها عن الجميع مفضلةً أن يحسدها الناس بدلًا من أن يشفقوا عليها. لأن الإشفاق يحمل في طياته الإهانة، وهذا شيء لا تتحمله نادية، التي ترى أن على المرء أن يكون برجوازيًا من الخارج، أما الشيء الذي يتوارى في الداخل فلا علاقة لأحد به.

أما ناليا فظلت، كسابق عهدها، غير متزوجة، لكنها وقعت في حب شخص شاركها في عدم وجود تطلعات في الحياة، فلم يكن لديهما سوى المشاعر التي يتبادلانها. وهكذا هي قصص الحب غير المشروعة لا يحترمها المجتمع، ولا يأخذ بها القانون. وبالتالي كانت ناليا تتمتع بحقوق الطيور.

توجهت نادية بالنصح إلى ناليا وأخبرتها ألا تحصر تركيزها على الحب اليائس، بل تحاول قدر استطاعتها أن تحسن من حياتها. بعدما ظهر أن نادية قد حسنت بالفعل من حياتها، لكن ليت الناس يعرفون كيف تم ذلك.

ركضت نادية بفضل ذاكرتها القوية إلى منصة المراقبة، التي تغيرت تمامًا عما كانت في الماضي. أو ربما نادية هي التي تغيرت. أصبحت أكبر سنًا وأكثر جدية. أمر جعلها تُلقي بعض النظرات على موسكو، ثم تعود من حيث جاءت.

أرسلت ناليا دعوة إلى نادية من أجل حضور أحد الأفلام التي تُعرض على شاشات السفارة الفنلندية، شيء مثير للاهتمام. وهناك جالت نادية ببصرها بحثًا عن أونانسيس. لكن ماذا سيفعل أوناسيس في السفارة الفنلندية؟

وبعد مرور أسبوع واحد راحت نادية تتأهب حتى تعود إلى مدينة مونستر. وتمنت لو تظل هنا فترة أطول، لكن ابنتها، التي لم ترها لمدة أسبوع، هي من أعاقت ذلك.

وقبل رحيلها إلى ألمانيا قامت كسينيا بمنحها بعض النقود، التي كانوا يضعونها، آنذاك، في أدراج المكاتب. مثلما كان يفعل ستالين؛ لأن وضع الأموال في البنوك، في ذلك الوقت، كان أمرًا مروعًا. فلم تول كسينيا البنوك ثقتها، وخاصة بعد تضخم هرم الأموال في الدولة ثم انفجاره، مثلما تنفجر الفقاعة في البركة.

حملقت نادية إلى رزمة الدولارات، فأدركت أن عليها البقاء، وأن السفر الحقيقي الآن يجب أن يكون إلى روسيا الشابة، وليس إلى القارة العجوز. فضلًا عن أن الأشخاص الذين من عينة أوناسيس يوجدون هنا في روسيا، لكن بأسماء مختلفة.

الحمد لله، ما تزال ماشا على قيد الحياة، فقط ظهرت كدمة كبيرة سوداء اللون على فخذها، إلى درجة أن لون الجلد اختفى تمامًا في تلك المنطقة. وقد اعترف رانير أنه أوقع الطفلة على الأرض. كانت تصرخ دون توقف، فسحبها الأب من على الفراش ولم يمسكها.

فهمت نادية بسهولة أن رانير كان يسرف في شرب الكحول، واستغل غيابها لفعل ما يريد. وماذا كانت تريد هي؟ أن يتوقف السكير، فجأة، عن الشرب ويصبح شخصًا مستقيمًا يعتمد عليه؟!

لكن كيف يمكن الاعتماد على شخص لا يستطيع أن يكون مسئولًا عن نفسه؟

نظرت نادية بتقزز إلى وجه زوجها المنتفخ، وكأن هناك أصابع تحت بشرته. لقد أصبح وجهه متورمًا أصفر اللون، مثل الهلام. فصرخت نادية:

ـ أكرهك.

أخيرًا تحددت المشاعر تجاه الزوج، وكانت نادية ستلطمه بشدة إذا اقترب منها خطوة واحدة.

ظل رانير واقفًا على مسافة من نادية. نعم، إنه الشخص التعيس، الذي سحب زوجته معه إلى التعاسة. لكنها لم ترغب في مشاركته ذلك المصير، الذي لا يختلف كثيرًا عن الجحيم. وما زال غير معروف أهناك جحيم بعد الموت أم لا. لكن لا شك في أن ما يحدث الآن هو أحد أشكاله: الكدمات، والطفلة التعيسة، ورائحة الآمال المحطمة.

أخذت نادية تُردد: «إلى موسكو .. إلى موسكو». مثل الشقيقات الثلاث في مسرحية تشيخف.

لقد اتخذت قرارًا بالرحيل. لكنها تتمهل قدر المستطاع، سيحدث هذا على حين غرة، مثل الحافلة التي تخرج فجأة من المنعطف.

إلا أن الأجواء كانت تشتعل تدريجيًا وبصورة منطقية. لقد طُرد رانير من العمل، وحصل زوج جريتا على مكانه هناك، أمر يبدو منطقيًا أيضًا.

توقف رانير عن الذهاب إلى العمل. فظهرت الفرصة أمام نادية لتلقي بحمل تربية الطفلة على عاتقه، لكنها رأت أن ذلك سيؤدي إلى كارثة لا يمكن تداركها.

وفي يـوم من الأيـام، خلال فترة الظهيرة، جاء شـابان ألمانيـان إلى منزل نادية ورانير بهدف مصادرة الأثاث. فأصبح جليًا أن رانير قد اسـتدان، ورهن الشقة التي يعيش فيها، ووفقًا للقانون، سيُحجز على أملاكه.

اعتـاد الموظفان أن أفعالهما دائمًا ما يرافقهـا صياح أصحاب المنزل وعويلهم، وأحيانًـا يصل الأمر إلى المشـاجرة. لكن في هذه المرة حدث كل شـيء بهدوء، ولامبـالاة. كان رانير مسـتلقيًا على الأريكة، ملاصقًـا للحائط، أما الزوجة فكانت جالسة في فتور تدلل ابنتها على رجليها، وكأن ما يحدث ليس له أية علاقة بها. قام الموظفان بتبادل النظرات، وقررا ألا يأخذا سـرير الأطفال. وكان عليهمـا أن يضعا رانـير أرضًا حتى يسـتطيعا أن يحمـلا الأريكة. ففكرا قليلًا ثم تركا كل شيء في موضعه.

بـدأ رانير يهلـوس من كثرة شـرب الكحول. فـكان وعيـه يتمخطر هنا ويتسكع هناك، وعقله يذهب إلى مكان بعيد لا يوجد فيه واقع أو حقيقة، أو حتى مسئولية.

وبعد مرور عشرة أيام ورد إخطار لرانير يطلب منه إخلاء الشقة.

استعرض رانير الإخطار، وقد أفاق من سكره، ثم نظر إلى نادية قائلًا:

ـ لـدي صديـق، والصديق لديـه بيت ريفـي يمكننا العيش فيـه. صحيح، هناك نظام تدفئة من الخشب، ومرحاض عمومي في الفناء.

ـ ماذا! البيت من دون مرحاض، هل سنعيش في كوخ؟

تخيلت نادية أن الكوخ يحتوي على ثغور في السـقف، أمر سـيمكنها من التمتـع بالنظر إلى النجـوم دون الحاجة إلى الخروج من المنـزل. لقد ذهبت نادية إلى ألمانيا بحثًا عن أوناسيس، وستعيش، في نهاية الأمر، تحت سقف كوخ بالٍ

مثل الشريد الذي لا مأوى له. أمر جعلها تقول بهدوء إلى رانير:

ـ سيمر الأمر على هذا النحو، إذن يمكنك العيش أينما تريد، أما أنا فسأرحل عنك.

ـ إلى أين ستذهبين؟

ـ إلى أي مكان يأويني.

لم تكذب نادية هنا؛ لأنها بالفعل لم تكن تعرف إلى أين ستأخذها قدماها. لكنها متيقنة تمامًا أنها لن تستطيع أن تعيش دقيقة واحدة بعد الآن مع رانير.

لقد فقدت نادية كل شيء عدا ماشا. ومع ذلك كانت تتمتع بحالة مزاجية عالية وهي تفتح حقيبتها الرياضية وتضع فيها ملابس الطفلة، والخشخيشات وزجاجات الحليب. ربما لأنها قامت بالشيء الذي كانت تخطط له. وهو أن يخرج الزوج من حياتها، مثلما تخرج ألسنة النيران من قاعدة الصاروخ عند إطلاقه.

نعم، ظهرت بعض المصائب في حياة أرسطو أوناسيس، عندما رغبت صديقته المقربة، المطربة، في إنقاص وزنها، وقامت بابتلاع دودة شريطية في كبسولة. فشرعت الدودة في التهامها من الداخل. وأصبحت المطربة نحيفة للغاية، لقد حققت ما كانت ترجوه، لكنها ماتت. وبالمناسبة، كانت تبدو رائعة في النعش!

إذًا، الأثرياء يخطئون أيضًا ويقومون بتصرفات شنيعة.

عرجت نادية على أحد الهواتف العمومية، ثم اتصلت بجريتا، وأخبرتها أنها تقف في الشارع حاملة ابنتها على يديها. فردت عليها جريتا قائلة:

ـ هذا هو مصيرك.

وكانت جريتا من أنصار التربية القاسية. وربما كانت تنأى بنفسها وبزوجها عن رانير، الذي كان أيضًا بالنسبة إليهم مثل صاروخ قام بتوصيلهما إلى المستوى المطلوب ثم أخذ يهبط إلى الأسفل، وأصبح لكل منهما طريق يسلكه.

أما نادية فسلكت طريقها حتى وصلت إلى أحد بيوت الدعارة، حيث يتوفر الجو الأسري والأطعمة والمشروبات الكحولية. لكنهم لم يسمحوا لها بالدخول، لأن من شروط المكان ألا تصطحب النساء أطفالًا معهن.

فتوجهت نادية إلى منزل ليفا روبينشيك، وألقت في وجهه سؤالًا مباشرًا:

ـ هل يمكنني المبيت عندك؟

ـ ستصل زوجتي بعد أسبوع واحد.

ـ حسنًا، لدينا أسبوع كامل. سأدبر أموري خلال تلك الفترة.

لاحظت نادية أن روبينشيك يكذب عليها، وهو أيضًا لم يكن يصدقها. فإلى أين سوف تذهب بعد مرور ذلك الأسبوع؟ إلا أنه لم يتجرأ على طرد إنسان، أو بالأحرى، شخصين إلى الشارع.

عاشت نادية في منزل روبينشيك، الذي كان يغادر إلى العمل، ويعود فيلعب مع الطفلة قليلًا، ثم ينام مع نادية على سرير واحد. وكانت نادية تقوم بأمور المنزل كيفما تستطيع، وتطعم ابنتها في مناخ أسري مريح تعرف جيدًا أنه لن يستمر طويلًا.

وفي مرة من المرات قام روبينشيك باصطحاب صديقًا له إلى منزله، صديق فرنسي ،يُدعى جان ماري، يربطه به عمل مشترك لم تستطع نادية أن تلم بمضمونه. وقد ظنت أنها تجلس وسط معرض للوحات. كان ليفا يحصل على لوحات الفنانين المعاصرين من روسيا ليبيعها جان ماري. ولم يكن

الفنانون الروس يعرفون قيمة لوحاتهم، الأمر الذي جعلهم يوافقون على بيعها مقابل بعض القروش. أما جان ماري فكان يعرف حق المعرفة بكم تقدر تلك اللوحات. أحب ليفا هذه الشراكة فتوجه بآيات الشكر لذلك الشخص الفرنسي. وكانت نادية آية من تلك الآيات.

جان ماري شخص غارق في الثراء، يمتلك بطنًا كبيرًا ووجهًا يشبه الفقاعة. أمور لم تخطر يومًا على بال نادية بشأن الفرنسيين، لكنه مع ذلك شخص ثري ومرح. خليط ساحر يمكنه أن يجمل أي شخص؛ فالمرح والثراء أفضل بكثير من الكآبة والبؤس.

امتلك جان ماري منزلًا رائعًا من طابقين يقع في منطقة مرموقة في باريس. تسكنه زوجته بصحبة أطفالها الثلاثة، لكنهما كانا منفصلان آنذاك عن بعضهما. فقررت نادية أن تسأله عن هذا حتى تتمكن من تحديد تطلعاتها المستقبلية:

ـ لماذا؟

ـ أنا أراهن في سباقات الخيل، وهي لم تكن راضية عن ذلك.

ـ لماذا؟

ـ لأن هذا سيجعلني أخسر كل شيء في يوم واحد. وقد حدث هذا بالفعل ذات مرة. لكنني استعدتُ ما فقدته في يوم آخر، بل وقمت بمضاعفة المبلغ. لكن هذه مخاطرة كبيرة. كان يُمكنني أن أفشل في استرجاع الأموال، وحينها كنت سأخسر كل شيء وألجأ إلى الاستدانة.

ـ هل لك أن تتوقف عن هذا؟

ـ لا، لا يُمكنني.

- لماذا؟

- لأنني اعتدت ذلك.

جرى هذا الحوار في أحد المطاعم.

كان روبينشيك يتناول المحار، ويعصر عليه الليمون، وقد ارتسمت على وجهه علامات الحزن. حيث يعز عليه التخلي عن نادية، التي آلف قربها. لكنه يسير في طريق خاص. وهذا يعني أن عليه التضحية بشيء ما؛ لأنه تعلم في سنوات الهجرة أن المرء إذا أراد تحقيق انتصار كبير عليه أن ينأى بنفسه عن التفاهات. وكانت نادية إحدى تلك التفاهات، على الرغم من أنها كانت تستطيع، في سيناريو آخر، أن تصبح الحدث الرئيس في حياته.

أمسك جان ماري بيد نادية وأخذ يقبل راحتها. بينما كانت رائحة البرتقال تتضوع من رأسه؛ جان ماري- شخص بدين ذو عطر فواح، مثل الأطفال، ومحتال من الدرجة الأولى بالإضافة إلى كونه لاعبًا موهوبًا.

أخذت نادية تفكر محدثة نفسها: «أحدهما يشرب المسكرات، والآخر يقامر. وما زالوا يطلقون عليها أوروبا».

لم تشعر نادية بالتردد لحظة واحدة، ربما لأنها لم تمتلك الخيار. فإما العيش في الكوخ ذي الثغور، وإما في البيت الرائع الذي يتألف من طابقين في إحدى أفضل المناطق في باريس.

وباريس تستحق قداسًا كاثوليكيًا، وربما لا تستحق. لم تكن نادية تفهم أي شيء. لقد ابتسم الحظ إلى جان ماري في أعماله وفي سباقات الخيل. فقام بشراء خاتمًا مزينًا بماسة كبيرة، وبنصف سعره؛ لأن الصائغ كان قد أفلس فاضطر إلى بيع المعروضات بنصف الثمن. وهنا فتحت سماء الحظ، فقام جان ماري بشراء الخاتم:

ـ تفضلي، هذا الخاتم لكِ.

تفاجأت نادية وسألته عن مناسبة هذا. ولكن هذا سؤال لا يُطرح في فرنسا.

ـ أنتِ تميمة حظي.

لقد أوعز جان ماري نجاحاته كلها إلى وجود نادية في حياته، على الرغم من أنه لا ينوى الانفصال عن زوجته.

حاولت نادية استمالته، فراحت تلعب على جسده بعض الألحان المنفردة، ليس بوصفها عاشقة، وإنما امرأة محترفة، تفوز في المسابقات الدولية جميعها. شعر جان ماري بالسعادة، لكن هذا لم يمنعه من الاتصال بزوجته ودعوته إياها حتى تأتي.

جاء جان ماري ذات مرة من سباقات الخيل وقد غاب عقله من كثرة شرب المسكرات، ثم قعد على الكرسي، ودخل في سبات عميق حتى من دون أن يخلع ملابسه. فأخذت نادية تفعل ذلك بنفسها. وفي أثناء هذا سقط من جيبه رزم من الأموال أحدثت صوتًا مجلجلًا عند اصطدامها بالأرض. فقامت نادية بوضع إحدى الرزم في حقيبتها الخاصة. ولم تفعل هذا خلسه، لأنها إذا فعلته في الخفاء، سيعني هذا أنها تسرق.

كانت حسبتها في ذلك بسيطة للغاية: « إذا قام جان ماري بإدخال رأسه في حقيبتها، ستقول: «لقد أعطيتني هذا بنفسك» لكنك لا تتذكر، فيندهش قائلًا: «حقًا؟»، فتجيب هي:»نعم».

لم يلاحظ جان ماري أن هناك نقص في الأموال. ربما لأنه لم يبذل مجهودًا في جمعها. فمثلما تأتي النقود، تذهب وتنفد. وربما لاحظ، لكنه لا يرى مشكلة في هذا.

ذهبت نادية إلى بعض المتاجر وقامت بارتداء الثياب من الرأس حتى أخمص القدمين. نعم، لقد كانت نادية تعاني في الفترة الأخيرة، إلى درجة أنها لم تكن ترتدي الملابس الداخلية التي بدأت بارتدائها في المتجر حتى انتهت بارتداء المعطف الفرو.

جربت نادية بعض الملابس ولم تقدر على خلعها. لم يكن هناك أحد يملك مثل هذا المعطف، فبدت كأنها رئيسة الدولة، إذا كان هذا ممكنًا في ذلك الوقت.

نمى إلى علم نادية أن العاهرات جميعهن يرتدين اليوم معاطف الفرو في موسكو. وقد أصبح حيوان المنك مصدرًا للملابس هناك. فقام الناس بتربيته في أقفاص الكلاب، مثل الدجاج في المزرعة. هؤلاء هم حيوانات أوشفيتز التعساء الصلع، الذين يعانون من سوء التغذية. وكان حيوان المنك يمتلك فروًا خفيفًا على جسده. أما وشق أوراسيا فلم يقم الناس بتربيته في أقفاص الكلاب؛ لأنه يمشي بحرية في البرية، ويصطاد الحيوان والإنسان، كما أنه يشرب الدماء الساخنة. ومن ثمَّ فإن فروه يكلف أسعارًا جنونية. أموالًا لا يمكن تدبيرها بشرف، وإنما فقط عن طريق اللعب والسرقة. وبالفعل لعب جان ماري وسرقت نادية. لقد اجتمع الشيئان.

تمتلك نادية الآن خاتم مرصع بالماس ومعطف مصنوع من الفرو، أشياء خارجية تحتاجها المرأة لتصبح أنيقة وجذابة. أما التناقضات الداخلية فلم ولن يتمكن أحد من رؤيتها. وكان في منزل جان ماري خادمة مكسيكية، الأمر الذي جعل ابنتها تحت رعاية كاملة طوال الوقت؛ الابنة التي أتمت عامها الأول، وبدأت تتعلم المشي. فأصبحت في حاجة إلى شخص يعتني بها ولا يدير وجهه عنها. لأن الأطفال الصغار لا يخافون شيئًا.

كانت ماشا تمشي بطريقة غريبة، تحرك ظهرها، وترفع كتفيها، تمامًا مثلما يفعل الدب في السيرك، مما يجعلك تشك أن الإنسان أصله دب وليس قرد.

وفي يوم من الأيام حصلت نادية على إذن الخروج من المنزل. فتعرفت في الخارج صديقتين: غالينا وكارينا. وكان صعبًا آنذاك أن يتعامل المرء مع الفرنسيين بسبب عائق اللغة والقومية. كما أن المهاجرين كانوا منبوذين بشدة في أي مكان يذهبون إليه. السبب الذي منع جان ماري من إدخال نادية في دائرته. وماذا تكون تلك الدائرة من الأساس؟ هل تخص سباقات الخيول؟ إنه أمر مبهم، وكان جان ماري متزوجًا، فلم يخبر أحدًا عن نادية. وعندما كان يزوره شخص ما لمناقشة بعض الأمور، كان يطلب من نادية أن تصعد إلى الطابق الثاني.

كان الفرنسيون يرسمون دائرة تحيطهم، ولا يسمحون لأحد بدخولها أو لشيء بالخروج منها. عقلية مختلفة تمامًا عن الشعب الروسي. ومن ثم فليس هناك حاجة إلى قضية « الأسوأ – والأفضل» في حالة ما إذا عقدنا مقارنة بين الفقمة والأيل. وعند السؤال عن الأفضل بينهما، تكون الإجابة كلاهما.

أخذت نادية تبحث عن الروس في فرنسا، مثلما فعلت من قبل في ألمانيا. غالينا، فتاة أوكرانية من مدينة كراماتورسك. تزوجت عن طريق الإنترنت، وهي مستاءة دائمًا، لأن حياتها مليئة بالالتزامات، وليس بها أي حقوق. الأمر الذي جعلها تُدرك أن السخط وعدم الرضا يُعدان بيئة خصبة للصداقة.

أما الصديقة الثانية فتعيش حياة مختلفة تمامًا؛ فقد تزوجت من شخص فرنسي بعد قصة حب شعواء، وبدا آنذاك أن الزوج شخص ثري بجانب وسامته، وأرسطقراطيته. تمامًا كما يوجد في الحكايات الخرافية.

حاولت نادية التودد إلى كارينا أملًا في صيد السمكة الذهبية من بركتها. وإن لم تكن ذهبية، فهي على أقل تقدير ستكون صالحة للأكل. لكن كارينا لم تسمح لنادية بالدخول إلى حياتها وحطمت الآمال جميعها. فكانت تُجري معها الدردشة في أرض محايدة. لأنها لم تكن واثقة في نادية

حتى تسمح لها أن تدخل بيتها أو حصنها. وأدركت أن خبرة نادية الكبيرة في الحياة ستساعدها، لأنها ليس لديها شيء لتخسره، لذلك كان يمكنها فعل أي شيء في سبيل تحقيق أهدافها، بصرف النظر عن القيود الأخلاقية.

وكانت نادية وكارينا متشابهتان إذا نظرت إليهما من الخارج: كلتاهما جميلتان ورقيقتان مثل القطط. والاختلاف الوحيد أن كارينا تعيش حياتها الخاصة، أما نادية فتعيش حياة الاستئجار. تقضي وقتًا ثم تغادر.

أحست نادية بالمسافة التي كانت كارينا تضعها بينهما. فاستشاطت غضبًا، لكنها تظاهرت بأن كل شيء على ما يرام. وإن صدق القول، فهي كانت تنتظر حدوث مشاجرة بينهما لتبتعد بنفسها. عندئذ ماذا سيتبقى؟ أو بالأحرى، من؟ تلك الفتاة الأوكرانية المنحدرة، التي لا تتحدث سوى عن مصائبها وبلاويها. كانت تريد شيئًا، لكنها حصلت على شيء آخر. وهي الآن تجلس في حوض مكسور. والحديث عن هذا الحوض ممل للغاية ولا فائدة منه. إذن يجب التفكير في طريقة لإصلاح ذلك الحوض أو شراء حوض جديد.

كانت الخادمة المكسيكية تغادر في السابعة مساءً مباشرة بعد انتهاء ساعات العمل. وحينها كان يجب على نادية أن تظل بجوار الطفلة في الطابق الثاني، تتكئ على الأريكة وتشاهد التلفاز وتحتسي الخمر الجاف. حتى وإن لم يكن هناك خطر عليها، كان عليها أن تظل بجوارها.

وكانت ماشا تزحف على الأرض وتضع في فمها كل ما يقابلها، ذلك أمر لم يكن يثير القلق لدى نادية؛ فالجسم، من وجهة نظرها، يحتاج في بعض الأوقات إلى الميكروبات. لأن النظافة المفرطة مضرة للغاية. وأحيانًا كانت الأم تترك ابنتها في الغرفة، فتصرخ ماشا لأنها لا تحب الجلوس بمفردها. أما الأم فكانت ترى أن هذه ليست دموع حقيقة وأن الصراخ أحيانًا يفيد الأطفال.

تعجب جان ماري من قسوة نادية في معاملتها لابنتها. وربما يكون هذا أمرًا طبيعيًا في موسكو. حيث يتحدثون بأن هناك ثلاثة أشياء ثابتة: سقيع دائم ، شتاء طويل، وأخلاق صارمة.

وفي مساء أحد الأيام، جاء جان ماري إلى المنزل بعد يوم عصيب للغاية. فلم تجرؤ نادية على طرح أي أسئلة عليه. لأن هذا سيعد تعديًا على حريته. وكانت العاشقة لا تسمح لنفسها بالتعدي على أي شيء عدا النقود. وأخيرًا فهمت نادية السبب وراء تملص الزوجة من زوجها الذي كان متزوجًا فقط من أجل نفسه وعواطفه وغرائزه. ولكنه شخص ثري، أمر جعله يعطي الحق لنفسه في العيش بالطريقة التي يفضلها ضاربًا بعرض الحائط أي شيء آخر .

هل كان أوناسيس يعيش بالطريقة نفسها؟ لا يستطيع أحد أن يؤكد هذا أو يستبعده. لذا من الأفضل أن يمتلك المرء أكبر قدر من الأموال حتى يصبح ثريًا ويعيش بالطريقة التي يريدها.

شربت نادية قدحًا من النبيذ واتخذت قرارًا بالبحث عن نفسها، بدلًا من البحث عن أوناسيس الثري. وإذ فجأة تصرخ ماشا في الطابق الثاني، فهبت الأم من على الأريكة وراحت تصعد درجات السلم. فالتوى كعب الحذاء تحت قدميها، فشعرت بألم رهيب. وسقطت مدركة أنها لن تستطيع التحرك من مكانها. تورمت قدماها للغاية واكتستا باللون الأزرق، ثم وصل الألم إلى رأسها. والطفلة تستمر في الصراخ، وجان ماري ليس هنا. حتى الهاتف بعيدًا عنها، ولن تتمكن من بلوغه ولو زحفًا. فظلت في مكانها دون حراك.

هكذا كانت حياتها، تمامًا مثل عظمة الكعب، التي بقت في موضعها دون زحزحة صغيرة.

لكن لماذا يحدث هذا في حياتها؟ ربما، لأنها أدرجت منذ البداية فيروسًا في حاسوبها الخاص، وقامت بالتعامل مع جونتر كأنه عجلة. وإلى ماذا ستؤدي

هـذه الكذبـة ؟ بالتأكيـد سـتؤدي إلى كذبة أخرى. وسـوف يسـتمر الأمر هكذا من دون نهاية.

إذًا الحـل الوحيد هو مسـح البرنامج القديـم، وإدراج بيانـات أصلية جديدة: الحب، والشـرف، والتضحية بالنفس. لكن من أجل من؟ ومن الذي سوف تقع في حبه؟ ولأجل من سوف تضحي؟

تعافت نادية بعد مرور شهر، وها هي تعقد النية على السفر إلى روسيا.

ولم يقـف جـان مـاري في طريقها، لأنـه كان يعقد النيـة على جمع شمل أسرته مرة أخرى.

ذهبـت ناديـة إلى غالينا حتـى تودعهـا. وكان في منزلها آنـذاك أقاربها من مدينة كراماتورسـك، بعدما خرجوا من جولتهم في الصباح إلى المتاجر التي تبيع بأسعار زهيدة والدكاكين من أجل شراء بعض الكراكيب والأمتعة.

نظرت نادية باشمئزاز إلى الأشـياء التي تحيط بها، لأنها اعتادت اقتناء الأشياء الثمينـة، وقـد رمت تلك الفـترة «البلاسـتيكية» وراء ظهرها. ثـم أعطت رقم هاتفها إلى غالينا قائلة:

ـ إذا ذهبتِ إلى موسكو، تعال لزيارتي.

دخلـت غالينـا في دوامة مـن التفكـير، فهي لا تشـعر بالراحـة في باريس، والوضع أكثر سوءًا في كراماتورسك؛ حيث معدلات البطالة المرتفعة والوضع الاقتصادي المزري. لكنها، مع ذلك، تحتوي على بيت العائلة والفناء والأقارب، وكلبها الذي تحبه.

أمـا كارينا فقامت نادية بتوديعهـا في أحد المقاهي الزجاجية، لأنها كانت تحـب هذا النـوع من المقاهي، الـتي تقع غالبًـا على جانبي الطـرق. تجلس هناك

وكأنك في مسمكة، والمدينة برمتها أمام عينيك. المدينة الجميلة واللغة الرائعة. اللامبالاة البسيطة غير المؤذية، التي كانت تشعر بها نادية خلال مقابلاتها في باريس. استحسنت كارينا هذا القرار قائلة:

ـ صحيح أنك ستغادرين. يمكنك الآن في موسكو تدبير ثروة طائلة.

ـ كيف؟

ـ من تجارة العقارات. يمكنك شراء منزل مقابل قروش قليلة. ثم بيعه بأسعار باهظة.

ـ و من أين عرفتِ هذا؟

ـ لا يخفى علي، أن موسكو الآن مثل لعبة الكلونديك. لكن هذا لن يستمر طويلًا، ربما سينتهي بعد عشر سنوات.

ـ وماذا سيحدث بعد هذا؟

ـ ستصبح دولة طبيعية مثل غيرها من الدول.

ـ ولماذا لم تذهبي إلى هناك؟

ـ لأنني لا أحتاج إلى هذا؛ فزوجي هو لعبة الكلونديك الخاصة بي.

إذًا كل شخص لديه الكلونديك الخاصة به.

عادت نادية إلى موسكو من دون أوناسيس حاملة على يدها طفلة صغيرة، وقعت كسينيا في حبها منذ النظرة الأولى، فراحت تحملها على يدها حتى اعتادت الطفلة هذا، فلم تستطع كسينيا بعد ذلك أن تجلس بها مثل الجدة الكلاسيكية. وكانت كسينيا تمتلك حياة قيمة يتخللها العمل الإبداعي والإنجازات الرجولية. حياة لم تتمتع بها نادية يومًا واحدًا. فأصبح

جليًا أن عليها بدء الحياة من الصفر، والتوقف عن اختراقها بصحبة ماشا. لأن الأطفال لديهم قدرة هائلة على سحب الحياة إلى القاع.

وكانت ماشا تُرسل إلى روضة الأطفال خمسة أيام في الأسبوع. الأمر الذي جعلها تتأقلم سريعًا على الوضع هناك. ثم يأخذونها يومي السبت والأحد. وقد بدا أن الحياة تحتوي على أشياء كثيرة رائعة، وأن الناس خُلقوا ليسعدوا، خاصة الأطفال.

قامت كسينيا بتخصيص غرفة منفصلة لحفيدتها؛ غرفة من غرفتين في الشقة. وأصبحت الغرفة الأخرى غرفة للنوم وفي الوقت نفسه ورشة للعمل. أما طلبات العمل فما زالت تنهال على كسينيا. ومع ذلك ظلت نادية تتحدث طوال الوقت في الهاتف، الذي كان ضروريًا من أجل مباشرة أعمال الأم؛ منزل مجنون.

عثرت نادية لنفسها على وظيفة في إحدى الشركات التي تعمل في مجال العقارات. تقوم بشراء الشقق وبيعها وتأجيرها، والقيام ببعض الصفقات. وامتلكت هذه الوظيفة اسمًا رنانًا: سمسار عقارات؛ كلمة إنجليزية يتلخص عملها في إظهار الشقق للعملاء.

وبعد مرور عام ونصف بدأت نادية تكره البشرية بأكلمها. فالشيء الرئيس الذي كانت تصطدم به هو الجشع. وقد اتضح أن الإنسان يتكون من ٨٠٪ طمعًا، مثل نسبة المياه. و٢٠٪ فقط من الأشياء الأخرى.

سئمت نادية من هؤلاء الناس القبيحين الذين يرتدون ملابس بالية تفوح منها الرائحة النتنة، وفوق ذلك ويتهمونها بالغش. وكذلك شعرت بالتقزز من تلك المنازل القديمة والشقق القذرة، التي قد تصادفها في باريس، ولكن لن تجد فيها سوى المتسولين العرب.

أووه، باريس، باريس، على الرغم من أن نادية لم تحقق أي إنجازات في هذه المدينة، ظل الحنين إليها متأججًا، وكذلك إلى صفوف سيارات الأجرة الجميلة، والمقاهي الزجاجية، وذلك الرجل الواثق بنفسه المتمتع بدماثة الخلق، الذي يقال له جان ماري، الذي كانت إحدى حسناته أنه منح نادية رزمة من الأموال قبل رحيلها، تمكنت نادية بفضلها من العودة إلى موسكو وشراء سيارة جديدة. لكن من المعروف أن الأموال تذهب من دون أن تقول وداعًا. فظهرت الحاجة إلى العمل وكسب الأموال.

كان اسم الشركة «أليس». ومديرة الشركة ليست أليس الشابة التي جاءت من بلاد العجائب، لكنها امرأة ضخمة، تشبه إلى حد كبير رئيس مزرعة تعاونية، ويعمل معها في الشركة ابنها بوريس، الشخص الخجول الفطن. وكان مستحيلًا أن يخطر على البال أن بوريس هذا قد جاء من رحم أليس. الأمر كان يشبه أن تمساحًا يلد أبو قردان.

بوريس لم يكن جشعًا. هو فقط يساعد والدته على القيام بأعمالها التجارية.

وبالإضافة إلى نادية كانت هناك فتاة تُدعى سيما، فتاة تتارية تجلس على الحاسوب. ورأت نادية أنه في حالة ما إذا قامت سيما بالاستحمام وتصفيف شعرها وارتداء ملابس أنيقة، ستشبه شيئًا ما. فمظهر كهذا لن تجمل به سيما أي مكان تذهب إليه. وهي لم تكن تهتم بأي شيء عدا الحاسوب. وكانت أليس راضية عن هذا. لأنها كانت في حاجة إلى هذا النوع من الفتيات: فتيات انهزاميات متواضعات يمتزن بالوفاء. وفي حالة ما إذا كان من الممكن شرائهن بأسعار زهيدة، كانت ستفعل أليس هذا من دون تردد أو تفكير.

اشتبهت أليس في أمر نادية، فبدأت تأخذ حذرها، لكنها تحملت ذلك كونها مديرة للشركة. ففتاة جميلة ومتعجرفة مثل نادية تضمن الجودة للشركة وتحافظ على شكلها أمام العملاء.

وتلخصت وظيفة سيما في استقبال الطلبات والعروض على الحاسوب. أما نادية فتقوم باصطحاب العملاء إلى الشقق المعروضة للبيع. وكانت تكره الخروج من السيارة والصعود إلى الشقق الموجودة في الطوابق العالية من دون استخدام المصعد. فيدفعها ذلك إلى إخبارهم بأن يصعدوا بمفردهم ويفحصوا الشقة ثم يعودوا. يذهب العملاء، فتضع نادية رأسها على عجلة القيادة وتأخذها سنة قصيرة. وكأنها تستثني تلك اللحظات من حياتها.

يعود العملاء ويشرعون في التعبير عن استيائهم وعدم رضاهم. لكن نادية لم تكن تحب سماع التذمر والشكاوى، الأمر الذي جعلها تستقبل الكلام من أذن وتُخرجه من الأذن الأخرى. لا تناقشهم في شيء. فكانوا يخافون من ضياع الفرصة. وهكذا كانت اللامبالاة التي تتمتع بها نادية تقوم بدور الضغط على العملاء.

وفي مرة من المرات شعرت نادية بالنشاط وترجلت عن سيارتها. هنا وسط المدينة، زقاق هادئ، عمارة من بداية القرن – لونها رمادي داكن، ذات شكل كلاسيكي يتوسطها شرفات من الحديد المذهب. عمارة جميلة، يملكها شخص أرستقراطي. ووجود المرء في تلك العمارة يعني أنه سوف يكتسب أيديولوجية أخرى.

وإذ فجأة يلمع شيء ما في رأس نادية، أمر جعلها تشعر بأن أعصابها تئن تحت ترس طاحونة رهيبة. بعدما أحست بأن هناك أمر ما سوف يحدث عما قريب.

كانت الشقة المعروضة للبيع تقبع في الطابق الرابع. شقة تتكون من أربع غرف، جالت نادية ببصرها فيهم تستكشفهم وتمسح زواياهم وجوانبهم. وهنا تعيش أربع عائلات فقيرة منذ سبعين عامًا. فأصبح السناج ورائحة الفقر والأتربة عتيقة في المكان مثل الجبس. لكن نادية لم تلحظ هذا، وإنما رأت الشيء الذي يمكن فعله في ذلك المكان. فمن الممكن كسر الحوائط كلها وإعادة تقسيم الشقة، والبدء من نقطة الصفر.

تخيلت نادية الشقة بعد تعديلها، غرفها وأثاثها، وأحواض الزهور، تمامًا مثلما كان في منزل جان ماري. جدران بيضاء وستائر بيضاء من أقمشة الأورجانزا. نعم، ستكون الشقة وجهًا آخر لباريس، لكن في موسكو.

تطلعت نادية بقوة إلى امتلاك هذه الشقة. مثلما كانت تتطلع في الماضي إلى إغواء الرجال، وربما أكثر؛ لأن هناك الكثير من الرجال، أما هذه الشقة فلا توجد بوفرة. لكن التطلع وحده لا يكفي. حيث كان يجب تسوية الأوضاع أولًا مع العائلات الأربع، وشراء أربع شقق جديدة. وهذا، بالتأكيد، سيحتاج إلى أموال وفيرة، وبالتالي إلى مجهودات مضنية. يبدو أنه أمر غير واقعي، لكن نادية كانت قادرة على الاختيار، وهذه موهبة أيضًا.

مر بعض الوقت.

استهدف أحد أصحاب البنوك بفمه المفتوح ووجنتيه المتدليتين شراء هذه الشقة. وكان يُدعى خاتشيكان. فطلبت نادية من بوريس أن يساعدها على امتلاكها، وأن يحيد نظر صاحب البنك إلى شقة أخرى. ويقف بينه وبين شرائها. فحدثها بوريس قائلًا:

- ماذا تريدينني أن أفعل؟

- قم بمضاعفة السعر.

- لن يمنعه هذا عن شرائها. فهو يمتلك الأموال، مثلما يمتلك المدمن التُنباك.

- أخبره أن ثمة جريمة وقعت في الشقة.

- إنهم يرتكبون الجرائم يوميًا.

- إذًا، فلتعلمه أن الشقة قد بيعت.

صمت بوريس قليلًا. و أخذ يتأمل الموقف بهدوء. لقد تضاربت مصالح نادية مع مصالح والدته، التي لا شك في أنها أكثر أهمية من الموظفة، لكنه مع ذلك كان يريد مساعدة نادية؛ لأنه يفهمها جيدًا؛ فتاة شابة وجسورة دخلت في صراع مع العالم، مثلما دخل إيليا موراميتس في صراع مع العندليب السارق. لكن إيليا رجل، أما نادية فامرأة. والشيء الوحيد الذي تمتلكه هو الشيء الذي تخبئه في جوانب جسدها. فضلًا عن العيد الذي دائمًا ما تقضيه بمفردها. ولهذا كانت نادية في حاجة إلى الدعم والحماية والحب.

الحب، من أين ستحصل عليه؟ إذا كان من الممكن شراؤه، كانت البشرية كلها ستهرع للعمل والكدح من أجل الحصول عليه. ولأصبحت الأرض جنة. إلا أن الجنة لن تظهر إلا بعد الموت، عندما يهلك الجسد البشري.

نظر إليها بوريس وقطع وعدًا على نفسه قائلًا:

ـ سأحاول تأخير هذا.

ـ كم من الوقت؟

ـ ستة أشهر.

ـ كيف؟!

ـ هل سيشكل هذا فرقًا بالنسبة إليكِ؟

في الواقع لم يكن هناك فرق.

كدحت نادية، وأخذت تدبر الأموال. تذهب مساءً إلى النوادي الليلية بحثًا عن أوناسيس، أو على الأقل عن جان ماري الروسي الغارق في بحر الثراء. ليتهما يظهران في طريقها. لكن من الواضح أنهما إما أن تأخرا، وإما أنهما لا يعرجان على مثل هذه الأماكن.

وفي مـرة مـن المرات، وقع نظر نادية على شـخص ما في أحد النـوادي الليلية. كان شـابًا يمتلك وجهًا شـاحبًا ونظـرات ملتهبة. أرادت نادية أن ترقص معه رقصة كلاسيكية، الوجه في الوجه، فتتسلل أنفاسه إلى جسدها مثل نسيم البحـر. لكنها رأت فتاة شـقراء زرقـاء العين تقف بجواره. وهـذا يعني أنه يحب الفتيات الشقراوات.

حز هذا الأمر في قلب نادية، فلم ترغب في البقاء وذهبت إلى منزلها. أوناسيس والشقة، تطلعات عالية. أما الأساس فهو الحب. فأين أنت أيها الحب؟

جاء ذات مرة إلى الشـركة رجل أعمال يُدعى دينتسـوف إيليا بيتروفيتش. ولسبب ما كانوا يدعونه دينتس، لقب يحل محل اسمه واسم عائلته.

كان دينتـس يمتلـك ثلاثة منازل، منزل في بيتيربورج، وآخر في برشـلونة، وثالث في قبرص. ويرغب الآن في شراء عقار في موسكو. لأنه يحب العيش في الأماكن كلها؛ مواطن العالم.

دينتس، شخص وسيم، لكنه كبير بعض الشيء، على مشارف الستين من عمـره. وتلك هـي المرحلة التي يكون فيها المظهر جذابًـا، ودلائل العمر واضحة علـى الوجـه. هـام دينتس بالمـال والنسـاء والسـفر والأحجار الكريمـة هيامًا كبيرًا. حيث كان يعتقد أن الحجر الكريم عبارة عن روح متجمدة. فسيطر ذلـك على عقله، وقـد خيل إليه أنه كان متجسـدًا في أحد الأحجار الكريمة خـلال حقبة من الحقب، الأمر الذي مكنه آنذاك من سماع تحركات الصفائح التكتونية في الأرض.

فهمـت أليـس سـريعًا أن هناك سمكـة كبيرة قـد وقعت في شـبكتها. فأرسـلت إليها نادية، وطلبت منها أن تتعامل مع تلك السـمكة بشكل حذر ومدروس؛ لأن سيما و بوريس لن يفلحا في تلك المهمة.

أخرجت سيما بعض عناوين الشقق المرموقة من الحاسوب. وكانت الشقق قليلة العدد، ولم يكن هناك أفضل منها.

جلست نادية في مكانها أمام عجلة القيادة. وأخذ دينيس ينظر إليها بجانب عينيه. فلاحظ كل شيء في الحال: الماسة الصفراء التي تزين يدها. والحذاء الثمين الذي يُجمل قدمها، وكذلك خلطها خلال الحديث بين الكلمات الروسية والفرنسية، وسعيها للتظاهر بأنها فتاة فرنسية. فتاة جشعة، وصارمة لكنها شابة، والرجال في سن الستين يمجدون الشباب بصورة خاصة.

بدأ دينتس يحملق إلى نادية بسعادة. وكانت جبهتها نظيفة وبراقة مثل الصحن المغسول. والعينان خضراوان يستحيل أن تجدهما مع شعر أسود كشعرها. وعظام الوجنتين مرتفعة. والوجه بَيضي رائع، والبشرة مظلمة قليلاً مثل فاكهة المشمش، والرائحة مثل رائحة الزهور. وهذه ليست رائحة العطر؛ لأن هذا من المستحيل أن يُصنع. فهذه رائحة الشباب، وهذا عطر يونيو.

تمت البيعة بنجاح. واتفقا على الرسوم. وكانت أتعاب نادية تقدر بألف دولار. وقد وعدها دينيتس أن يعطيها الضعف. لكن لا يجب أن تعرف أليس شيئًا عن هذا.

قاما باختيار الشقة في منطقة كريلاتسك. حيث تقع مباني الحكومة المختلفة، ولا شك في أنهما يعرفان جيدًا وضع الشقة هناك. الإيكولوجيا.

وكانت الشقة تقع في الطابق الخامس، والنوافذ تطل على الفناء، وشجرة القيقب تنقر على الزجاج. الأمر الذي جعل دينيتس يشعر بأنه يطير سعادةً من إحساسه الفياض، ويقول إن تلك الشقة دخلت إلى قلبه، كما لو كان قد عاش فيها خلال أعوام طفولته، والآن عاد إلى موطن أجداده.

وفي المساء ذهب كلاهما إلى أحد المطاعم التي تعمل فيها الموسيقى بشكل مستمر، ثم نهضا يرقصان، وضم دينيتس نادية إلى صدره، وهمس في أذنها بكلام أحرش. كان شخصًا في منتهى اللطافة، إلا أن نادية كانت في انتظار الأموال. لكنه، وبدلًا من الأموال، أخرج سوارًا من جيبه، ووضعه في يدها.

انعقد لسان نادية من المفاجأة. بعدما أخبرها دينتس أن هذا حجر حقيقي، ويبلغ سعره ثلاثة أضعاف الرسوم.

قررت نادية أن تتوجه بالشكر إلى هذا الرجل السخي، فقامت في الليلة نفسها بعزف بعض الألحان الملتهبة على جسده. وبالمناسبة، كان جسده أكثر نضارة و شبابًا من وجهه.

قام بوريس بتسجيل الشقة. ثم سوى دينيتس الأمور المالية مع الشركة وغادر إلى سانت بيتيربورج. وقد باتت أليس راضية كل الرضا عن تلك الصفقة الرابحة.

وبعد مرور شهرين احتاجت نادية بعض الأموال، فذهبت بصحبة السوار إلى مخازن القوميسيون. وهناك قام التاجر بأخذ السوار ولفه على يده ثم قال إن الأحجار حقيقية، لكنها من الهند، تمامًا مثل تلك الأساور التي تُباع في متجر «جانج» بحوالي سبعين دولارًا. تسمرت نادية في مكانها من شدة الصدمة، ثم سيطر الغضب على ملامح وجهها.

عادت إلى المنزل و بدأت ترمي بالأواني الفخارية الموجودة على الأرفف إنتاج كسينيا الأخير- الذي كان محاكاة للآثار القديمة. حيث تقوم كسينيا في البداية بحرق الطين ثم تشكله بمهارة عالية. الأمر الذي جعل الأواني تباع فور خروجها. ولم تتمكن الصالونات الفنية من تلبية الطلبات، لذلك كانت تهرع إلى حجز مجموعات جديدة من أعمال كسينيا، التي استمرت في الحصول على الأموال مقابل هذا الإبداع. عمل مربح للغاية على الرغم من أن تنظيمه

معقد. حيث كان يجب القيام بالعديد من العمليات قبل أن تأخذ الأواني شكلها التجاري: اللون الرمادي، والعنق الضيق الطويل.

قامت نادية بتحطيم أعمال كسينيا التي ظلت تصنع فيها ستة أشهر، كانت تُسقط الأواني على الأرض فتتكسر إلى قطع كبيرة، فتدهسها نادية بقدميها.

دخلت كسينيا إلى المنزل، فوقع بصرها على نادية الغاضبة وعينيها الملتهبتين، ثم حاد بعد ذلك إلى القطع المكسورة على الأرض.

لم تكن كسينيا تفهم شيئًا، على الرغم من أن الموقف كان واضحًا. لقد دخلت الابنة في حالة انهيار واستشاطت غضبًا. إذًا من المذنب هنا؟ كسينيا. لأنها لم تسمح للابنة بالدخول إلى حياتها، ولم تسعَ إلى الغوص في جوانب روحها. ولم تحاول أن تضع نفسها في مكان الابنة. فكانت تعيش معها من دون ود أو ألفة، وكأنها تود أن تقول: لكِ طريقك، ولي طريقي. لقد جئتُ بكِ إلى هذا العالم، فاذهبي الآن أينما شئتِ. وكسينيا نفسها قد عاشت بالشكل نفسه من دون رجل أو رعاية. إذًا ماذا ستفعلين أنتِ إن كان مصيرك هكذا؟ وإلى أين سوف تذهبين؟ يمتلك الجميع مثل هذا المصير، أو على الأقل معظمهم.

شرعت كسينيا بهدوء في جمع الأجزاء المكسورة من على الأرض، في حين كانت دموعها تنحدر على وجنتيها في صمت. ولم تقدر نادية على تحمل هذه الاستكانة. فكان من الأفضل أن تقوم الأم بإهانتها أو حتى ضربها.

يجب العيش بشكل منفصل، و يجب أن يذهب كل شخص في طريق مختلف. وبالمصادفة، كان هناك أحد الجيران يريد بيع شقة بغرفة واحدة. أمر مناسب للغاية؛ العيش معًا لكن بشكل منفصل. ورأت نادية أن هذه الشقة ستكون مثل البصقة على الوجه. أو بالأحرى، مثل البصقة على الأحلام والمستقبل. لأنها كانت ترى نفسها في عمارة رمادية اللون يتوسطها شرفات

مصنوعة من الحديد المذهب. وتعيش في شقة تبلغ مساحتها ٢٠٠ متر، جدرانها بيضاء مزينة بستائر بيضاء، وعلى الحائط لوحة رائعة من ليفا روبينشيك. أما هنا فما تزال كسينيا المسكينة تزحف على الأرض وتقوم بجمع الشقف والقطع المكسورة. ولم تذهب نضارة الأم، ومع ذلك كانت ملامح الشيخوخة المبكرة تظهر على وجهها. كسينيا المسكينة، المسكينة. والجميع مساكين، مساكين. تتوقف النضارة والازدهار في سن الثلاثين. ثم يعيش المرء بعد ذلك حياة فارغة في ظل غياب الحب والموت.

أجرت نادية اتصالاً هاتفيًا ببوريس تطلب منه أن يقابلها في مكان ما، والسبب من ذلك غير واضح. وبالفعل تقابلا على تلال لينين بالقرب من الكنيسة التي كانت تفتح أبوابها في ذلك الوقت، وبداخلها وقع بصرهما على عجوز ميتة، جاء الناس بها ليلًا إلى هنا حتى تُطهر من الخطايا وتمثل أمام الرب في أفضل صورها.

قام بوريس برشم إشارة الصليب على نفسه، فأدركت نادية من ذلك أنه شخص مؤمن. فأخذت تفكر قليلًا ثم قامت بما قام به. فنظر إليها باستغراب قائلًا:

- العكس. علينا أن نبدأ بالكتف الأيمن ثم الكتف الأيسر.

- وهل هناك فرق؟

- بالتأكيد.

رشمت نادية إشارة الصليب كما يجب. ثم وقفت واستمعت لأصواتها الداخلية. فشعرت أنها على ما يرام. «اغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا ...»، ويعني هذا أن عليها أن تغفر لدينيتس، وإلا سيسيطر الغضب على الروح ويفجر كل شيء في الجوار.

عـادت نادية هادئة إلى المنزل، وكأنها جلسـت فترة طويلة في غرفة البخار، فتفتحت المسـام ونُظفت تمامًا من الشـوائب. ماذا يعني هذا؟ هـل هناك حقًا رب رحيـم ينظر مـن الأعلى ويقدم المسـاعدة للناس؟ لكن عندئذ لماذا لا يعاقب الأوغاد؟ ولماذا يوجد كل هذا الشر؟

وفي يـوم من الأيـام لم تذهب نادية إلى العمـل، وقامت بأخذ ماشـا من روضة الأطفال وراحت تتنزه معها.

تجولتـا معًـا في الحديقـة ولعبتـا علـى الأرجوحـة. وكانـت ماشـا تتمتع بشـخصية محبوبة. تنتظر دورها بصبر بين الأطفـال، ثم تجلس وتتأرجح وهي تشعر بحلاوة العدل والمساواة. لم تكن تنسل إلى الأمام، أو تعود إلى الخلف.

عادت ماشـا هادئة البال إلى الروضة، وهكـذا يجب أن يكون الحال دائمًا، والأهم هنا ألا تُخدع وألا يُدمَّر الشـعور بالعدل والأهلية بداخلها. وجلست نادية في وضـع القرفصـاء وحدقـت إلى عـين ابنتها محاولـةً أن تشـعرها بالحب الذي تضمره لها. وكانت ماشا تنظر إلى الأم بنظرات ملؤها الإجلال، وأصبح واضحًا أنه لم يسـبق لها أن رأت في حياتها الصغيرة شـيئًا أروع من هذا. ثم سألتها نادية قائلة:

ـ هل تحبينني؟

ـ نعم.

ـ علامَ؟

ـ لوجهك وشعرك.

فكرت نادية قليلًا، فاستشفت أن الناس لا ينقسمون إلى جيدين وسيئين، بقدر انقسـامهم إلى أقارب وغرباء. فمهما كانت شخصية نادية، فهي الأفضل

بالنسبة إلى ماشا.

نهضت الأم ملوحة بيدها قائلة:

ـ حسنًا، إلى اللقاء.

فلوحت ماشا أيضًا بيدها الصغيرة قائلة: إلى اللقاء. هكذا يجب أن تسير الأمور دائمًا.

كانت نادية في حاجة إلى النقود، الكثير منها. مئتا ألف دولار حتى تقوم بإخلاء الشقة. بعدما قامت بالخطوات الأولى. وقد تمكنت سيما من العثور على بعض الشقق الزهيدة في عدة مناطق متواضعة.

مئتا ألف دولار مبلغ كبير، لكنه ليس بذلك المبلغ الباهظ. لقد كانت أليس تدبر مثل هذه المبالغ وأكثر. ومع ذلك لا يمكن لنادية أن تطلب قرضًا منها. لأنها لن تسمعها، وستقوم بطردها، وسينتهي كل شيء على الفور. فظلت تعلق الآمال على مجيء الفرصة المناسبة.

ذهبت نادية إلى أحد النوادي الليلية ورأته. أمر عجيب؛ عندما وصلت إلى هناك، كانت تتيقن أنها ستراه. وعندما حدث ذلك لم تندهش. كان يجلس بمفرده بصحبة مجموعة من الرجال يمرحون سويًا ويتبادلون الضحك.

وضعت نادية الهدف بين أعينها ونهضت حتى يستطيع رؤيتها. وبالفعل، تحقق لها ما أرادت، اقترب منها وقدم نفسه:

ـ اسمي أندرية خنيكين، وأنتِ؟

ـ أنا نادية فارلاموفا.

رسم أندرية الابتسامة على وجهه فظهرت أسنانه البيضاء النظيفة. فهمهمت نادية قائلة: «أقرضني أموالًا». ولم ترفع صوتها بذلك. لأن العلاقة إذا قدر لها

وبدأت بهذا الشكل ستنتهي في الحال. لذلك اضطرت نادية إلى ربط أوتارها الصوتية حتى لا تتحدث.

أجلسها أندرية في سيارته «المرسيدس» واصطحبها إلى منزله القروي، حيث سيقضى ليلهما. وفي الطريق سألته نادية:

ـ ماذا تعمل؟

ـ صاحب مصرف؛ رئيس مجلس الإدارة.

ما الشيء الذي يملكه هذا الشخص حتى يكون فوق المديرين جميعهم ؟ حتى مظهره لا يقول هذا. فهو أقرب في المظهر إلى الملازم جوليسين أو الضابط أبولينسكي. ظهره مستقيم ورقبته طويلة.

استرقت نادية النظر إليه وهي تجلس في السيارة، ولم تصدق عينيها. فعلامَ كانت تترنح بين ألمانيا وفرنسا، وفي بلادها هؤلاء الأشخاص ذوو العقول الذهبية والظهور المستقيمة ؟!

كانت القرية مضاءة بأعمدة الإنارة. فتمكنت نادية من ملاحظة أن منزل أندرية مبني على الطراز الفرنسي. إذ يحتوى على العديد من الشرفات والنوافذ الزجاجية. وهذه إشارة ليست فقط على كثرة الأموال، وإنما أيضًا على تعدد الأذواق. ومثير للاهتمام أن يتعرف المرء الشخص المالك لهذا المنزل.

لكن الأهم هنا هو السرير. كانت المرتبة مصنوعة من المطاط الناعم ذي الجودة العالية ومحشوة بشكل كافٍ، يجعلك هذا تشعر وكأنك تغوص في بحر شافٍ. إلا أن الغوص الرئيس كان يتلخص في حنان أندرية. لم تشعر نادية طوال حياتها التي تكاد تتم السادسة والعشرين بمثل هذه المشاعر. لقد ارتشفت رشفة من حنانه، وصبت له حنانها، وكأن كل منهما كان يتسابق في فعل هذا قبل الآخر.

أخذت نادية تعزف على جسده بعض المقاطع المحفوظة، مثلما تلعب على البيانو. لم يكن هناك حاجة إلى التكنولوجيا؛ لأن الموسيقى كانت تصدر من الداخل. وبدلًا من عبارة «أقرضني أموالًا «رغبت نادية في أن تتنهد وتقول: «أنا أحبك». لكنها التزمت الصمت، حتى لا يقول أنها تتصنع ذلك.

وضعت نادية رأسها على صدر أندرية وغرقت في النوم، مثلما كانت ترى في الأفلام السينمائية: تسند المرأة رأسها على صدر الرجل وتغوص في النوم. لكنها تتفاجأ أن هذا غير مريح. فالرأس تكون في وضعية غير ملائمة، فضلًا عن أن الرجل يلفظ أنفاسه في وجهها مباشرة. فمن الأفضل أن يبتعد كل منهما عن الآخر وينام على حافة السرير، تحت لحاف منفصل حتى لا يحدث أي تلامس بينهما. والأفضل من ذلك كله أن يرحل أحدهما إلى غرفة أخرى.

أما هنا فنادية تتطلع إلى ذلك، تضع رأسها على صدره حتى يتحد الجسدان ويصيرا جسدًا واحدًا.

واستيقظت نادية في منتصف الليل وقد شعرت بالعطش.

نهضت بصعوبة من على الفراش. وسارت عارية في المنزل باحثة عن الماء. ثم أطفأت عطشها وخرجت إلى الشرفة.

ليلة من ليالي الصيف. القمر مستقر في كبد السماء. النجوم متلألئة. ونادية بمفردها في تلك الليلة، ليست مثل الفتاة اليتيمة، وإنما مثل الملكة، المرأة الحديدية. من أين حصلت على هذه الثقة العالية والعصامية والاستقلال؟ فها هي تقف في ذلك العالم الهادئ، وبجوارها أندرية خنيكين بأنفاسه النقية وعقله الذهبي.

يبدو القمر مثل القرص اللامع، شيء منزو إلى حد ما. لقد صعد الإنسان إليه، لكنه لم يرَ شيئًا ولم يلاحظ وجود حياة هناك . فلماذا إذن يدور في الفضاء،

كـرة فارغة لا فائدة منها. وتخيلت نادية أن القمر موطن لأرواح الموتى، الذين ينتقلون عقب وفاتهم إلى زمان ومكان آخرين، ولا يمكننا نحن الأحياء أن نراهم. لكنهم هناك. والدليل على ذلك أن القمر يكتسب ضوءًا رماديًا معتمًا، الأمر الذي يجعل الكلاب والذئاب غالبًا ما تعوي في وجهه.

فتحت هذه الأفكار أبواب السعادة أمام نادية، التي توجد الآن في منأى عن الشيخوخة، ولا تتحدث عن الموت. وسيبدأ كل شيء للتو في حياتها. لقد حط طائر السعادة على كتفها مصدرًا أصواتًا بجناحيه. فلا حاجة إلى مال أو شقق، أو حتى إلى الذهاب إلى باريس. وكيف كانت ستصبح هناك؟ امرأة انهزامية، محظية. أما هنا فهي ملكة متألقة تحت ضوء القمر.

عادت نادية إلى أحضان أندرية الدافئة. وقد عانق كل منهما الآخر، وقاما معًا مثل السمكتان، بالدخول إلى أعماق المحيط الذي كان يحيط بجسديهما المستلقيين.

وفي الصباح قالت نادية:

ـ عليك الآن أن تحبني أنا فقط.

ـ أنا متزوج.

ـ إذًا، ما العمل؟

ـ سنتقابل... أحيانًا.

كان الصمت يسود أرباع المدينة. ونادية تنظر من النافذة وتفكر في أنها لن تطلب منه أموالًا ولن تتقابل معه «أحيانًا»، مثلما يحدث مع الأتراك والعرب. ومن الممكن العثور لكلمة «أحيانًا» على شيء ما أكثر ملاءمة حتى لا تتمزق الروح وينفطر القلب.

اقتربا من النادي الليلي، حيث كانت تصطف سيارة نادية.

سأل أندرية:

- متى ستكون المرة القادمة؟

- لن يكون هناك مرة قادمة.

- كما تريدين.

وهكذا لم تستمر العلاقة سوى يوم واحد.

لكن شاءت الأقدار؛ فأخذ أندرية يتصل بنادية مرة كل نصف ساعة، وأصبحت هي تعيش على انتظار الاتصال القادم، فإذا تباطأ أندرية أو تأخر في الاتصال قليلاً تفعل هي ذلك بنفسها.

كانا يتحدثان عن ماذا؟ عن اللاشيء. فقط يتنفسان، ويتمتمان بكلمات غير واضحة. فتشكلت روح جديدة، واحدة من اثنين، روح واحدة كبيرة من روحين صغيرتين.

وهذا هو الحب .

*****

بعد مرور ثلاثين يومًا شعرت نادية بأنها حامل. وهذا سيكون من ناحية عبئًا إضافيًا على الأم التي لم تكن تملك الوقت لطفل واحد، والآن سيصبح الطفل طفلين. لكن من ناحية أخرى، سيحسن هذا من وضعها. فبالتأكيد لن يتساوى وضع عشيقة بمفردها مع وضع عشيقة بصحبة طفل. زوجة صغيرة وطفل حقيقي.

من غير الصحيح أن أندرية لا يتمتع بنعمة الأبناء. وستقوم نادية بمعالجة هذا الخطأ وتنجب له فتاة نشيطة بعينين آسيويتين أو أميرًا صغيرًا بعينين رماديتين، يقوم بأخذ أندرية من زوجته إليها، عندئذ ستتحقق أحلامها

جميعها. وستتزوج من أوناسيس، لكن ليس من ذلك العجوز، وإنما من شخص شاب جذاب مليء بالحيوية. وقد خيل إليها أنها ستحبه حبًا لن ينتهي مع مرور الزمن.

وحتى إذا رفض أندرية الرحيل عن زوجته، فبالطبع لن يلقي بنادية وطفلها إلى الشارع. وسيمد لهما يد العون؛ فتحصل نادية على معاش يستمر معها طوال الحياة، تطلعات مستقبلية. أما الآن فالأهم بالنسبة إليها أن تمتلك طفلًا من أندرية يكون معها دائمًا. الطفل سيصبح مراهقًا، والمراهق سيصبح شابًا ناضجًا، وهكذا تكون نادية شاهدة على الدورة الكاملة للحياة: الطفولة، المراهقة، النضج... إلى آخره .

بدأت نادية تفكر: كيف أخبره؟ فهذا أمر لا يمكن قوله في الهاتف.

وفي نهار أحد أيام الثلاثاء تقابلت نادية مع أندرية ثم ذهبا سويًا إلى المنزل القروي. وبعد ذلك توجها إلى الغابة. وكان الربيع في أزهى صوره، حيث الأوراق الصفراء، والخضراء والقرمزية، والأشجار التي يلمع انعكاسها على سطح المياه الصافية.

عثرا على أربع قطع من الفطر: ثلاث بيضاء وواحدة حمراء. ولسبب ما قاما باقتطافها. لمحت نادية ثعبانًا. وصرخت صرخة مدوية، فقال أندرية:

ـ إنه ثعبان العشب.

ـ من أين تعرف؟ هل أعطاك بطاقته؟

ـ لديه علامة صفراء، وهذه بطاقة كافية.

عادا إلى المنزل. فبدأت نادية في تحضير حساء الفطر، وأندرية يقف بجوارها ويساعدها، يقوم بتقشير البطاطس والجزر بسكينة خاصة. ثم يضعان معًا الأطباق على المائدة. كانا يفعلان هذا بسعادة كبيرة باعتقاد يكمن

في أن الحياة، كما يبدو، تصبح مشرقة ومليئة بالسعادة، عندما يكون بجوارك الشخص الذي تحتاجه.

لا شيء خاص: مجرد حساء، ويد تمتد إلى الخبز، لكن يبدو أنه عالم كامل وكأن هناك بابًا حديديًا قد فتح في الجدران.

وبعد تناول الغداء جلسا على الأريكة، ثم قاما بإضاءة التلفاز. وأخذا يتنقلان بين القنوات الإخبارية، التي لم تكن نادية تولي إليها اهتمامًا لأنها مجرد مواطنة عادية. أما أندرية فكان يعرف كل شيء من مصدره كونه عضوًا في أحد الأحزاب السياسية، التي لا تعرف نادية شيئًا عنها.

كان أندرية يمتلك القدرة على كتمان الأسرار، لكن نادية لم تكن بتلك الخطورة التي تجعله يشعر بالقلق من الحديث معها.

وبينما كان أندرية يستمع إلى حديث «إيجريك» كشف عن غير قصد أن هذا الشخص يحتكم على نقود في حسابه المصرفي. فالتفتت إليه نادية:

- نقود كثيرة؟

- تسعة أصفار.

- كم يكون هذا؟ مليون؟

- المليون يتألف من ستة أصفار.

- سأُجن .. ومن أين اكتسب كل هذا؟

- حصل على رشوة.

لم تهتم نادية بذلك. لأن الحبيب يجلس بالجوار، الأمر الذي جعلها تخبئ الشغف الذي يسري داخلها. هناك المزيد من الوقت، ولا حاجة إلى التعجل في القيام بالأمور. ومع هذا استحوذ الشغف على كل شيء، مثل تسوماني، ثم

انتصر في نهاية الأمر. أخذا يتبادلان كلمات الحب على خلفية ثرثرة التلفاز، الذي كانت أخباره أقل أهمية من الشيء الذي يحدث بينهما.

تأتي الراحة بعد الحب، تمامًا مثلما يحدث بعد تأدية الصلاة. وكانت تلك هي اللحظة المناسبة:

ـ أنا حامل.

التزم أندرية الصمت. وساد الهدوء في جوانب الغرفة. ثم استلقى على السرير وأخذ ينظر إلى السقف. ثم هب واقفًا، في حين كانت نادية تراقب تصرفاته في سكوت تام:

ـ ألستَ سعيدًا؟

ـ المشكلة في أنني لا أستطيع الإنجاب. لقد أصبت في سن العشرين بمرض النكاف ووصل الأمر إلى مرحلة خطيرة. لقد حملتِ من شخص آخر، وليس مني.

نظر أندرية إلى الناحية الأخرى. فحدثته نادية بجدية:

ـ هذا ابنك. لا أستطيع قتله؛ أنا مؤمنة.

كانت هذه نصف كذبة. لأن نادية لم تكن مؤمنة مثلما قالت.

مر بعض الوقت.

هام أندرية بنادية الحامل هيامًا، بعدما ظهر حنانها وضعفها وأنوثتها المتفجرة. وقد أصبحت أكثر جمالًا، وبات وجهها نحيفًا، ولمعت عيناها من السعادة، وبرزت بطنها، مثل كرة القدم.

ربت أندرية ذات يوم على بطن نادية مرددًا:

ـ البيت الذي شيده جاك.

فردت نادية قائلة:

ـ البيت الذي شيده أندرية.

كان أندرية يصدق ولايصدق، لكنه لم يرد أن يغير شيئًا في الأمر. فلعل الأمور سوف تسير كما هو مقدر لها. وسينقله هذا إلى مكان مختلف تمامًا.

أحب أندرية الذهاب إلى المطاعم بصحبة نادية. ولم يخشَ من القيل والقال. فمن يمكنه إعلام سفيتلانا بذلك. كان يفتخر بمرافقة هذه المرأة الحبلى الجميلة. فعلى الرغم من أنه كان يعاني من العقم، فإن بطن نادية كانت تظهر رجولته وقيمته. وبذلك أصبح مثل الجميع، إن لم يكن أفضل منهم.

لم يدخل أندرية في مناقشة مع نادية حول مصير الحمل، ولم يرسم الخطط اللازمة لذلك. وتوقفت نادية كذلك عن طرح الأسئلة حتى لا تنفِّر طائر السعادة، الذي ظلت نادية تطعمه وتمر بيدها على ريشه الناعم.

السكوت علامة الرضا. سكت أندرية، فأظهر هذا أنه مرحب بالأمر. ولكن ماذا بعد؟

أفادت الإشاعات بأن نادية ستلد ولدًا. فأخذت الأم تفكر في اسم مناسب، ربما «لوكا».

وبهذه المناسبة توجها إلى أحد المطاعم، وقامت نادية بدعوة ناليا ونينا راغبة في أن تقدم لهما أندرية، وتخبرهما بحملها وانتصارها في الحياة. حب حقيقي، ومن ثم انتصار حقيقي، لقد أشرقت شمس حياتها. وغربت شمس الحياة لدى جاكلين المسكينة، التي خضعت لعملية جراحية خطيرة، وأخذت تنتظر نهايتها، أحبها تامبيلسمان الثري أيما حب. لكن ما الحب الذي يمكن أن يكون في هذه الظروف؟!

جلس الخمسة في مطعم «بوشكين»، إذا قمنا باحتساب لوكا في بطن أمه. وفي الخارج كان الحارس واقفًا مرتديًا سترة من أيام بوشكين.

كانت نادية تتلألأ مثل الثريا المصنوعة من الكريستال، وتقهقه بسبب ومن دون سبب. وكان أندرية كذلك يتألق ويضحك، أيضًا بسبب ومن دون سبب. فأصبح جليًا أنهما يحبان بعضهما بعضًا، ويشعران بالسعادة معًا، ولا حاجة في ذلك إلى سبب. لأن السبب هو الحب، والحمل ثمرة ذلك الحب، ودليله المادي.

الضحك مثل الوباء. ضحكت الفتاتان، على الرغم من أنهما كانتا تحسدان نادية وأندرية. وكانتا تعيشان حياة عادية للغاية من دون سترة بوشكين تلك وهذا الطعام العجيب. لم يكن لديهما أبناء، ونادية توشك على ولادة الطفل الثاني. وعما قريب ستصبح الشقة مليئة بالأطفال وستُزين الأسقف بالرسومات. وتقوم الأم بدعوة أحد الفنانين حتى يوقع باسم فروبيل تحت تلك الرسومات، وستقول أن هذا فروبيل الحقيقي. وسيصدق الناس هذا لأنهم بالتأكيد لن يحدقوا إلى السقف أو يتسلقوه.

كان العام الجديد على الأبواب. فتوجه أندرية إلى نادية قائلًا:

ـ ما الهدية التي تريدينها؟

ـ الأموال. وليس بوصفها هدية، بل قرضًا. فقط لمدة شهر واحد.

ـ أموال كثيرة؟

ـ ثلاثمة ألف دولار.

ـ نقدًا؟

ـ نقدًا وفي أسرع وقت. أريد أن أشتري شقة.

ـ حسنًا.

وافق أندرية على الرغم من أنه لم يكن مطمئنًا لهذا. لأن البنوك كانت تضع الأموال في المشروعات وتأتي بأموال جديدة. وخروج ثلاثمئة ألف دولار من التداول المالي يعد شيئًا غير مربح. ومع ذلك لم يكن أندرية يرغب في رفض أي طلب لنادية؛ لأنها الشاطئ الذي يلجأ إليه.

وبعد ذلك ذهبت نادية بصحبة أندرية إلى ألمانيا، مدينة ميونخ، حيث بدأ هتلر نشاطه السياسي.

كانت نادية تحمل جنسية مزدوجة؛ فكانت تتمتع بالقدرة على التحدث والشرح باللغة الألمانية.

أخذ أندرية يعلق الآمال على أن الجنين من صلبه. حتى أنه كان يذهب إلى الأطباء ويسألهم: هل يمكن للحيوان المنوي أن يكون فعالًا تحت ضغط الشهوة الجنسية الشديدة؟ فيجيبه الأطباء: نعم، توجد حالات كهذه، تتغير فيها هرمونات الغدة النخامية، وتعمل بشكل أكثر فاعلية، وقاموا بضرب بعض الأمثلة للتدليل على ذلك.

وفي صباح أحد الأيام خرج لوكا إلى هذا العالم. وكان أندرية موجودًا آنذاك، كان يسحب الجنين بنفسه من رحم نادية. وقد خيل له فزعًا أن الجنين لن يخرج من رحم أمه بأية طريقة من الطرق.

لكنه خرج في نهاية الأمر. وقام الأطباء بحمله بمهارة ولحفوه بغطاء ثم وضعوه على صدر نادية.

كان قلب أندرية يرتجف جراء تلك الولادة السرية. ثم قال الأطباء:

ـ الطفل يشبه أباه للغاية.

التقطت نادية أنفاسها، وشعر أندرية بأن دموعه ستنهمر على وجنتيه. فليس عبثًا أن يهتم الآباء في الغرب بحضور لحظات ولادة أبنائهم. لأن هناك

شـيء يتغير داخلهم ويسـتمر إلى الأبد. وبالفعل تغير الكثير داخل أندرية. وقد تشـرذمت روحه وتشـققت. ماذا فعلت به نادية. لقد بدأ كل شـيء ببراءة و بشـكل مبتذل: «أنا أندرية خنيكين. ومن أنتم ؟» – «أنا نادية فارلاموفا». وضعت نفسها ببساطة أمام عينيه حتى يراها، وبالفعل تحقق لها ما أرادت.

خرجت نادية من المستشـفى بعد ثلاثة أيام؛ لأن المريض لا يمكنه المكوث في مـكان كهذا طويـلاً. الأمر الذي يسـري كذلك على غرفة الاسـتقبال. يمكنـك أن تظـل في المستشـفى ما تريد مـن الوقت، لكن كل يوم سـيمر عليك بعد الثلاثة أيام الأولى سيتوجب عليك فيه دفع أموالًا إضافية.

اندهش أندرية من النشـاط الـذي تتمتع به نادية. فهي لم تشـعر بالإرهاق أو الوهـن في يوم واحد بعد الوضع. كانت تريـد التحرك دائمًا، ولا تحبذ الجلوس في الفندق من دون عمل.

وفي يـوم مـن الأيـام قاما بأخذ الطفـل ووضعـاه في حقيبـة خاصـة مليئة بالحفاضـات وشـرعا يتجـولان في المتاحـف ويعرجـان بالمطاعم لمجـرد التنزه، فيسـيران وينظـران إلى المنازل، وإلى الناس. وفي وسـط المدينـة، وبالتحديد في السـاعة السادسـة، تحت سـقف أحـد المباني العتيقـة أخذ بعـض الفنانين في تشـكيل بعض المجسـمات من ورق البابا ماشـا. وكان الألمان يشاهدون هذا العـرض ويصفقون بحرارة. كل شـيء منظم، ولا يشـوبه أي خلـل. والألمان لا يحبـون التبهـرج، بل علـى العكس يحبـذون ارتـداء الملابس الـتي تجلب لهم الراحة. الأمر الذي يجعلك تشـعر بأنهم يعيشـون حياة رائعة منذ فترة طويلة. فهم لا يعانون من عقدة النقص مثلما يعاني الروس. فمن لا يثقون في أنفسهم هم فقط من يتبهرجون.

وقاما بعد ذلك بتناول العشـاء في أحد المقاهي، شـطائر مصنوعة من عراقيب الخنزيـر – وجبة ألمانية خالصة. ثم أخذ أندرية كأسًـا مـن النبيذ الخفيف، في

حين كان لوكا يتناول غداءه، بعدما أخرجت نادية نهدها الداكن، مثل المرأة الغجرية. ولم يقم أحد في المقهى بالنظر إليها. حتى وإن حدث، لا يهم. فمصلحة الطفل فوق كل اعتبار. نظر إليها أندرية وسألها:

ـ أين تريدين العيش، هنا أم في موسكو؟

ـ في المكان الذي ستعيش معي فيه، حتى وإن كان في إفريقيا.

انتظرت نادية أن يفتح أندرية يده ليعانقها، لكنه التزم الصمت ولم يتفوه بكلمة واحدة.

وفي مرة من المرات قامت جريتا بزيارة شخصية إلى نادية، ولم تتكاسل عن فعل هذا. فربما كانت هناك بعض المصالح في ميونخ. وكانت حياة جريتا تتحرك خطوة بخطوة نحو الحلم. وقد شقت طريقها بشكل تدريجي حتى تصبح سيدة أعمال، فقامت بافتتاح متجر روسي وبدأت في استيراد الألعاب والماتريوشكا من روسيا. فشعرت بثقة كبيرة، الأمر الذي كان ينعكس على ملابسها وسلوكها.

أطالت جريتا النظر إلى لوكا، ثم وجهت سؤالها إلى نادية:

ـ من يشبه؟

فأجابت نادية قبل أن تنتهي جريتا من سؤالها قائلة:

ـ هو نسخة من أندرية.

ولاحظ أندرية تسرع نادية في الإجابة. لكن جريتا واصلت قائلة:

ـ لا، لا يشبهه البتة. ولا يشبهك أنتِ أيضًا، بل يشبه أحد المارة.

فقامت نادية بغمز قدم جريتا من تحت المنضدة.

تفاجأت جريتا في البداية ثم أدركت أن نادية تريد أن توصل إليها شيئًا ما. فقالت:

ـ ربما فيه شيء من أندرية. الأذن مثلًا.

فأقحم أندرية نفسه في الحوار قائلًا:

ـ الآذان كلها متشابهة.

ـ لا تقل هذا.

شرعت جريتا تشرح أن أذن الطفل مثل أذن الجنين، وطلبت منهما أن يحدقا إليها جيدًا. لكن أندرية لم ينصت إلى هذا. لقد أنجبت نادية طفلًا قام أندرية بمقابلته في نهاية النفق. يا لحكمة الرب! صمت أندرية قليلًا ثم قال:

ـ لوكا يشبهني في الطفولة، لقد كنت مثله تمامًا في ذلك العمر.

عادوا إلى موسكو.

وقام أندرية باستئجار شقة كبيرة لنادية في وسط المدينة، واستدعى لها مربيتين: واحدة بالنهار وأخرى بالليل. وسائق يأتيها بالطعام والشراب من السوق كل ثلاثة أيام. وكان أندرية يتصرف بطريقة بريئة. فتأكدت نادية أنه مع مرور الأيام سوف يقوم بطلب الزواج منها. إلا أنه لم يكن على عجلة من أمره. كانت نادية تتمتع بوداعة ولطف في المعاملة لم تكن تتمتع بهما من قبل. وقد أدركت أن طرح الأسئلة، ولا سيما الإصرار على الحصول على إجابة لها سيصبح وكأنها تتشبث بأكمام الملابس، التي بالتأكيد سيحاول أندرية قطعها حتي يتمكن من الهروب.

بدأت نادية تترقب الأجواء ووضعت تكتيكًا معينًا حتى تقوم بإخلاء الشقة. وكان يجب شراء أربع شقق لأربع أسر كانت تعيش في تلك

الشقة بعد سنوات الحرب؛ وتتكون من: العجوز ليديا جافريلوفنا، والزوجين السكيرين سيمين ولودكا، والمهندس ياشا. وتبلغ مساحة الغرفة الأكبر فيها خمسين مترًا، ويعيش فيها عازف السيمفونيات جميزي.

والأربع أسر لا يشبه بعضها بعضًا؛ فهناك عائلة صريحة وأخرى تثير الشكوك، وعائلة حريصة وأخرى معتدلة.

بدا أن السيدة العجوز التي تُدعى ليديا جافريلوفنا تمارس الاحتيال بأعلى مستوياته؛ حيث قامت بكتابة غرفتها التي تبلغ مساحتها ٢٠ مترًا إلى ابنة اختها مايكا وإلى الجيران في الطابق الأعلى في الوقت نفسه.

كانت مايكا تأتي مرة في الأسبوع، يوم الثلاثاء، تشتري الطعام بكل أنواعه: اللحوم، والأسماك، والطيور، والخضراوات، والفواكهة، والوجبات الجاهزة. أما الجيران فكانوا يأتون في أيام عطلتهم، ويقومون بترتيب الشقة وإصلاح الأجهزة الكهربائية. يمكن القول إنهم كانوا يسددون دينهم بالعمل. وكانت العجوز تبلغ من العمر ثمانين عامًا. لذلك فإن غرفتها التي توجد في المنتصف كان من الممكن أن تصبح خالية في أية لحظة.

ولم يكن الجيران يعرفون شيئًا عن مايكا، ولم تكن مايكا تعرف شيئًا عنهم. ونادية أيضًا لم تكن تعرف شيئًا. وفي يوم من الأيام الرائعة انكشف كل شيء. فظهرت الحاجة إلى الاتصال ببوريس، الذي لم يُدن ليديا جافريلوفنا على فعلتها، لأنه يرى أن الشخص العجوز يعيش في الحياة كيفما يستطيع. لذلك قام بإجراء بعض المحادثات مع جميع الأطراف. وكان يتحدث في ذلك بهدوء وثبات وهو ينظر مباشرة إلى الأعين؛ نظرات هادئة وصادقة.

وعلى الجانب الآخر كانت نادية تتعصب بشدة وتذهب بعينيها وعقلها إلى أماكن مختلفة، ولا تفكر في شيء سوى النقود. لا يهمها الناس، وخصوصًا هؤلاء: العجوز، الزوجان السكيران، المهندس. إلى درجة أنها لا تتذكر كيف

كانوا يبدون أمامها؛ قاذورات؛ حثالة المجتمع. لذلك كان عليها أن تُنهي الأمر بالمبلغ الذي تملكه، وإذا تبقى شيء منه ستدخله في إصلاح الشقة. بعدما عقدت النية على شراء مسكن بسعر أرخص، في منطقة نائية، في الطابق الأول. ثم إرسال العجوز والزوجين السكيرين إلى هناك. فما الفرق بالنسبة إليهم إذا عاشوا هنا أو هناك؟ لماذا عليهم العيش في منتصف المدينة؟

أما المهندس ياشا فلم تكن هناك مشكلة معه، وكان يمكن خداعه بأسهل الطرق؛ لأنه يصدق سريعًا كل ما يقال له. عاش ياشا مع أمه حتى سن الأربعين، وعندما أدركتها المنية بات يعيش بمفرده غير قادر على التكيف مع الواقع الذي يحيط به. وقد بدا أن الأم كانت تحمي ابنها من قسوة الحياة. ياشا لم يكذب طوال حياته، ولم يكن يعرف أن الآخرين يستطيعون الكذب بهذه الطريقة؛ فالأهم بالنسبة إليه هو الشعور بالراحة والطمأنينة حتى لا يُضله أحد أو يزعجه. كما قالت الأم ذات مرة: ليس الدراي، بل الكوبف. والكوبف تعني الرأس. وكانت هذه هي الكلمة العبرية الوحيدة الذي عرفها ياشا.

كانت محاولة نادية لخداع ياشا شيئًا يدعو للحرج، وكأنها تخدع طفلًا صغيرًا، لكن العمل عمل مهما حدث. فخططت نادية لإعطاء ياشا شقة في الطابق الخامس بإحدى العمارات المبنية في حقبة خوروشوف. فحاول بوريس منعها قائلًا:

ـ لا أنصحك بفعل هذا. ستشعرين بحالة مزاجية سيئة.

ـ على العكس، ستتحسن حالتي كثيرًا.

أما شقة جميزي فتطلبت مبلغًا ماليًا كبيرًا؛ لأنه كان يريد أن يبدل شقة تتكون من غرفتين بغرفته التي تبلغ مساحتها ٥٠ مترًا وتقع في عمارة مرموقة. وكان لديه زوجة شابة في مراحل الحمل الأولى، ويعني هذا أن الزواج لم يمر عليه الكثير من الوقت.

قامت نادية بخلط الأوراق، ثم اختارت ورقة وأظهرتها، وأصرت عليها، فأخذت تساوم في السعر حتى الرمق الأخير، وانتهى كل شيء بموت العازف فجأة؛ لأنه كان يعاني من علة في القلب.

بدا أن نادية لم يكن لها علاقة بما حدث، ومع ذلك أخذت الزوجة الحامل تنهال عليها بالضرب. فاضطر بوريس إلى الفتك حرفيًا بالفتاة المسكينة.

اندفع لودكا وسيمين إلى مصدر الضوضاء، وتوجها سريعًا إلى نادية وصبا عليها الماء البارد. ولم يرغبا في ضربها؛ لأنهما شعرا بالخجل، لكنهما قاما بإغراقها تمامًا من رأسها إلى أخمص قدميها، ثم طردوها إلى الشارع، الذي كان شاهدًا على حلول شهر ديسمبر مصحوبًا بدرجة حرارة تصل إلى خمس تحت الصفر.

وصلت الفضيحة إلى مسامع أليس. بعدما قامت ليديا جافريلوفنا المتيقظة دائمًا بتقديم شكوى إليها.

فقامت أليس باستدعاء نادية وقالت:

ـ أنتِ، مثل كلب بول تيرير، لديك استعداد للسير على الجثث، فلا يشغل بالك سوى الحصول على حصتك من الأموال.

ـ يجب علينا معرفة كيفية توجية الضربات، لا تأخذي الأمور على محمل الجد. يمكننا أن نقول إن الشقة أهم من الحياة.

ـ أنتِ امرأة بلا ضمير.

ـ وهل تختلفين عني في شيء؟

ـ بالطبع. أنا لدي ضمير، أما أنتِ فلا.

تمنت نادية لو بإمكانها قول إن أسنان أليس في ثلاثة صفوف مثل سمكة القرش، لكنها التزمت الصمت، ولم ترد أن تزيد الموقف اشتعالًا. فالأهم هنا لا يكمن في البحث عن الحقيقة بقدر ما يكمن في البحث عن الشقة. وكانت نادية تتمتع بالقدرة على تمييز الأشياء السيئة عن الأشياء الجيدة.

وفي النهاية أُخليت الشقة جزئيًا.

رحل الزوجان السكيران إلى قرية ليتفينوفو القابعة على مشارف موسكو. وقد حاز المناخ هناك إعجابهما، فضلًا عن الحديقة المزهرة الواقعة أمام منزلهما.

طرق الحظ فجأة أبواب ياشا؛ فكان من نصيبه غرفة في شقة تتألف من ثلاث غرف. والغرفتان الأخريان كانتا من نصيب ليدا المطلقة التي تمتلك وجهًا دائريًا ممتلئًا بعض الشيء ومؤخرة مستديرة. ومعها ابنها الذي يبلغ خمسة أعوام. نظر ياشا وليدا إلى بعضهما بعضًا، فأدرك كلاهما أن مهمة البحث عن السعادة قد اكتملت؛ حصلت ليدا على زوج متعلم لا يشرب الكحوليات. وحصل ياشا على زوجة جميلة وطفل جاهز. لقد تحقق حلمه الذي كان يخفيه في أعماق صدره؛ فلطالما كان يهيم عشقًا بهؤلاء النساء السلافيات الدافئات. أما اليهوديات المثقفات فلم يحزن إعجابه أو اهتمامه. لكن الأهم هنا أنه لن يضطر إلى فعل أي شيء: زوجة جاهزة في شقة جاهزة، أرسلها الرب إليه. وربما الأم هي من فعلت ذلك، حتى بعد موتها لم تهمل حبيبها ياشا العاجز عن التكيف مع البيئة المحيطة.

وحصلت أرملة جميزي الحامل على شقة تتكون من غرفتين في المنطقة نفسها. وكان سعرها زهيدًا للغاية لأنها توجد في الطابق الأول. ولكن لا بأس ما دامت في المنطقة نفسها.

وظلت ليديا جافريلوفنا بمفردها.

لم تكن جافريلوفنا ثابتة على رأي، فتارة توافق على غرفة واحدة، وتارة تقول إنها تريد غرفتين. فاضطرت نادية إلى شراء غرفتين متجاورتين في شقة شبه خالية. لكن ظلت علامات العند تكتسي وجه العجوز الخالي من الأسنان. وقد نظرت إليها مايكا، ابنة الأخت، ثم رحلت عنها، بعدما كانت هي الملهمة لانتصاراتها.

فقامت نادية باستدعاء محامي الشركة، شخص يُدعى يورا، ويمتلك رأسًا أصلعًا على رقبة صغيرة للغاية، ولديه منكبان عريضان مثل سرطان البحر. نظر يورا إلى العجوز ثم قال:

ـ ماذا هناك؟

فقامت ليديا جافريلوفنا برشم إشارة الصليب على جسدها، ووافقت من دون تفكير على كل شيء طلب منها. لأنها كانت متابعة جيدة للمسلسلات التليفزيونية، فأدركت أن الأخ المجرم جاء ليدفنها مكانها. لذلك رأت أن غرفتين في شقة أفضل بكثير من الموت على يد هذا الشخص.

وهكذا أصبحت الشقة خالية تمامًا. فقامت نادية بتحضير الوثائق وتسجيلها، وبذلك حققت انتصارًا من الانتصارات المهمة في حياتها. ستقوم نادية ببناء عش في هذه المنطقة يأويها بصحبة أندرية والطفلين. منطقة مرموقة للغاية، وأندرية شخص رائع: ودود، وجذاب، وثري، وشاب. تمامًا مثلما يوجد في الحكايات الأسطورية. ونادية امرأة تسعى للكمال؛ تريد أن تمتلك الأفضل من كل شيء. وقد سارت طويلًا بحثًا عن الزوج الأفضل.

إلا أن المستقبل سيحمل معه تغيرات كبيرة، وتصميمات منظمة، وعمال ماهرين، وأموال، الكثير من الأموال.

نظرت نادية إلى أندرية وقالت:

ـ أقرضني أموالًا.

كان لوكا غارقًا في النوم عندما كانت نادية وأندرية يتناولان العشاء في المطبخ، يأكلان المعكرونة مع المحار، الذي أعدته نادية بمهارة. بعدما تعلمت الطريقة من الخادمة المكسيكية التي كانت تعمل في منزل جان ماري.

التفت إليها أندرية قائلًا:

ـ أنتِ حتى الآن لم تُسددي الدين السابق.

ـ ولماذا علي أن أسدده؟ سنتزوج ونصبح شخصًا واحدًا، وما تمتلكه سيكون هو ما أمتلكه .

ـ لن نتزوج. لا أستطيع أن أهجر زوجتي.

أرسلت نادية بعض النظرات المبهمة التي لا معنى لها.

ـ لماذا؟

ـ لأنني لا أريد ذلك.

ـ ولماذا لم تخبرني بهذا في البداية؟

ـ لأنكِ لم تسأليني.

ـ لكن هذا شيء بدهي، ولماذا إذًا سمحت لي بإنجاب الطفل؟

ـ لقد أردتِ ذلك. وهل سيمثل هذا عائقًا بالنسبة إليك؟

ـ بالتأكيد، سيكون عائقًا كبيرًا. كيف سأعيش وحدي بصحبة طفلين؟

التفت أندرية مفزوعًا حتى يتأكد أن لوكا لن يسمعه. وكان الطفل نائمًا واضعًا يديه الصغيرتين بجوار رأسه.

- سأعطيه اسمي وأقدم لكم المساعدة فقط، هذا كل شيء.

تنفست نادية بصعوبة؛ فالهواء الموجود في المطبخ لم يكن يكفيها في تلك اللحظة. فلاحظ أندرية هذا قائلًا:

- لكنني معك الآن، معكما، ماذا تحتاجين أكثر من ذلك؟

أعطت نادية نفسها بعض الوقت حتى تتمكن من اتخاذ رد الفعل المناسب. وكانت تنتحب بصوت عالٍ، وتضرب رأسها في الحائط، وتنعق مثل البومة، لدرجة أنها فكرت في تناول السم، لكن ليس من أجل الموت، وإنما من أجل إثارة القلق لدى أندرية؛ حيث تقوم بالتواصل مع أحد الأطباء ثم تذهب إلى المستشفى. وبالتالي سيتصل الطبيب بأندرية ويخبره بشكل رسمي عما حدث، ويلمح إلى الفضيحة التي من الممكن أن تُثار. فيأتي أندرية سريعًا ويقترب من «الميتة»، وعلى الفور يقوم باستدعاء أحد العاملين في مكتب الزواج الشرعي إلى الغرفة. تمامًا مثلما حدث في مسرحية فيلومينا مارتيرانو.

لكن أندرية لم يقطع وعدًا واحدًا على نفسه، ولم تطلب نادية منه هذا. ولماذا لم تكن تطرح عليه الأسئلة؟ لقد منعها الكبرياء مرة، ومنعها الخوف مرتين. وقد شعرت نادية من أعماق قلبها أن أندرية سمكة كبيرة للغاية بالنسبة إلى صنارتها الضعيفة. ولم تكن واثقة في أي شيء؛ لذلك كانت تقوم بالأشياء التي تتوقف عليها فقط: الحب، والحمل، والولادة. كانت تحب الرجال الناجحين. وأندرية شخص مميز، يفعل كل شيء على أكمل وجه. حتى كونه لا يريد التخلي عن زوجته يدل على أنه يتمتع بالمشاعر الإنسانية الراقية. لذلك يجب الحصول عليه بأي ثمن، والقيام بكل ما هو ممكن وغير ممكن.

قامت نادية بالاتصال بناليا، التي تعاطفت معها، فذهبت إليها بصحبة طبيب يُدعى سينيا؛ رئيس قسم الأعصاب في مستشفى المدينة.

أنصت سينيا إلى السيناريو الذي قامت نادية بتأليفه بخصوص حالة التسمم الخادعة، وقد أخذ في عين الاعتبار النقود التي سيأخذها مقابل تلك المسرحية. بعدما وعدته نادية بخمسمئة دولار. وكان سينيا أصلعًا وذا عينين جاحظتين، مثل الشبوط. يشرب الكحوليات بشراهة. فرفع شفتيه وتوجه بالكلام إلى نادية قائلًا:

ـ لا أنصحكِ بالقيام بتلك الأشياء.

ـ لماذا؟

ـ لأنه سيخاف منكِ و يهجرك. بالطبع لن يفعل هذا على الفور. لكنه سيأخذك من المستشفى أولًا ثم يختفي عن الأنظار.

ـ وهل مرت عليك مثل تلك الحالات؟

ـ بالتأكيد، عندما تريد المرأة الانتقام أو الابتزاز، عليها بالهروب، مثلما يحدث في عمليات الهجوم.

ـ وهل هربت من قبل؟

ـ مستحيل.

أخذت نادية تفكر محدثة نفسها: يا إلهي !! هل من المعقول أن يقع مثل هؤلاء في الحب؟

غادر سينيا، ولم يأخذ أموالًا نظير زيارته. وظلت نادية وناليا معًا. فنظرت نادية إلى صديقتها ثم سألت بصوت جهير:

ـ هل من المعقول أن يقع مثل هؤلاء في الحب؟

ـ الجميع يقعون في الحب، وكل إناء يعثرعلى غطاء لنفسه.

أمعنت نادية في التفكير بالأمر. ربما يكون أندرية غطاءها الوحيد. كانت تحبه كليًا؛ تحب كل شيء فيه. ابتسامته، وسعاله، وطريقته في الظهور والاختفاء. وكان أندرية يظهر في مكان وفجأة تجده في مكان آخر؛ مثل الكائن الفضائي.

قالت ناليا:

ـ وماذا يقول؟

ـ يقول إنه لن يهجر زوجته.

ـ لقد حدث الشيء نفسه معي.

كانت ناليا كسابق عهدها تحمل الوفاء داخلها إلى زوجها العبقري. فسألتها نادية:

ـ وكم انتظرتِ من الوقت؟

ـ ثماني سنوات.

ـ وهل أنتِ راضية الآن؟

ـ هذا أفضل من لا شيء؛ فكل منا يحتاج إلى الآخر بشدة.

ـ إن كان ما تقولينه صحيحًا، فلماذا لا يقوم بتصرفات تثبت لكِ ذلك؟

ـ هو لا يستطيع أن يهجر زوجته. ليتها تقوم هي بهجره.

إنها فكرة عبقرية. لماذا نحتاج إلى المستشفيات ودفع الأموال والتمثيل، في الوقت الذي يمكننا فيه دعوة سفيتلانا، زوجة أندرية، إلى أحد العروض المسرحية، التي ستجلس فيها وهي لا تعرف شيئًا، في حين تسبح نادية في بحر العذاب. فلعل سفيتلانا تغوص فيه بعدها.

اتصل أندرية بنادية حتى يتحسس الوضع من صوتها. وكانت نادية تتحدث بهدوء وترحاب. وهذا يعني أنه من الممكن قضاء ليلة من دون أية خسائر. وبدأت قصة الحب غير المشروعة في إحداث بعض المضاعفات. لكن هذا ليس بالشيء الجديد؛ ففي بداية أية علاقة تكون هناك سعادة كاملة، ويكأنك تعيش في الجنة، الأمر الذي يساعد على تحفيز الإندروفين، هرمون السعادة، في الدماغ. عندئذ لا يسير الشخص كبقية البشر وإنما يطير فوق السحاب. ثم تبدأ الدراما بعد ذلك.

خاف أندرية من اللوم والفضيحة؛ لأنه ببساطة لم يكن لديه القوة والوقت الكافيين للتعامل مع هذا. كانت أيامه مكتظة بالأعمال، وليس هناك مكان خالٍ في رأسه. لذلك كان عليه اتخاذ القرارات الصعبة، ولا يُسمح بارتكاب الأخطاء في هذا. فبناء العمل شيء شاق وصعب، أما فقدانه فشيء في منتهى السهولة.

وكانت أصعب اللحظات بالنسبة إلى نادية تلك التي تكون عقب الليالي الساخنة، عندما يقوم أندرية بوضع رجليه على الأرض ويشرع في ارتداء ملابسه من أجل الرحيل. وكان هذا يشبه السيارة التي تُفرمل فجأة وهي في سرعتها القصوى فيتطاير الركاب ويصطدمون بالزجاج. لقد كانت نادية تعاني بشدة خلال تلك اللحظات. ولكن هذا لن يحدث بعد الآن.

لأن اليوم ستقوم نادية خلسة بوضع صورة عائلية في جيب السترة التي يرتديها أندرية، صورة لنادية وأندرية ولوكا. يظهر فيها أندرية سعيدًا مبتسمًا، ونادية، التي تفهم كل شيء، تبدو مثل الجيشا اليابانية، أما لوكا

فينظـر إلى العدسـة دون أن ترتسـم أي تعبيرات على وجهه. كانـت جريتا قد التقطت هذه الصورة على حين غرة ثم أرسلتها بالبريد إلى نادية.

وفي خلفيـة الصورة يقبع منـزل ذو لوحة ألمانية، تُظهر أنـه يوجد في الخارج. صورة تشير إلى زوجين سعيدين وطفل رضيع.

علقت نادية آمالها على أن الزوجة سـتعثر على هذه الصورة. وسينكشـف الخـداع، وتذيـع الفضيحـة، وسـيُخير أندرية بينهمـا. فيختار نادية ولوكا؛ لأنهما شخصان، أما زوجته فشخص واحد.

تحققت الخطة، ولكن بشكل جزئي؛ رأت سفيتلانا الصورة، عندما أرادت إرسـال سـترة أندريـة إلى التنظيف الجاف، وقامـت بتفريغ الجيـوب، وصادفت الصورة في وجهها، فأخذت تفكر. امرأة تشبه اليابانيات وطفل ما يزال صغيرًا يشـبه تلـك المرأة. وأندرية سـعيد إلى حد ما وكأنه غارق في السـكر، وربما كان هذا حقيقيًا. ذهبت سـفيتلانا إلى أندرية الذي كان يحتسي كوبًا من القهوة ووضعت الصورة أمامه قائلة:

ـ من هؤلاء؟

ـ معارف.

ثـم أقصى أندرية كوب القهوة عنه، وارتدى سـترة أخرى. ولمَ لا وهو يمتلك عددًا كبيرًا من السترات كانت تشغل جزءًا كاملًا في خزانة الملابس الخاصة به. ولكن لاحقته سفيتلانا وسألته:

ـ وأين هذا؟

ـ في جينيف.

فهمت الزوجة أن أندرية يذهب كثيرًا إلى سويسرا من أجل العمل أو لعلاج أسنانه؛ فطبيب الأسنان الخاص به كان يعيش في جينيف.

ـ هل يمكنني أن أرميها.

ـ كما تريدين.

قامت سفيتلانا في الحال بتقطيع الصورة إلى أربعة أجزاء ووضعتهم في سلة المهملات، ولم تشتبه في أي شيء. وخاصة أن أندرية لا يستطيع الإنجاب، وبالتالي هذا ابن السيدة اليابانية؛ ويعني هذا أنها متزوجة وأنها أنجبت ذلك الطفل منذ فترة قصيرة. ودائمًا ما يلتف الناس حول أندرية مثل البرغش، ويرددون كلمة واحدة «أعطيني .. أعطيني» . ولا أحد منهم يقول: «خذ».

كانت سفيتلانا اليد اليمنى لأندرية في العمل. وهذا ليس غريبًا، لأن صاحب العمل دائمًا ما يبحث عن أقرب شخص إليه حتى يمنحه ثقته. فأدرك أنه من المستحيل خداع زوجته، وبالتأكيد لن يقوم بإدخال نفسه إلى مكان لن يستطيع الخروج منه، لا سيما أنها تستشف ما بداخل الشخص، وتستطيع أن تفرق بين الصديق والعدو، وتتمكن من استقبال الضربات ومن ثم ردها بكل قوة. كما تتوقع جيدًا مثل لاعب الشطرنج الماهر. ويمكنها المجازفة بجنون. أندرية دون سفيتلانا مثل الشخص مقطوع الأيدي؛ لا يستطيع العيش من دونها، وهو لا يريد هذا ولن يحدث، لماذا؟ لأن القدر يحقق ما يشاءه. لقد سقطت عليه من الأعلى. وقال الخالق: «أمسك» وقد أرسل إليه سفيتلانا، وبالفعل أخذها أندرية، وضمها إلى صدره ولم يفلتها. ولم يسمح لها بالرحيل. سفيتلانا مثل مؤخرة الجيش التي يثق فيها، وتثق هي فيه.

أما نادية فهي أمر آخر تمامًا؛ هي مجرد مادة مخدرة قام أندرية بإدمانها. لذلك لا يستطيع التخلي عنها. ولم يسبق له أن وضعها بجانب زوجته، أو قارن بينهما؛ لأن كل امرأة منهما تؤدي دورًا منفصلاً في سمفونية الحياة. سفيتلانا تؤدي

الـدور الرئيـس، ونادية تؤدي الـدور الثانوي. مثـل الزوجة الصغيرة في الأسـرة المسـلمة؛ فعدد الزوجات في العالم الإسلامي خير دليل على أن الأموال تفعل ما ترفضه الأخلاقيات.

لكن نادية ليست امرأة مسلمة. لهذا أرادت أن تصبح الزوجة الوحيدة وليست الزوجة الثانية.

لم تجـد الصورة نفعًا. تمثيلية وضيعة. لهـذا يجب أن تكون الضربة التالية أكثر قوة و فاعلية. لكن أية ضربة؟

أدركت نادية أنها إذا لم تتصرف سـريعًا، سـيغرق كل شيء، مثلما تغرق العربة في المسـتنقع. وقد علقت آمالًا كبيرة على أن تصبح العشيقة الأبدية لأندرية. والوقت بالتأكيد ليس في صالحها؛ فبعد عشر سنوات ستتحول نادية إلى عمة حقودة تبلغ أربعين عامًا، ولا تفعل شـيئًا سـوى المشاجرة والإلحاح في طلب الأشياء.

ثـمـة طريقتان للنجـاة، إما القفز من العربة والاستسـلام، وإما إخراج العربة بأيـة طريقـة من المسـتنقع. لكـن كيف؟ ربمـا بإغاظـة سـفيتلانا وإثارة غضبها، الأمر الذي سـيدفعها إلى هجر أندرية، الذي سيصبح آنذاك حرًا طليقًا. وسيتغير الوضع تمامًا.

كانـت نادية تعرف المكان الـذي يعمل فيه أندرية، لأنه أخبرها به من قبل خلال سيرهما بالسيارة.

جلسـت نادية في سـيارتها، وجلس لـوكا في الخلف علـى مقعد خاص، ثم تحركت نادية إلى مكان العمل ميممة وجهها شطر مكتب أندرية، والهدف مـن ذلـك غير مفهوم. مـع أن الهـدف النهائي واضـح كل الوضـوح: الذهاب إلى أندريـة وأخذه من يده واصطحابه إلى المنزل؛ فضيحة محتملة. لكن الفضيحة

تشبه المشرط؛ تفتح الدُمَل، فيخرج الكذب إلى الخارج. وفي البداية سيكون الأمر مؤلمًا، لكنه سرعان ما سيهدأ.

قامت نادية بأخذ لوكا معها كونه دليلًا قاطعًا على كلامها ووسيلة من وسائل الضغط. وكان لوكا قد كبر قليلًا، فأصبح ذا بشرة بيضاء، وشعر مجعد، وعينين ثابتتين لا تتحركان. ولقد أحبت نادية ابنها لوكا من صميم قلبها، الذي كان يضمر، في الوقت نفسه، من الكراهية إلى سفيتلانا ما لا حد له. وهكذا انقسم قلب نادية بين كراهية وحب.

توقفت السيارة بالقرب من المبنى المُشيد على الطراز القديم، والمزين بإحدى اللافتات المنمقة فوق مدخله.

ترجلت نادية عن سيارتها وسحبت لوكا معها، ثم ذهبت إلى المبنى. وهناك اعترضها الحارس قائلًا:

- من تريدين؟

- أندرية خنيكين بيتروفيتش.

- هل يعرف أنكِ ستأتين؟

- نعم، إنه ينتظرني.

كذبت عليه. لكن الحارس صدقها وسمح لها بالدخول. وهناك لاحظت نادية أن المكان نظيف ومنظم ومنمق تمامًا مثلما يوجد في ألمانيا. وعند الركن الأيمن يوجد بار صغير، وبعض المقاعد الخشبية.

جلست نادية. وطلبت كوبًا من القهوة. ومنحت لوكا قطعة من البسكويت أخذ يذيبها داخل فمه. وهنا ظهرت سفيتلانا داخل المكتب، وأخذت تقترب من السُلم. ثم أدارت رأسها إلى نادية، التي كان وجهها مألوفًا إلى حد ما بالنسبة

إليها؛ لأنها رأته مؤخرًا في تلك الصورة. لكن الطفل لا يشبه نظيره هناك، ربما لأن شكل الأطفال يتغير سريعًا. أو يحتمل أن هناك أكثر من طفل.

انتظرت سفيتلانا حتى تقابلت الأعين. وسألت:

ـ هل تريدين أندرية ؟ حسنًا، سأخبره حالًا.

وغادرت. ولم تشك في أي شيء البتة.

هبط أندرية إلى الأسفل. وشاهدهما، فتهلل وجهه، وشعر بالسعادة.

اقترب منهما وجلس بالجوار. ثم أخذ لوكا من يده. قبل أن يقوم عامل البار بإحضار القهوة.

نظر أندرية إلى نادية وسألها:

ـ هل حدث شيء ما؟ شيء طارئ لا يحتمل الانتظار؟

ولم يطرق ذهنه أن نادية كانت تخطط لفضيحة كبيرة.

ـ أريد أن أطلب منك طلبًا، أحتاج إلى بعض العمال المهرة من أجل صيانة الشقة.

فأخرج أندرية الهاتف من جيبه، واتصل بالرقم المناسب، وسأل:

ـ متى سيفرغ العمال من أعمالهم؟

أغلق أندرية الهاتف ثم نظر ببراءة إلى نادية قائلًا:

ـ اليوغسلاف هم الأفضل. لكنهم سيكلفونكِ الكثير. وإذا كُنتِ تريدين عمالة رخيصة، فعليك بالأوكرانيين. لكن عليكِ أن تعرفي أنهم يشربون الكحوليات.

ـ هل ستدفع ؟

لم تُثار الفضيحة التي خططت لها نادية. والأمر الآن يتعلق بالأموال.

ـ لقد دفعت بالفعل.

ـ يا لك من شخص عملي.

ـ حسنًا، هذا صحيح.

نظر أندرية باهتمام إلى نادية، كما لو أنه يمارس معها عملية التنويم المغناطيسي. وفي واقع الأمر، لقد قال، ذات مرة، إلى نادية إنه متزوج، ولم يقطع على نفسه وعدًا بفعل أي شيء. ومع ذلك رأت نادية أن على أندرية أن يتقدم قليلًا في العلاقة إذا كان يحبها بالفعل. لأنه لم يتخذ حتى الآن سوى خطوة واحدة.

ـ حسنًا. سأغادر الآن.

كانت نادية ترغب في البكاء، ولكن منعها الكبرياء. نظر أندرية إليها وتحدث في هدوء تام مثل مقدم البرامج عندما تحين نهاية البرنامج:

ـ إلى لقاء قريب.

قامت نادية بإنزال لوكا من على يدها. وخرجت إلى سيارتها. وقد ساعدها الحارس في ذلك. وأمسك بالطفل.

التفتت نادية وراءها، فرأت رأس سفيتلانا في النافذة، وكأنها صورة في إطار. امرأة بسيطة مثل نبات الأقحوان عندما يوضع في الزاوية. بماذا تمتاز تلك المرأة عن نادية؟ بلا شيء. فقط ظهرت في حياة أندرية قبل ظهور نادية.

عادت نادية إلى المنزل وعلى وجهها شيء من الذهول، الذي راح يتلاشى شيئًا فشيئًا. ثم حل الحنق محله، وفتلها مثل جديلة الشعر. لماذا كل هذا الظلم؟ لماذا يجب على نادية أن يجن جنونها وتتكبد المتاعب، في حين تعيش سفيتلانا حياة طبيعية هادئة؟

وبعد مرور بعض الوقت التقطت نادية سماعة الهاتف وأدارت رقم أندرية في العمل. فرد عليها صوت أنثوي. فقالت:

ـ أريد أن أتحدث إلى أندرية بيتروفيتش.

ـ ليس هنا. هل تريدين ترك رسالة له؟

ـ نعم، أخبريه أن حبيبته قد اتصلت.

ـ ما اسمك؟

ـ هو يعرف.

ـ حسنًا، سأفعل.

و بدأ الصفير يصدر عن سماعة الهاتف .

قامت سفيتلانا بوضع السماعة وجلست أمام الحاسوب. لم ترد التفكير في شيء يغضبها. وقد أخذت في عين الاعتبار أن أندرية شخص جذاب، تجري النساء وراءه، خاصة غير المتعجرفات. فهو لم يسعَ يومًا إلى البحث عن النساء أو الاعتناء بهن. كان فقط يتعرف إلى من يقع بين يديه. ولم تكن سفيتلانا راضية عن هذا، إلا أنها تعرف جيدًا أن أندرية لن يتركها ويذهب إلى أي مكان. حتى وإن وقع في حب امرأة أخرى ورحل، فإنه سيعود سريعًا. وهذا ما حدث بالفعل. ربما لأن القدر يأتي إلى الإنسان في لحظات ولادته، مثل شهادة الميلاد؛ أمر لا يستطيع الإنسان تغييره. وإذا أراد الشخص ذلك عليه أن يموت ثم

يولد مرة أخرى، بشهادة مختلفة. و ربما شيء آخر، وهو أن شخصية سفيتلانا تتوافق بشكل كامل مع شخصية أندرية، مثل المفتاح والقفل، الذي صُنع بمهارة تجعله لا يُفتح أو يُغلق إلا باستخدام هذا المفتاح.

ومع ذلك أثار اتصال نادية الغضب لدى سفيتلانا. فعار على أندرية أن يسمح لهؤلاء النساء بالدخول إلى حياته؛ لأنهن يتصلن بالزوجة. وهذا انتهاك للقانون غير المدون. ففهمت سفيتلانا على الفور أن تلك اليابانية لم تأتِ من حياة جيدة. وهذا يعني أن أندرية يُكابر ولا يكبح جماح نفسه. الزوجة تشد والزوج يقاوم. وبهذا الشكل أصبح كل شيء واضحًا؛ تريد المرأة اليابانية أن تغضبها. وهذا يعني أن مهمة سفيتلانا تكمن في عدم الشعور بالغضب أو القيام بأي تصرفات انفعالية.

كانت سفيتلانا ترى في أندرية الزوج والابن في الوقت نفسه؛ لأنها حُرمت نعمة الأبناء. وقد رأت أن أندرية مُنظم قوي، لكنه مع ذلك وحش ضعيف. يقف المتنافسون على أهبة الاستعداد، كالذئاب، ينتظرون اللحظة المناسبة، وعندما يشعرون أن هناك شخص ضعيف، يغيرون عليه، ويهاجمونه ويلتهمونه بشراسة. لذلك يجب على أندرية ألا يكون ضعيفًا. ولن يحدث هذا ما دامت سفيتلانا تشد عضده. أما تلك المرأة اليابانية فلا تهدد العمل فقط، وإنما تهدد حالة التوازن ككل.

انتهى وقت العمل. فقامت سفيتلانا عن الحاسوب، ثم ارتدت ملابسها وعادت إلى المنزل.

وعلى غير الطبيعي عاد أندرية مبكرًا في هذا اليوم إلى المنزل، ولم يكن يشعر بالجوع كالعادة؛ لأنه في الفترة الأخيرة كان يُجري مقابلات العمل في المطاعم، تمامًا مثلما يفعلون في الغرب. نظرت إليه سفيتلانا وطلبت منه أن يتخذ مجلسًا. وبالفعل جلس أندرية على المقعد، وأخذ ينظر بسرور إلى زوجته. فلطالما كان يحب طريقة ارتدائها للملابس الثمينة والمحتشمة، التي

لم تكن واضحة عليها، في حين أن ملابس نادية الأنيقة كانت أكثر أهمية من نادية نفسها. ثم سألت سفيتلانا بصورة مباشرة:

ـ هل دخلت في علاقة معها؟

ـ شيء من هذا القبيل.

ـ ولمن هذا الطفل؟

ـ لنا.

ـ يعني هذا أنها السيدة العذراء.

ـ لماذا؟

ـ لأنها تلد من حمل طاهر. وهذا يعني أيضًا أنك يوسف النجار؟

صمت أندرية؛ لأنه من الصعب عليه أن يجادل في مثل هذا الموضوع.

ـ إذا أردت أن ترحل، فلترحل، لن أمنعك.

ظل أندرية صامتًا لا ينبس بكلمة واحدة.

ـ لكن يمكنك العودة حينما ترغب في ذلك. سأكون دائمًا في انتظارك.

ـ لقد عدتّ بالفعل.

ـ إلى الأبد؟

وكان هذا هو السؤال الأهم في الحوار؛ لأن سفيتلانا لن تسمح لزوجها بأن يذهب إلى هنا أو هناك و يحول حياتها إلى مقلب قمامة، الأمر الذي سعت نادية إلى فعله. فرد أندرية قائلًا:

ـ إلى الأبد.

وبعد انتهاء هذا الحوار قامت سفيتلانا مع أندرية بتحديد يوم من أجل الذهاب إلى الكنيسة.

ذهبت سفيتلانا إلى الكاهن الذي كانت تعتاد الذهاب إليه، وهو الأب مايكل، الذي كان يُدعى ميشا في الماضي، ويعمل في صيانة الآلات. ثم حدث شيء ما في حياته، لم يسبق له أن أخبر أحدًا عنه. على أية حال أصبح ميشا شخصًا مختلفًا تمامًا، تحول إلى الأب مايكل، الذي اتسم بالصوت الهادئ والنظرات اللامعة، مثلما يتسم المؤمنون دائمًا. وفي الوقت نفسه كان أحد الأصدقاء المقربين في حياة أندرية، لذلك كانا يفهمان بعضهما بعضًا بشكل جيد.

التفت الأب مايكل إليهما وقال:

ـ اعقدا إكليل الزواج ! لأن الزواج الكنائسي يساعد على تقوية الروح و يُخلصها من الوسوسة، التي يقوم بها الشيطان، فهو لا يرى سوى الأشخاص الضعفاء.

تَكلل أندرية وسفيتلانا، وأُضيئت الشموع، وأخذت كلمات الأب مايكل تمس القلب مباشرة. وقد تيقن أندرية بشكل كامل أنه خضع للشيطان المتجسد في صورة نادية. أما الآن فقد زالت الغشاوة عن عينيه، وسيعيش بصيرًا، وليس كفيفًا. لن يهرع مجددًا وراء مشاعره، وسيستخدم عقله وضميره، ومن ثم سينصاع لأوامر ربه.

بينما كانت السماء ملبدة بالغيوم، خرجا من الكنسية، فقال أندرية:

ـ بالتشينا.

هكـذا كان الوالد القروي يطلق على الغيـوم. وهو يعيش حتى وقتنا هذا بصحبـة زوجته في القرية، بعدما رفضا النـزوح إلى المدينة، مع أن ابنهما الثري كان بإمكانه تهيئة الظروف لهما. لكن الوالد يقول دائمًا:

ـ لا أريد الذهاب إلى المدينة. لأنني أحب التبول على الأرض.

والحقيقـة أن التبول على الأرض شـيء مختلف تمامًا عـن التخبط في حمام ضيق. فضلًا عن أن الأرض تمنح طاقتها للإنسان.

والوالـد، مثـل «عنتي»؛ يسـتمد قوتـه مـن الأرض. أمـا الوالدة فامـرأة صبور وذكيـة تمامًـا مثل سـفيتلانا، التي كانت تشـبهها حتى في المظهـر. والعقل صديق جيد في الطرقات. أما الحماقة والغطرسة فتشكل عائقًا قويًا يصطدم به المرء ثم يتجاوزه. فالطريق الطويل يحتاج إلى رفيق طيب وكيِّس.

كانت الكنيسـة واقعـة في أرض مرتفعة في ضواحي موسـكو. يحدها مـن اليسـار مدينة، ومن اليمـين تلال وغابات. والسـماء فـوق كل هذا ملبدة بالبالتشينا.

ذهب أندرية وتوارى خلف الأشـجار وقـام بالتبول على الأرض. وقد أدرك فجأة من أعماق قلبه أنه شخص قروي بصرف النظر عن الأعمال التي يقوم بها والأموال والسترات التي يمتلكها في دولابه.

عاد أندرية إلى سفيتلانا وأخذها من يدها وهو واثق كل الثقة أن سفيتلانا تفكـر الآن فيما يُفكر فيه. لأنهما في النهاية شـخص واحد في الروح والدم. زوج وزوجـة حتى نهايـة الحياة. وقد صـدق مكتب الزواج والكنيسـة على ذلك، كذلك الأرض والسماء.

عـادا إلى البيت هادئين مسـالمين لا يريـدان الاتصال بأحد أو الكشـف عما حـدث. وقد رغبـا في الحفاظ على الارتقاء الروحي الـذي وصلا إليه، والاحتفاظ بما حدث لأنفسهما. فالشيء الذي يحدث بينهما، لا يجب أن يخرج عن دائرتهما الخاصة.

أدركت نادية أن أندرية قام بالتخلي عنها، ولم تواجه صعوبة في ذلك؛ لأنه قام على حين غرة بتغيير أرقام هواتفه، وأمر الحارس بمنعها من الدخول إلى المكتب، الذي كانت تعرج عليه أحيانًا، فيقف أمامها الحارس ولا يسمح لها بالدخول. فكانت تخرج ورقة من فئة المئة دولار حتى تعطيها إليه، لكنه يمتنع عن أخذها أيضًا. كان حارسًا حازمًا لا يلين تمامًا مثل «أبو الهول»؛ لا يمكنك الدخول في مشاجرة معه.

رجعت نادية إلى المنزل. ثم ألقت بنفسها على الفراش. لقد سقطت في حفرة من الكآبة. ولم يكن الغضب سوى شعور وحالة نشطة. أما الآن فقد غاب كل شيء ولم يصبح هناك رغبة ولو صغيرة في العيش. وبعد ذلك تذكرت طفولتها التي قضتها من دون الأم، وشوقها الحار إليها. وتذكرت جونتر، الذي ألقى بها في الشارع، في بلاد غريبة، من دون أي نقود. تذكرت كيف كانت تجلس في القطار مثل المرأة الشريدة، تريد الذهاب إلى أي مكان يأويها. و يجلس أمامها رجلان ذوا عيون زرقاء، كانت قد صادفتهما في المحطة، فأخذاها ولم يعرفا بعد ذلك كيف سيخلصان أنفسهما منها. كما أن جان ماري لم يكن يعرف كيف سيخلص نفسه منها. والآن الأمر يسري أيضًا على أندرية، لكنه عرف كيف يتصرف؛ قام بتغيير أرقام هواتفه، وعزز الحراسة في أماكن وجوده، وكأنه يتعامل مع عدو خطير.

فهمت نادية أنها تقوم بتعكير الأجواء، وفي حالة دخولها إلى القبر سيتنفس الجميع الصعداء. باستثناء الأطفال، الذين سيضطرون إلى البقاء مع كسينيا. وسيحملون جينات الأم في المستقبل، وبهذا لن يجور الزمان على نادية، التي أخذت تمعن في التفكير محدثة نفسها: ما أسهل طريقة للخروج من هذه الحياة؟ الانتحار بالأقراص المنومة، على سبيل المثال، وستكون هذه الطريقة أقل ألمًا وغرابة. فقط ستدخل في سبات عميق، وينتهي الأمر. إلا أن الأقراص المنومة تتطلب الذهاب إلى الصيدلية. وهي لا تريد النهوض من السرير من الأساس. ولم يكن لديها القوة الكافية للتحرك أو التفوه بكلمة واحدة.

وهي كذلك لا تريد التطلع إلى وجوه الناس، لأن الفناطيس هنا في كل مكان.

استغل لوكا ثبات الأم وعدم حركتها وأخذ يزحف عليها ويريل على وجهها. لمسة رطبة لملاك من الملائكة، مياه الحياة. وفي حياة نادية كلها هناك شخص واحد يتعاطف معها وهي الخادمة تانيا التي عز عليها أن تظل نادية تجلس هكذا من دون طعام أو شراب، فانفطر قلبها من الشفقة عليها. وقالت لها ذات مرة:

ـ أنتِ تحتاجين الذهاب إلى مكان ما، تُحسنين فيه حالتك المزاجية، وتشاهدين أماكن أخرى.

تشبثت نادية بالمغزى الذي استشفته من كلمات تانيا. بالفعل، لديها خياران، أولهما الانتحار بالسم ومن ثم الوفاة الأمر الذي سيعد وكأنه هدية ثمينة إلى سفيتلانا. التي ستشرع في شرب الخمر مع أندرية ثم يذهبان سويًا إلى الفراش. ويمارسان العلاقات الحميمة ببطء وحزن. والخيار الآخر هو الذهاب إلى باريس، والتنزه في أنحاء المدينة، الأمر الذي سيجعل تفكيرها الحزين يتبعثر مع الرياح؛ أو الجلوس في مقهى من المقاهي مع كارينا، والنظر إلى وكالة التعارف، فربما يعرج هناك شخص فرنسي ثري، أو حتى فقير.

كل ما عليها فعله هو النهوض من السرير والتقدم للحصول على تأشيرة ثم شراء التذكرة. بالمناسبة، يوجد فناطيس أيضًا في فرنسا، لكنها على الأقل ستكون على الطراز الفرنسي.

وفي باريس قامت كارينا بإيواء نادية في شقتها الصغيرة التي كانت تمتلكها في وسط المدينة، ولم تكن تلك الشقة تختلف كثيرًا عن الأستوديو، وخاصة بالنسبة إلى الضيوف. لأن كارينا لا تحب جذب الضيوف إلى أسرتها، التي تراها مثل المذبح الذي يجب ألا يدخله شخص غريب.

فتحت كارينا الثلاجة وأحضرت النبيذ والمكسرات. وكانت هذه الأشياء تُسمى بـ «ملاطفات الفم».

حكت نادية عن حياتها وأسدلت الستار على كل شيء. وهذه هي الفائدة من الحديث. سألتها كارينا:

ـ وهل تحبينه؟

ـ من؟ الطفل أم أندرية؟

ـ أندرية، بالتأكيد.

نظرت نادية بحزن إلى الأمام، وكأنها ترى نفسها في المستقبل. فقالت:

ـ أعشقه، إنه الرجل الوحيد في حياتي. أتمنى أن أكون معه وفقًا للشروط التي أضعها. أريد أن أتزوجه.

ـ وهل يا ترى إذا كان سباكًا، كنتِ ستجرين وراءه هكذا؟

ـ بالتأكيد.

لم تقدر نادية على تخيل حياتها من دون أندرية، أو تخيل حياة أندرية من دونها.

أحست كارينا بالغيرة؛ لأنها أيضًا في حاجة إلى مثل هذه المشاعر الهائجة، على الرغم من استقرار حياتها ورفاهيتها.

أحد الأنشطة المفضلة؛ التسوق.

كانت نادية تشتري الهدايا من متجر «تاتي» الذي لا يمتاز عن معرض «كونكوفو» في شيء. وتشتري لنفسها الأشياء من متجر «غاليري لافاييت»، حيث يمكنك الحصول على منتجات ذات جودة عالية وبأسعار مناسبة أقل من

المنتجات المباعة في المتاجر المشهورة، حيث يمكنك شراء المنتج بثلاثة أضعافه من أجل الاسم فقط. وكانت نادية تذهب إلى تلك المتاجر أيضًا، لكن من أجل المشاهدة فقط. وهناك كانت البائعات تبتسم لها بحفاوة وترحيب، ويكأنهن يجلسن في انتظارها منذ الصباح الباكر.

وفي مرة من المرات عرجت نادية على متجر «بالي» ورأت ليفا روبينشيك، الذي كان يشتري حقيبة نسائية كبيرة الحجم مصنوعة من الجلد الناعم ومزودة برباط من الجلد أيضًا؛ أحدث صيحات الموضة آنذاك. فاقتربت منه نادية وفاجأته:

ـ أتشتري الملابس لزوجتك؟

أدار ليفا رأسه. وقد ارتفع حاجبيه حتى وصلا إلى أعلى جبهته:

ـ هذا مضحك، نحن لا نتقابل إلا في المتاجر.

ـ لا يمكن تغيير مكان اللقاء.

ـ لا أوافقكِ الرأي. إذا أردت رؤية الروس، فعليكِ الذهاب إلى متجر «تاتي». لأن الفرنسيين لا يذهبون إلى هناك.

ـ لست في حاجة هنا إلى الروس؛ لأنني سأعود خلال أسبوع إلى موسكو. وهناك لن أرى سواهم.

ذهبت نادية بصحبة ليفا إلى أحد المقاهي. وطلبا حساء البصل، وقد شددا على وصوله ساخنًا.

قال ليفا إنه يعيش، كسابق عهده، في ألمانيا. والزوجة ما تزال حتى هذه اللحظة في موسكو. وإنه يملك هنا في باريس عمله الخاص وهو معرض فني بمشاركة جان ماري. وأضاف أن عملية الحصول على الصور أصبحت صعبة للغاية. فالروس يصبون غضبهم على الجمارك. والقوانين لا تُنجز الأمور مثلما

تفعل الأموال. لقد تدهور حال الأمة. فسألته نادية:

ـ هل جان ماري مستمر في ممارسته للقمار؟

ـ كل شيء كما كان من قبل. على الرغم من أنه لاعب، فإن عقله يزن بلدًا كاملًا؛ فهو لا يتمتع برأس عادي، وإنما بجهاز حاسوب.

ـ هل عادت زوجته؟

ـ لا أدري. لا أطرح عليه الأسئلة الشخصية. فهذا ليس مقبولًا في الغرب.

ـ وهل سيتذكرني إذا رآني؟

ـ ربما، فهو لا يعاني من الزهايمر.

قام النادل بإحضار الحساء في وعاء كبير. فأخذا يأكلان في صمت لبعض الوقت. ثم نظر ليفا إليها قائلًا:

ـ أنا سعيد للغاية لأنني صادفتك. لقد أرسلكِ الله إلي.

ـ لماذا؟

ـ ستعطي بعض الأموال إلى زوجتي؛ لقد تعدوا عليها. ويجب تحويل الأموال حالًا إلى موسكو.

ـ أموال كثيرة؟

ـ مئة وخمسون ألف .

ـ بأية عملة؟

ـ ما هذا السؤال؟

ـ سؤال طبيعي. نحن في باريس وهنا يتعاملون بالفرنك، وفي ألمانيا يتعاملون بالمارك.

ـ من يحتاج إلى الفرنك في موسكو؟ بالطبع ستكون بالدولار، سأضعهم في هذه الحقيبة. وستعطيها إلى زوجتي. هل تستصعبين الأمر؟

ـ فقط اصطحبني إلى المطار، لأن المشاكل تظهر عند الرحيل.

ـ لا تقلقي. كل شيء هنا تحت السيطرة، هذه ليست المرة الأولى التي أقوم فيها بنقل الأموال.

ـ ومن اعتدى عليها؟

ـ الأوغاد. لا يستطيعون الانتظار شهرًا واحدًا؛ لأنهم لا يصدقون. لقد تدهور الحال في البلاد. لا يُصدق أحد أحدًا ، لأنهم جميعهم يكذبون.

ـ وهل أسلمها الحقيبة أيضًا؟

نظر إليها ليفا بشكل يدل على عدم الفهم. فكررت نادية:

ـ أسلمها إياها أم أتركها عندي؟

فهم ليفا أن الحقيبة التي قام بشرائها من متجر « بالي» ستكون مقابلًا لتلك الخدمة؛ حقيبة ثمينة، لكن الخدمة ليست هينة أيضًا.

ـ حسنًا، خذيها.

خرجا من المقهى وتوجها إلى الفندق الذي ينزل فيه ليفا. والفندق أربعة نجوم، ومع ذلك كانت الغرفة صغيرة للغاية. تتسع بالكاد لسرير عريض وثلاجة صغيرة في الزاوية. وهذا يعني أن الفرنسيين يعطون أهمية أكبر للنوم والجنس، مثل الطعام والنبيذ. يبدو أن الفرنسيين يعرفون جيدًا كيف

يحبون أنفسهم.

أخرج ليفا النقود من الخزانة. ووضعها في الحقيبة الجديدة قائلًا:

ـ سوف اصطحبكِ إلى الطائرة. فقط أخبريني برقم الرحلة وموعد إقلاعها.

أحست نادية بتوتر ليفا. فخمنت أنه يشعر بالحزن لأنها ستأخذ الحقيبة، التي اشتراها من متجر «بالي»، لهذا أرادت تهدئته؛ فخلعت ملابسها واستلقت على السرير. فكر ليفا قليلًا ثم خلع هو أيضًا ملابسه ونام بجوارها. ولكن لسبب ما لم يأخذ زمام المبادرة. اكتفى بالاستلقاء ولم يفعل شيئًا، لقد قام شيء ما، مثل المكابح بإعاقته.

وكانت هذه المكابح تتمثل في نادية، التي مس جسدها هالة غريبة؛ أمر جعل روحها لا تستقبل أية إشارات قادمة من شخص غريب. يبدو أن أندرية قد نجح في السيطرة على جسدها وروحها وعقلها.

هبت نادية سريعًا من السرير وقامت بارتداء ملابسها. وكأنها ستتأخر على موعد في غاية الأهمية. التفت إليها ليفا قائلًا:

ـ ماذا بكِ؟

ـ أنا أحب شخصًا آخر. ولا أستطيع خيانته.

ـ لن تخونيه. ستظلين كما أنتِ، فقط سنقضي بعض الوقت.

ـ لا أستطيع.

كانت روح نادية ممتلئة عن آخرها بحب أندرية، تمامًا مثل الكوب الممتلئ بالماء، ولا يمكنه الاتساع لشيء آخر.

وبعد ذلك قام ليفا باصطحاب نادية إلى المطار. وقد دبر كل شيء، فاتضح

أن الأمر لا يكمن في الدولة بقدر ما يكمن في حجم الرشوة.

أقلعت الطائرة بأمان، ثم هبطت بهدوء على أرض الوطن.

وفي مكتب الجمارك سارت نادية على ممر أخضر. قبل أن يسألها ضابط الجمارك قائلًا:

- هل تحملين معكِ أية عملات أجنبية ؟

- بالطبع لا.

ابتسمت نادية ابتسامة خفيفة ولم تُسهب في إجابتها. وكان المساء قد حل، فبدأ ضباط الجمارك يشعرون بالإرهاق، وبالتالي لم يولوا الأمر اهتمامًا. لا سيما أن حمل الأموال أمر غير محظور.

وكانت كسينيا في انتظار نادية، ترتدي قطع أنيقة من الملابس المعطرة، وتتمتع بحالة مزاجية عالية، وما إن تقابلا حتى أخذت الأم تحكي لابنتها عن أحوالها وهي تشعر بسعادة غامرة. فقاطعتها الابنة قائلة:

- وكيف حال الأطفال؟

فانتقلت كسينيا بسرور إلى الحديث عن الأطفال قائلة إن ماشا تغير من لوكا وتضربه باللكمات، التي لا تختلف كثيرًا عن حبات الحصى.

- وهل يرد لوكا اللكمات؟

- لا. فقط يبكي وينتحب، تمامًا مثل الفيل، وينتظر أن يقوم أحد بعقابها.

توترت نادية قليلًا وطرحت عليها سؤالًا محوريًا:

- هل كنتم تتصلون بي؟

ـ لا. لا أتذكر، لا، ربما.

يبدو أن كسينيا لا تتذكر، ولا تولي اهتمامًا حتى إلى أن إجابتها ستكون مهمة بالنسبة إلى نادية، التي لم تكن تستمع كذلك إلى ابنتها ماشا، التي، يبدو أنها ستشعر بالغيرة وستنتقم بلكماتها الصغيرة ومن ثم تسترجع العدالة التي لم تكن موجودة من الأساس.

وما إن دلفت نادية إلى البيت حتى التقطت سماعة التليفون وأدارت الرقم الخاص بزوجة ليفا، لكن لم يكن هناك رد. فاقترحت خاصية الرد الآلى أن تقوم نادية بترك رسالتها بعد سماع الصفارة. ولكن بالتأكيد لن تتحدث نادية عن مئة وخمسين ألف دولار في خاصية الرد الآلي. فربما يكون هناك شخص يتنصت على المكالمة؛ ولهذا اتخذت قرارًا بالاتصال في اليوم التالي، الذي دوى صوت التليفون في صباحه، فإذا ببوريس يقول إن هناك شقة رائعة للغاية. لكن نادية لم تكن تفهم شيئًا:

ـ وما حاجتي إليها؟

ـ ستعرفين عندما تذهبين إلى هناك. يجب ألا نحكم على الأشياء حتى نراها بأعيننا.

وبالفعل ذهبا إلى عنوان الشقة المذكورة؛ عمارة على الطراز الستاليني يبلغ عمرها خمسين عامًا، وعندئذ كانت تلك المنطقة في ضواحي المدينة. أما الآن فهي منطقة راقية لا تبعد كثيرًا عن محطة مترو «أونيفيرسيتيت». ويوجد أمام العمارة غطاء نباتي كبير مثلما يوجد في الحكايات الخرافية، أما في الوسط فهناك شجرة بلوط عملاقة، فكان الغطاء النباتي يتداخل مع شجرة البلوط في المنظر الداخلي للمنطقة.

دخلت نادية الغرفة الكبيرة، فإذا بالزرع ملاصق للزجاج، وكأنه صورة في إطار. وكان هذا ذكاءً من هؤلاء الأشخاص الذين قاموا ببناء تلك العمارة.

وكانت شجرة البلوط الرائعة هي مركز البناء، كما لو كانت تنتمي إلى نادية شخصيًا. أمر جعل عينا نادية تتسع وتقول:

- أريد هذه الشقة.

وبالإضافة إلى ذلك تتمتع الشقة بموقع ممتاز، ومساحة كبيرة للغاية وجدران سميكة، وأبواب مرتفعة. ولن نخطئ إذا قلنا إن هذه الشقة من بقايا الحياة السابقة التي ذهبت من غير رجعة.

وكان بوريس قد أخبر نادية أن الشقة كانت لعالم كبير، لكنه مات. والورثة الآن يقومون بتقسيم الميراث. فالتبس الأمر على نادية:

- لكن لماذا أحتاج إلى شقتين؟ أبكثرتهم؟

- يمكنكِ أن تؤجريها.

- كم سيتكلف هذا؟

- حسنًا، إذا كانت للأجانب، فخمسة آلاف في الشهر. وهذا الحد الأدنى.

- وكم تتكلف الشقة؟

- مئة وخمسين ألف؛ ستجمعينهم بعد ثلاثة أعوام فقط، ثم ستحصلين بعد ذلك على ربح صافي.

- حسنًا، سأشتريها.

ستقوم نادية بإعطاء الأموال إلى زوجة ليفا عندما تُمكنها حالتها المادية من فعل هذا. ولا شك في أن هذا ليس أمرًا جيدًا، لكن من يعرف أن الشقة كانت ستظهر فجأة هكذا. القدر فقط هو ما يظهر بهذا الشكل. ولكن عندما يتشكل شيء ما، عليه أن يتشكل في الحال، وإلا فلن يتشكل أبدًا.

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه بوريس:

ـ يا لكِ من امرأة محظوظة. لقد اختارك اللّه من بين الناس أجمعين.

ـ أنا محظوظة بك.

بوريس، تميمة حظها. لم يكن يأخذ أي شيء، فقط يعطي ويعطي. أما الآخرون فيعذبونها ويفترسونها ويقطعونها إربًا إربًا.

والآن نادية امرأة مستقلة تمامًا. خمسة آلاف في الشهر، مرتب يتقاضاه الأستاذ الجامعي في أمريكا. وبالتالي لن تُجبر على الكدح في العمل والمعاناة في تلك الفترة الرأسمالية المدقعة. ولن تقترض مجددًا، ولن تشعر بالذل، فقط ستعيش حياتها. امرأة تمتلك الأطفال، والأموال، والعقار، والأهم من هذا كله أنها ستتحكم في مقاليد حياتها.

وفي مساء أحد الأيام قام ليفا روبينشيك بإجراء اتصال هاتفيّ بنادية وسألها:

ـ متى ستقومين بإعادة الأموال؟

ـ بعد خمس سنوات.

أجابت نادية بطريقة مباشرة، فأدرك ليفا سريعًا أنه خُدع. وأخذ يتمتم ببعض الكلمات الحادة المبهمة، فوضعت نادية يدها على السماعة حتى لا تسمع شيئًا يثير غضبها، في حين تنفجر السماعة ضجيجًا في يدها. ثم هدأ الصوت فجأة. فأعادت السماعة إلى أذنها:

ـ اهدأ ليفا، الأمر ليس بهذا السوء.

ـ ظننتُ أنكِ فتاة شريفة من عائلة محترمة، وأنتِ ...

أبعدت نادية السماعة مجددًا عن أذنها حتى لا تسمع التفاصيل. وفي رأسها هاجس يُقلقها: هل سينتقم ليفا منها؟ لأنه لن يقدم شكوى في مركز الشرطة، ولن يذهب إلى المحكمة؛ لأن هذه الأموال غير معلومة المصدر، فضلًا

عـن تهريبها من الضرائب. وسـتكتفي المحكمة بقروش قليلة؛ فلا أحد يهتم بالحقيقة. في حين أن الجميع يهتمون بالرشوة.

ومن الممكن أن يقوم ليفا بإرسال البلطجية إليها، لكن حينها سيضطر إلى إعطائهم نصف المبلغ.

ولهذا عاشت نادية في الشهر الأول حياة مليئة بالرعب. فأمرت تاتيانا بتنقيح المكالمات جميعها، وعدم استدعائها للرد على المكالمات غير معروفة المصدر.

ظـل ليفـا يتصل مرة تلو الأخرى ثـم توقف، ولم يقم بإرسـال البلطجية إليها كذلك. ربما لأنه كان يعلق آمالًا على أن نادية ستعيد إليه الأموال في نهاية المطـاف، وربما لم تكن المئة وخمسـين ألـف بذلك المبلغ الكبير بالنسـبة إلى ليفا؛ لأنه قادر وبسهولة على تدبير مثل هذه المبالغ.

حسـنًا، لقد سلكت نادية سـلوكًا غير مهذب، لكن ليفا أيضًا يكسب أمواله بطريقة غير مهذبة؛ لأنه يدبر ثروته من عمل وموهبة فنانين آخرين. إذًا، كما تدين تُدان، وبالكيل الذي تكيل به تكتال.

لم تشعر نادية بتأنيب الضمير.

مـن المعـروف أن سـيارته الفـورد الأولى حصل عليهـا بطريقـة إجرامية، ولم يتحدث عن الأوليجاركية الوطنية. أما الطريق الذي تشقه نادية فهو الأكثر براءة؛ لأنها لا تخدع سـوى العاشـقين السُـذج، الذين بإمكانهم عدم السـماح بحـدوث هذا. إذًا، فلمـاذا لا يدفعون ثـمن بعض اللحظات المشـرقة في حياتهم؟ لقـد اسـتولت جاكلين على ثروة أوناسـيس بشـكل كامـل. وصحيح أن هنـاك بضع إشـاعات تقـول إن جاكلين لم تحصـل على أي شـيء؛ لأن عقد الزواج كان قد كُتب بحبر مزيف. لكن هذا أمر مشكوك فيه.

سُجلت الشقة الثانية سريعًا. وقام بوريس بتأجيرها إلى شخص أمريكي على أن يدفع خمسة آلاف في الشهر، تمامًا كما خططا. وذهب إيجار الشهر الأول إلى جيب بوريس. ولا بأس في هذا، لأن هذه هي شروط الشركة، التي استقالت منها نادية مؤخرًا. فما الشيء الذي يجبرها الآن على التعامل مع أليس المقرفة؟ وما حاجتها إلى العمل من الأساس؛ ستحصل كل شهر على المبلغ نفسه الذي يتقاضاه الأستاذ الجامعي في أمريكا. وظيفة شاقة عليك من أجل الحصول عليها التضحية بحياتك وموهبتك ووقتك.

أصبحت كسينيا في حيرة من أمرها، ولمن تشبه نادية يا ترى، تلك الفتاة الجريئة، والشجاعة، التي لا تخشى شيئًا البتة، ولديها آفاق مختلفة وتطلعات عجيبة. فالأم نفسها ومن يُحيط بها من النساء كُن يمتلكن شخصية مختلفة تمامًا ويتمتعن بالخجل واحترام القوانين.

نظرت كسينيا إلى الابنة وأخذت تفكر: لمن تشبه؟ بالطبع ليس لذلك المنغولي.

وعلى الصعيد الآخر كانت أعمال الصيانة في الشقة الأولى تسير بخطوات ثابتة.

ذهبت نادية في يوم من الأيام إلى محلات الأثاث والتحف القديمة؛ لأنها أحبت أن تجمع في شقتها بين الحداثة والقدم.

واحتوت تلك المحلات على أشياء أفضل بكثير من تلك الموجودة في الأماكن الأخرى، وبالتحديد، أفضل من الأشياء التي يقوم بوريس بشرائها.

عرف بوريس في الحال نوع الثريا التي عليه شرائها، وهي تلك التي تُصنع من الكريستال والبرونز، وتُزود بسلسلة طويلة تسمح بأن توضع على ارتفاع عالٍ. وعليه كذلك شراء خزانة من خشب الأبنوس يكون بابها مصنوع من

زجاج ذي جودة عالية، بالإضافة إلى مقاعد مزودة بمساند طويلة على الطراز الستاليني تحيط بالمنضدة الكبيرة المصنوعة من شجر البلوط.

جاء بوريس إلى نادية وسألها:

ـ هل ستلقين نظرة على الأثاث؟

لاحظت نادية أن الأثاث سيكلفها الكثير، وستضطر إلى دفع مبالغ باهظة. وهي ترحب بهذا على أية حال. فالشيء الوحيد الذي لم يكن يعز عليها دفع الأموال فيه هو شقتها. فعلى المرء أن يعيش دائمًا في مكان نظيف وأن يُحيط نفسه بالأشياء الرائعة.

ولم يظهر أندريه طوال هذه الفترة. وقد انقطعت أخباره وكأن الأرض انشقت وابتلعته؛ فمنذ ستة أشهر وأحد عشر يومًا لم تره نادية مرة واحدة. إنه لأمر عجيب أن الاشتياق لا ينضب، بل يزداد ويشتعل. فظهر إيمان كبير بأن هذه ليست النهاية، وإنما خطأ ما؛ خلل في الحاسوب. أمر يستوجب الضغط على الزر المناسب حتى يعود كل شيء كسابق عهده ويعمل من جديد.

قررت نادية أن تأخذ زمام المبادرة؛ فنيل المطالب لن يأتي بمجرد التمني. والأهم بالنسبة إليها الآن أن تسحب أندريه إلى الشقة الجديدة، وسيبقى بعد ذلك من تلقاء نفسه.

وفي يوم من الأيام ذهبت نادية إلى أندريه في عمله وجلست تنتظر. وأخذت معها ترموس من القهوة وبعض الشطائر والفاكهة. لأنها كانت تعرف جيدًا أن الانتظار سيستمر طويلًا، فتجهزت لذلك واستعدت له. وقامت بصف سيارتها بطريقة لا تمكن الواقف في نافذة المكتب من رؤيتها. وأخذت تركز بصرها على المدخل ولا تحيد به عنه. تمامًا مثل الحارس الذي يراقب الأجواء في الخارج.

اضطرت نادية إلى الانتظار ثلاث ساعات، وهي فترة ليست بالهينة. ثم خرج أندرية بمفرده من المكتب. واستقل سيارته ورحل.

فقامت نادية بإدارة السيارة، ثم ذهبت في إثره.

توقف أندرية أمام أحد متاجر الكتب، ثم دلف إليه ونادية وراءه.

طلب أندرية من البائعة أن تحضر له ألبوم الانطباعيين. فذهبت البائعة سريعًا وعادت بألبوم كبير بعدما رفعته عن أحد الأرفف. فاعتقدت نادية أن أندرية ينوي الذهاب إلى أحد أعياد الميلاد. أو ربما سيضعه في منزله. ويشاهده مع زوجته سفيتلانا، وهما يجلسان على الأريكة ورأسهما ملتصقان مثل زوج الحمام.

نهضت نادية ووقفت أمام أندرية، وشرعت تنظر إليه باهتمام زائد. رفع أندرية رأسه فاصطدمت نظراته بنظراتها، فارتفع حاجباه إلى الأعلى.

وهنا بدأت نادية تحول طرفها عنه، أحيانًا إلى الأعلى وأخرى إلى الجانبين الأيمن والأيسر. وراحت تنظر إلى أرفف الكتب البوليسية. وتتظاهر بأنها تبحث عن شيء ما، ثم تتظاهر مجددًا بأنها لا تجد ما تبحث عنه. فأدارت ظهرها وغادرت في اتجاه باب الخروج. استدار أندرية فرآها، وميزها من بين الناس جميعًا. وكانت نادية ترتدي معطفًا برتقاليًا، فأخذت تبتعد وتبتعد مثل شعلة النيران الصغيرة، ثم ومضة النيران، التي قامت بإضاءة الحياة ثم ساعدت على توهج الأرواح واشتعالها.

لاحظت نادية أن هناك أشخاص كُثر في متجر الكُتب. وكانت تعتقد من قبل أن الناس قد توقفوا عن القراءة، لأنهم يهتمون فقط بفعل الأشياء التي تبقيهم على قيد الحياة.

خرجت نادية من المتجر، ثم استقلت سيارتها وذهبت إلى شقتها الجديدة. ثم اتصلت بوالدتها كسينيا وطلبت منها أن تُعطي عنوان الشقة الجديدة ورقم الهاتف إلى أندرية إذا سأل عنهما. وكانت واثقة كل الثقة أن أندرية سوف يظهر مجددًا. لأنه لا يستطيع أن يحيد عن مدارها. ولن يستطيع. من أين لها بمثل هذه الثقة؟ ربما يكون القدر مسجل برمته داخل الشخص، والإشارات تنتقل من المستقبل إلى الحاضر. ومن ثم فإن الحدس ليس شيئًا آخر سوى القدرة على استقبال هذه الإشارات.

عادت نادية إلى الشقة، في الوقت الذي كانت فيه تانيا تتذمر بشدة من تصرفات ماشا، التي بعثرت الحبوب كلها على الأرض. ومع ذلك لم تهتم الأم بهذا؛ لأنها كانت في انتظار أندرية. وعندما سمعت أصوات الطرق على الباب تأكدت أنه هو، وقد كان.

لم ينتبه أندرية إلى الشقة الجديدة أو المكان الذي تعيش فيه نادية، حتى وإن كان أسفل السلم. لأن تركيزه كان ينحصر على الشيء الذي ستقوله نادية إليه والطريقة التي ستقابله بها.

ولم تطرح نادية في تلك الليلة سؤالًا واحدًا على أندرية، فلا وقت لهذا. لأنها ذابت داخله سريعًا، كما يذوب السكر في الماء الساخن.

ارتاع أندرية خلال دقائق الاستراحة؛ لقد انصاع مرة أخرى إلى وسوسة الشيطان. لكن لا بأس، فالشيطان قام في وقت من الأوقات بمحاولة إغواء المسيح نفسه. وإذا كان عيسى لم ينصع إلى تلك الوسوسة، فربما لأنه كان الرب. أما أندرية فمجرد عبد للإله. ربما يكون ضعيفًا، لكنه سعيد. والشخص الذي يشعر بالسعادة يكون على الطريق الصحيح.

عاد كل شيء كما كان من قبل.

ومر كل شيء كسابق عهده؛ يتقابلان، وتمتزج روحهما وتتلاصق أجسادهما، ثم يتفرقا، وفي الحال يتواصلا عن طريق الهاتف ليعطي كل منهما التفاصيل الحياتية الدقيقة للآخر، وكانا يسمعان الصوت بل حتى فواصل الكلام، التي كانت تنتمي إما إليه وإما إليها.

وكان لوكا يشعر بالسعادة عند دخول أندرية إلى الشقة ويصيح قائلًا: «بابا» ثم يركض إليه ويتسلق رأسه. أمر يُشعر ماشا بأنها لا تنتمي إلى هذه «العائلة المقدسة»، فتأكل نار الغيرة قلبها. لكنها تلتزم الصمت. وتترقب مجيء اللحظة المناسبة لتشبع لوكا ضربًا حتى تجعل الوضع متساويًا.

لاحظت نادية عدم المساواة بين الطفلين، فطلبت إلى أندرية أن يهتم بماشا قليلًا ويعاملها بطريقة جيدة. وبالفعل سعى أندرية إلى فعل هذا، لكن خداع الأطفال أمر لا ينجح فيه المرء بسهولة.

وفي يوم من الأيام جاء أندرية إلى الشقة، وكان العيد آنذاك على الأبواب، فكثُرت التهاني وزُينت شجرة عيد الميلاد اللامعة. فأضحى الجميع سعداء، حتى الخادمة تانيا. ولم يفقد الحب بريقه؛ فالممنوع دائمًا مرغوب. حيث كانت هناك حاجة إلى حب صريح، حب لا يسعى أحد منهما إلى إخفائه عن الناس، حب يجعلهما فخورين بأنفسهما أمام الجميع.

كانت نينا تقول لنادية: «سيتزوج منكِ، وسترين. لسوف يمل من هذا الماراثون الخريفي، فيكذب ويتهرب من الأحاديث المباشرة التي ستُجرى عنكِ «.

أما ناليا فكانت تقول: «لن يتزوج منكِ أبدًا؛ فهو يشعر بالراحة هكذا».

وكان أندرية صامتًا، لا يكذب أو يتهرب من الأحاديث. لقد وقع ببساطة في حب امرأتين. ولم تكن سفيتلانا تعرف أي شيء. لا سيما أنه يهتم بها و يحافظ عليها، مثلما يقوم الكاشيي بالحفاظ على موته، و يخبئه على

طرف إبرة، ويضع الإبرة في بيضة، ويدس البيضة في بطة؛ إنها حماية ثلاثية.

وكان أندرية سيكمل قريبًا عامه الأربعين، بالتحديد في العشرين من مارس، الموافق يوم الأربعاء.

فقررت نادية أن تحتفل بعيد ميلاده في شقتها الجديدة. ولم تتباطأ في دعوة الضيوف إلى الحضور يوم في ذلك اليوم، وقد أعدت للأمر عدته.

طلب أندرية أن يؤجل الاحتفال إلى يوم السبت لأنه مشغول للغاية، الأمر الذي قابلته نادية بالرفض. لأن الاحتفال يجب أن يكون في ذلك اليوم الذي ولد فيه أندرية. هذا عيد ميلاد وليس مجرد منادمة .

وأجرى الحوار نفسه مع سفيتلانا. لكنها لم توافق أيضًا على ترحيل الاحتفال إلى يوم آخر؛ لأنها قامت بحجز أحد المطاعم لهذه المناسبة، وسيبدأ الحجز في الساعة السابعة مساءً.

فاضطر أندرية أن يطلب من نادية دعوة الضيوف لتناول الغداء، وتقديم الوليمة إلى الساعة الثالثة عصرًا.

وجلست نادية تُعد قائمة الضيوف، وكانت من عشاق الشهرة تمامًا مثلما يوجد على صفحات قصة الجندب لتشيخف. ولحسن الحظ كانت الصديقة ناليا تعمل في التلفاز، فكُلِفَت بإحضار نجمين، يُفضل أن يكون معهما جيتار؛ حتى يُضيفا المرح إلى المكان.

وجهت الدعوات إلى نينا وزوجها المهندس المعماري، وناليا، وبوريس ووالدته. وقامت كسينيا بدعوة نفسها، وكذلك الشخص الأمريكي، الذي قام بتأجير الشقة الثانية. وفي النهاية حضر اثنا عشر شخصًا وفقًا لعدد المقاعد الموضوعة حول المائدة.

على أن تجلس تانيا والأطفال على إحدى الطاولات الصغيرة.

جاء أندرية في الساعة الواحدة ظهرًا، قبل ساعتين من الموعد المحدد. وقد بدا أنه سيتولى بنفسه تحضير البيلاف، الذي تعلم طريق إعداده من روستام الأوزبكستاني خلال فترة خدمته في الجيش.

كانت نادية قد عقدت اتفاقًا مع طباخ ونادلتين من أحد المطاعم؛ لأنها لا تريد أن تُتعب نفسها في هذا اليوم، أو تُفسد الطعام. لقد ولى ذلك العهد، بعدما جعلتها الأموال تشعر بالحرية والثقة. وكان الأمريكي يدفع الإيجار بشكل منتظم، ويتعامل معهم بتواضع شديد، لا يهتم بالنساء، وينظر إليهن نظرات قصيرة. الأمر الذي دفع نادية إلى الاعتقاد بأنه مثلي جنسيًا. وهذا أمر لا يخُصها، ما دام يُسدد الأموال في موعدها و يحافظ على الشقة. وكان يفوح منه عطر جميل يشبه رائحة الورود. الأمر الذي يؤكد أيضًا ذلك الاعتقاد.

قام أندريه بارتداء الإزار وشرع في إعداد الطعام. وبدأ بوضع السمن في طنجرة كبيرة. ثم أسقط عظام الضأن، حتى تمتص السموم. في حين كانت النادلتان، مثل الساحرات، تقطعان الجزر على شكل عيدان، والبصل على شكل حلقات، واللحم قطعًا متوسطة.

سوف تنش العظام، وبعدها سيقوم أندرية بالتخلص منها، ويبدأ في وضع المكونات وفقًا لترتيب معين، وكل شيء يوضع لهدف ما. أندرية هو القائد هنا، فحتى الطباخ ينصاع لأوامره، في حين أن الأطفال يتصارعون ويتشاجرون مع بعضهما بعضًا، وتانيا تفرق بينهم، فتسحب هذا وتسرح ذاك، والرائحة منتشرة في أنحاء الشارع جميعه. لأن النوافذ مفتوحة على مصاريعها، الأمر الذي جعل القطط تتجمع تحتها وتصوب رؤوسها إلى الأعلى.

كان أندرية ونادية يتذوقان اللحم، و يتبادلان النظرات من حين إلى آخر. وفي عينهما سؤال: «كيف هذا؟» حسنًا، سيحط طائر السعادة على الرأس نفسها.

لا بأس، ما تزال الحياة أمامك؛ فقط احلم وانتظر.

تأخر الضيوف كالعادة. ولم يصلوا في الثالثة، بل تأخروا ساعة كاملة. وهذا ليس غريبًا في موسكو، حيث يرون أن هذا شيء عادي. ولكن الأمر مختلف في ألمانيا؛ فقط كسينيا والأمريكي هما من وصلا في الوقت المتفق عليه. فأخذت كسينيا تترأس النادلات وجورج الطباخ، الذي كانت تناديه جورا. وكان الأمريكي ينصاع طوعًا إلى كسينيا، لأنه يحب هذا الوضع.

رأت نادية أنه ليس مثليًا كما كانت تعتقد، وإنما مجرد شخص معقد؛ لأنه يخجل من التعامل معها، في حين يشعر بالارتياح في التعامل مع كسينيا، التي كانت تكبره بخمسة عشر عامًا، الأمر الذي جعلها تجمع بين المرأة والأم في وجه واحد. وكان الفرق في العمر ملحوظًا، لكن، ثمة سؤال هنا، لماذا يمكن للرجال أن يشكلوا صداقات مع فتيات في سن الشباب، ولا يمكن للنساء فعل هذا؟

وأخيرًا وصل الحضور واندفعوا فجأة إلى الداخل، فتسمروا في أماكنهم. وقد فعلت بهم الشقة مثلما يفعل الصاعق الكهربائي بالإنسان.

صاحت ناليا قائلة: «فرساي»، على الرغم من أنها لم تذهب هناك من قبل. وتبعها شخص يُدعى أوليج بصوت جهير قائلًا: «الأرميتاج»، وكان ذلك الشخص من برنامج «مصنع النجوم» التليفزيوني، وقد جاء من تومسك ولم يسبق له أن زار الأرميتاج.

بدأ الحسد ينهش في قلب أليس، شعور تحول بعد ذلك إلى كراهية. أما بوريس فكان فخورًا بنادية. فهو يعرف جيدًا كم تكلف هذا من مجهود مضنٍ وعمل شاق، بصرف النظر عن الأموال.

كانت نادية تتألق ذلك اليوم بفضل عيونها اللامعة وأسنانها البيضاء، وذلك العقد البلوري الذي وضعته في رقبتها. أما الشقة فهي رسالة الدكتوراه الخاصة بها، التي تنعكس فيها قدراتها البشرية.

وصلت رائحة الطعام إلى الجميع. فهبوا للجلوس على مائدة طويلة. في حين كانت النادلتان تختبئان وراء الأعمدة مثلما يحدث في حفلات الاستقبال التي تُجرى في السفارات، وتحصران نظريهما على المائدة، تظهران فقط عندما توجد الحاجة إلى صب النبيذ أو تغيير أحد الأطباق أو وضع مقبلات الطعام.

وفهم أوليج قبل مجيئه من تومسك أنه دُعي للغناء، ومع ذلك كان يشعر أنه أحد كبار الزوار. فرفع الكوب على فمه قائلًا:

ـ نخبكم، لهذا الجمال. وهذه السيدة الرائعة وزوجها المهندم في ذلك المكان البديع.

فصححت كسينيا العبارة قائلة:

ـ أولًا، النخب سيكون لصاحب هذه المناسبة، لك أنت يا أندرية.

فنهض أندرية عن مقعده. وكان في أبهى صوره آنذاك: جسد رياضي في ملابس من اللون الأبيض والأسود، عيناه واسعتان؛ مثل أعين البومة. وقد ألقت إليه نادية نظرة دهشة من جماله الأخاذ. وهنا قال الأمريكي:

ـ من الرائع أن يرى المرء زوجين متحابين مثلكما.

نهضت ناليا ثم تمنت قائلة:

ـ كل ما أريده في الحياة أن أتمتع بأسرة جميلة، وأن يصبح لدينا أطفال وأموال، بجانب الحب والولاء.

لقد استمرت قصة الحب التي عاشتها ناليا فترة طويلة. كان فيها الحب والولاء، لكن غاب عنها الأطفال والأموال.

ومن بين هذه الأشياء كان يمكن لأليس أن تتباهى فقط بالأموال، فالجميع كان ينقصه شيء ما، أما نادية، فتمتعت بكل شيء؛ الطفلان

والأموال والحب. وبقي شيء واحد تافه فقط، ألا وهو الختم على جواز السفر. حقًا شيء تافه.

كشف أوليج القادم من تومسك عن جيتاره وشرع في الغناء. فغرق الجميع في الأحلام الوردية.

كان جورج يستمع إلى الغناء في ذهول واندهاش بعدما استوعب الروح الروسية، لأنه كان مُتخصصًا في اللغات السلافية. ومعروف أن اللغة تعكس الروح، ويعني هذا أن استيعاب الروح يدخل في تخصصه.

كانت الأطباق الموجودة جميعها على المائدة لذيذة، ولكنها معقدة للغاية، يحتاج إعدادها إلى كثير من الوقت ومعرفة جيدة بفنون الطهي.

وأخيرًا جاء الطباخ بطنجرة اللحم. فلم يلتفت أحد من الجالسين إلى الأطباق الأخرى، وشرعوا في تناول البيلاف. فخيل لنادية أنها ستسمع صوت القرقرة في البطن. بعدما نسي الجميع لماذا اجتمعوا. وتناولت أليس قطعة من اللحم ثم وجهت سؤالًا لأندرية:

- ما هذه التوابل؟

- الكمون.

- اهاااا .. هكذا إذًا.

كما لو كان الأمر في التوابل! معروف أن البيلاف طبق، لا يقومون فقط بإعداده، بل يصنعونه. وأندرية هو الصانع هنا.

نظرت كسينيا للحضور وقالت بنبرة متسولة:

- حسنًا، قولوا شيئًا ما!

- لنادية!

قال بوريس هذا لأنه يعرف حق المعرفة من الأهم في هذه الشقة. ثم شرب الجميع بحماسة شديدة.

وعادوا مجددًا إلى البيلاف، وظلوا يأكلون ويأكلون حتى أمتلأت بطونهم. ومعروف أن هرمون المتعة يتولد من الطعام اللذيذ. أما الكحول فكان يقوم بمفعول أخف.

رفع أوليج مرة أخرى الجيتار على ركبتيه وأخذ يغني، لا يصرخ، كما يفعلون في التلفاز، وإنما يمزج بين الموسيقى والشعر. الأمر الذي دفع الجميع إلى رؤية الحياة من منظور آخر.

يالها من حياة رائعة. ها هي السعادة، يمكنك لمسها بأصابعك.

نظر أندرية إلى ساعته، لقد تأخر. وكان العقرب آنذاك يقترب من السابعة مساءً. ويعني هذا أن الضيوف يتجمعون الآن و يجلسون على الخوان. وبالتالي ستصبح سفيتلانا في وضع محرج للغاية.

أخذ أندرية يتسحب بهدوء إلى الخارج. وقد خلع الحذاء المنزلي، و قام بارتداء حذائه. في حين كانت نادية تقف وراءه، وتنظر إليه وهو يعقد رباط الحذاء. ساعد النبيذ على إفراز هرمون الأدرينالين، الذي كان يصعد ببطء إلى الرأس، فيؤدي بدوره إلى الشعور بالحنق، ومع ذلك تحكمت نادية في نفسها وحاولت الاختباء.

رحل أندرية، وانغلق الباب وراءه.

فعادت نادية إلى الشقة من دونه، وقد اكتسى وجهها شيء من الذهول. فأدرك الجميع ما حدث إلا جورج الذي سألهم عنه، فأجابته أليس بنبرة ماكرة أنه رحل إلى زوجته. وعندها سأل أوليج عن موعد عودته، أمرته تانيا أن يكمل الغناء.

شـرع أوليج في غنـاء إحدى الأغانـي المبهجة. فاقـترب لوكا مـن جدته، التي طلبـت منـه أن يرقص قليـلاً. فبدأ الحفيد يحـرك كتفيه مع الموسـيقى. ولم يلتفت إليه أحد ولم يقولوا في حقه الكلام المعسـول. فبدا أن هناك شعور عام بعدم الارتياح، كما لو كانوا اسـترقوا النظر خلسـة إلى شـيء لا يمكنه أن يظهر.

كان وجه ناديـة صارمًا وجامدًا، مثل اللبنة. واسـتمر هذا فترة طويلة. وقد اتضـح أن الختـم على جواز السـفر ليس بالأمـر التافه؛ لأنه مـن دون هذا الختم سـينهار كل شـيء مثل البيت المصنوع من الورق. إذًا ما الفائدة من هذه الشقة، وهـؤلاء الضيـوف، وتلك المائـدة العملاقة؟ ومـا الفائدة من هذه الحيـاة الزائفة المخزية؟

وعلـى الجانـب الآخر كانت سـفيتلانا قد حجـزت مكانًا في أحـد المطاعم الإيطالية.

الطباخ إيطالي الجنسية، وفي زاوية المطعم يوجد بيانو كبير الحجم، يقوم عازفه بلعب بعض المقطوعات الإيطالية الهادئة. إذًا، الطباخ إيطالي والموسيقى إيطالية. عدا هذا فكل شيء روسي.

النُدُل؛ شـباب حديثو السـن، طلاب أنهوا توًا تعليمهم المدرسي، أو ربما طلاب مـا يـزالون في المراحل المدرسـية المتقدمـة، يـرتدون المآزر الطويلـة، ويعملون في الفترات المسائية من أجل تدبير الأموال. ويتجمعون من وقت إلى آخر حول البيانو ويرتجلون جوقة غناء: أووو، سـوولي ميوو ... «، ويقـومون بمد رقابهم مثل الإوز الصغـير، فلا تنقطع أصواتهم خلال الغنـاء. الأمر الذي أضفى إثارة وبهجة على الأجواء في المطعم.

جـاء أصدقاء أندرية حاملين معهم الهدايا القيمة، وكان هناك جزء منفصل مـن الخـوان مخصص لتلك الهدايـا. فأصبح أندريـة محاطًا بالعلـب الحمراء من كل الجهات.

لقد أدرك أندرية الحفل، ولم يتأخر سوى عشرين دقيقة.

جلس الجميع على الخوان. وكانت سفيتلانا قد ذهبت في الصباح إلى صالون تجميل السيدات ليقوم أحد العاملين المحترفين هناك بتصفيف شعرها على شكل قطرات المطر. فضلًا عن عينيها اللتين تتوهجان مثل الشمس، ووجهها الممتلئ بعلامات الحنان، بعدما غمرت السعادة روحها.

جلس أندرية واستمع إلى الموسيقى التي يدوي صوتها داخله. لقد وقع في حب امرأتين، وعاش حياتين في حياة واحدة. هذه ليست حياة قُسمت إلى حياتين، بل حياتين حرفيًا. «ليت هذا يستمر إلى الأبد» هذه كلمات من أغنية قام شاليابين بغنائها ذات مرة. يا لها من كلمات رقيقة ساهمت في تغيير الحالة النفسية لأندرية خانكين ذي الأربعين عامًا. ليت هذا يستمر إلى الأبد: سفيتلانا ونادية... فهو يريد هذا، وسيفعله بكل تأكيد. أليس هو المتحكم الوحيد في حياته؟

كان النُدُل يجوبون أنحاء الصالة من حين إلى آخر. وأخيرًا قام كبير الطهاه بنفسه بإحضار الأخطبوط. والمقربون يجلسون إلى المائدة، أصدقاء الطفولة والمراهقة، وهؤلاء الذين لم تغيرهم الحياة. بالإضافة إلى بعض الزملاء المخلصين؛ إنها دائرة من الناس يستحيل إدخال نادية إليها. وحتى إذا حدث ذلك سيتجاهلونها ويتظاهرون بأنها ليست موجودة من الأساس. أو ببساطة سيقومون ويغادرون. وهذا يعني أن نادية ستظل خارج إطار حياته الأساسية.

لم يكن أندرية يشعر بالجوع، فأخذ يفكر ويتأمل بطريقة فلسفية وتساءل: لماذا تشتهر إيطاليا بالتينور، في حين تشتهر روسيا بجيتار البيس؟ وبماذا يُفسَر ذلك؟ ربما، يرجع ذلك إلى ظروف المناخ، وإذ فجأة يريد أندرية الذهاب إلى إيطاليا، وزيارة البندقية، وفلورنسا، والقيام بجولة شخصية بصحبة سفيتلانا. نعم، سيكون هذا هو الاحتفال الحقيقي، وليس ما يحدث في تلك المطاعم، التي يُفترَس فيها الأكل وتُشرب المسكرات. وفي ذلك الوقت

تعالت جوقة الغناء: «اهاا، يا يا يا يا، ما هذه الفتاة الصغيرة!» وكانت هذه الأغنية معروفة للغاية في فترة شباب والديه. لكن نضب الشباب، وظلت الأغنية. على الرغم من أننا إذا أمعنا في تلك المسألة، سنجد أن الأغنية قد انتهت أيضًا. لأنها لا تُسمع إلا في المناسبات.

أخفى أندرية خبر ذهابه إلى ميلان عن نادية، التي عرفت مصادفة من السكرتيرة التي تعمل معه. ففي يوم من الأيام اتصلت نادية بأندرية في المكتب. فأجابتها السكرتيرة التي تُدعى لينا قائلة إن أندرية بيتروفيتش وسفيتلانا إيفانافنا قد ذهبا إلى إيطاليا، وسيعودون في غضون عشرة أيام. فصرخت نادية في السماعة:

- ومتى رحلا؟

- اليوم؛ ستقلع الطائرة في الساعة الواحدة والأربعين دقيقة ظهرًا. ومن أنتِ؟

- صحفية، كانا قد وعداني بإجراء لقاء صحفي معي.

- سيكون هذا مستحيلًا اليوم.

راحت نادية تقطع الغرفة جيئة وذهابًا، وقد احمرت عيناها من شدة الغضب. ثم نظرت إلى الساعة، لم تكن تتعدى الحادية عشرة. سيبدأ التسجيل بعد ساعتين، يمكنها أن تلحق بهما. وكانت تانيا قد غادرت إلى أحد المتاجر في الصباح، ولم يكن موعد عودتها معروفًا. وكان لتلك الخادمة قدرة مذهلة على الاختفاء، خاصة عندما تكون نادية في أشد الحاجة إليها.

قامت نادية بإمساك لوكا وإسقاطه في بزة صغيرة. ثم وضعت قدميه الحافيتين في الحذاء، ووضعت هي المعطف المصنوع من فرو الوشق فوق البيجاما، وبالضبط بعد عشرين دقيقة كانت السيارة تسرع بجنون في شوارع لينينجراد.

لماذا ستذهب نادية إلى هناك؟ ماذا تريد؟ لم تكن لتذهب إلى أي مكان إذا حدث وفكرت لدقيقة واحدة بطريقة صائبة.

ركضت نادية مثل الثور الهائج في الحلبة، وقد امتلأت عيناها بشرار الغضب، الذي كان من الضروري أن يُترجم إلى أفعال، وإلا سيقوم بتمزيق الأوعية الدموية.

أظهر عداد السرعة أن السيارة تسير بمعدل مئة كيلومتر في الساعة. وقد شرع رجال الشرطة في ملاحقتها، فأخرجت نادية ورقة من فئة المئة دولار ومنحتهم إياها، وأخذت تواصل طريقها بسرعة جنونية وتسير مندفعة مثل الممثل البديل الذي يقوم بتأدية المشاهد الخطيرة. الشيء الوحيد المختلف هنا أنها لم تكن تقفز من فوق السيارات. أمامها عشر دقائق فقط؛ وهو وقت كافٍ يمكنها فيه إدراكهما قبل إقلاع الطائرة.

وفجأة تعالى صوت في الأمام، فاتضح أن هناك سيارتين اصطدمتا ببعضهما. الأمر الذي أجبرها على إيقاف السيارة. وتجمعت السيارات سريعًا أمامها وعلى جانبيها تمامًا مثل قطيع الثيران وهو متوجه إلى الموردة.

قفزت نادية من السيارة، وبدأت تسير ذهابًا وإيابًا. ما العمل الآن؟ هل تركض حتى تصل إلى المطار؟

نظرت نادية إلى الساعة، لقد فات الأوان؛ ستقلع الطائرة الآن وتتجه إلى إيطاليا المشمسة، ولن تسقط في الطريق.

قامت نادية بإخراج هاتفها الجوال واتصلت بأندرية، فردت عليها سفيتلانا. لا بأس، هذا أفضل من لا شيء. فقالت نادية مباشرة:

ـ أوصليني بأندرية؛ هو لا يريدك.

ـ أنت تمتلكين خيالًا ثريًا.

ـ كلبة، حمقاء، تبًا لكِ ...

قالت نادية تلك الكلمات من قبل إلى الحارسة، وقامت بتكرارها الآن. لأنها لن تقوم كل مرة باختلاق شيئًا جديدًا.

ـ شكرًا جزيلًا، أنتِ لطيفة جدًا.

وضعت سفيتلانا سماعة التليفون.

انطفأت نيران الغضب. فجلست نادية في السيارة وأخذت تنوح بشدة.

فاحتضنها لوكا من رقبتها وقال:

ـ لا تبكِ يا أمي، سأكبر أنا وأتزوجك.

لم تتمكن نادية من تحقيق غايتها. وأقلعت الطائرة وبدأت الرحلة، لكنها لم تكن خالية من الشوائب. لقد انكشف السر؛ وفهمت سفيتلانا أن أندرية ما يزال على علاقة بتلك المرأة اليابانية، التي تعاني من ظروف حياتية مضطربة، وإلا فلماذا تسعى إلى الصدام. لقد تولد الغضب من الضعف. لكنها لا تستسلم، وإنما تناضل وتكافح. امرأة خطيرة لا تعرف ماذا تُخبئ لك. نظرت سفيتلانا إلى زوجها وعلقت:

ـ حسنًا، هذا هو اختيارك.

وكان هذا كل ما قالته.

انتظرت نادية أن يقوم أندرية بمنحها درسًا تهذيبيًا بعد العودة من إيطاليا. لكنه لم يُفسر شيئًا. بل قام بتغيير أرقام الهاتف مجددًا وأمر الحراسة بعدم السماح لنادية بدخول المكتب.

وكان يخشى مواجهة نادية. بعدما اتضح أنها لن تقبل بوضع العاشقة فقط وستبذل قصارى جهدها في سبيل تغيير هذا؛ فيمكنها رش حمض الهيدروكلوريك على الوجه. فلم يكن أمام أندرية إلا أن يتزوجها، أو يهجرها إلى الأبد. وفضل أندرية الخيار الثاني. لأن العاشقة موجودة في الأماكن كلها. يُمكن إيجادها في النوادي الليلية؛ فهن نشيطات مثل القطط، ويتضوع منهن العطر الفواح، الذي يشبه رائحة الزهور، وينتظرن حتى يأتي شخص ما ويتقرب منهن ويشرع في تدليلهن. وأية امرأة مهما كانت، تحتاج إلى حماية، حتى وإن كانت حماية مؤقتة. إذن يمكن أن تحل ماشكا أو تانكا أو أية فتاة أخرى محل نادية بسهولة، وما الفرق في ذلك. حتى وإن ظهر فرق، سيكون الأمر مثيرًا للاهتمام.

انتظرت نادية حتى مر شهر كامل، ثم تبعه شهر آخر. وبعدها قامت بزيارة لينا السكرتيرة في منزلها، وأهدتها ساعة ماركة رومانسون وقلم باركر بغطاءٍ ذهبي.

فأخذت لينا وعدًا على نفسها بأن تقوم بتمهيد الطريق بينها وبين أندرية. لكنها لم تفعل أي شيء من الأشياء التي طُلبت منها. لأن أندرية كان ينأى بنفسه عن كل شيء له علاقة بها.

لذلك كان على نادية أن تتخذ الخطوة التالية.

قامت نادية باستشارة نينا ونااليا بخصوص اتخاذ بعض الخطوات المستقبلية. فسألتها نينا:

ـ ألا يمكنكِ أن تتركيه وشأنه؟

ـ لا أستطيع.

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف، لا أستطيع فقط.

فكرت نادية ثم أضافت:

ـ أنا أكره زوجته.

ـ وما الشيء الذي يقوم بتحريكك: الحب أم الكراهية؟

ـ الاثنان.

فدخلت ناليا في الحوار قائلة:

ـ ستفهم نينا ذلك، لأنها أيضًا كانت تكره الزوجة الشرعية لحبيبها العبقري، وأطلقت عليها اسم «فريدا الخرقاء».

وانتهى الحوار بأن طلبت نادية من صديقتها ناليا أن تقوم بالاتفاق مع إحدى مقدمات البرامج الإذاعية. وقد حيكت حبكة مناسبة، ألا وهي إسكان النخبة. وحازت الحبكة إعجاب الجميع.

وصلت نادية إلى أستوديو التسجيل، وجلست أمام مقدمة البرنامج التي أخذت تسأل:

ـ أخبرينا من فضلك، كم تكلفة هذه الشقة؟

ـ هههه ،هذا ليس سؤالًا أمريكيًا.

ـ أعذريني. إذا كُنتِ لا تريدين الإجابة، فلا مشكلة في ذلك.

ـ حسنًا، تكلفتها مليون دولار.

كان هذا كله محض هراء، لكن من سيبحث في حقيقة ذلك، لا سيما أن الأسعار كانت ترتفع بشدة في تلك الأوقات، وخاصة أسعار العقارات.

اندهشت مقدمة البرنامج:

ـ ومن أين لكِ بهذه الأموال كلها؟

ـ أيمكنني عدم الإجابة عن هذا السؤال؟

ـ بالتأكيد. فقط ما يثير الاهتمام أن امرأة شابة مثلك تمتلك هذا المبلغ. هل هو ميراث؟

ـ هذه الشقة هدية من أحد أصدقائي.

ـ حسنًا لن نذكر أسماء.

ـ لماذا؟ يمكنني قول اسمه؛ إنه أندرية بيتروفيتش خينكين، صاحب أحد المصارف ورئيس مجلس إدارته.

ـ ومن أين حصل على هذه الأموال؟

ـ يمكنك أن توجهي إليه هذا السؤال.

لقد تحقق المطلوب. وذاع في أنحاء الدولة جميعها أن أندرية يعشق امرأة ويقدم إليها هدايا تُقدر بالملايين. ولعل هذه الأخبار تصل إلى مسامع سفيتلانا، فتعرف أنه ليست المشاعر فقط هي ما يتسرب من الأسرة، بل الأموال أيضًا. وإن الخسارة أصبحت مادية ومعنوية.

اندهشت مقدمة البرنامج وسألت.

ـ اعذريني، ولكن علامَ هذه الهدايا؟

وكان هذا الاندهاش مصطنعًا. لأن هذا الحوار كان قد أُعِدَّ وكُتِب على الورق من قبل، وحفظت كل منهما الكلمات التي ستقولها.

ـ من أجل ابنه، لقد أنجبت له طفلًا.

ـ وما اسمه؟

ـ لوكا أندريفيتش خينكين.

وعلى الرغم من أن البرنامج كان يُذاع في المساء فإن الجميع كانوا يسمعونه، بما فيهم كسينيا، التي اتصلت بابنتها بعد انتهاء البرنامج وصاحت قائلة:

ـ هل فقدتِ عقلك! مَن في موسكو يعلن هكذا عن ملايينه؟ سيخطفونكِ أو سيقتلونكِ.

ـ ولماذا أويمكن أن يحدث الأمران معًا؟

وكان والدا أندرية من ضمن المستمعين للبرنامج. فوضعت الأم يدها على قلبها يأسًا؛ لأنها تحب سفيتلانا كثيرًا وتتباهى بذلك البيت المستقر الذي شيده ابنها. وفجأة يضطرب كل شيء ويترنح. فكر الأبوان قليلًا، فأدركا أن هذا الطفل ليس من صلب أندرية، وأن هذه المرأة ما هي إلا امرأة نصابة، لكن بالطبع لن يتفهم الجميع هذا. لذلك سيضطران إلى الرحيل والتهرب من أعين الجيران، الذين تأكدوا أن أندرية فاسق ولص.

فتحت سفيتلانا الراديو عن طريق المصادفة، فصاحت قائلة:

ـ أندرية، تعالَ هنا.

فدخل أندرية غرفة الاستقبال. وأخذا يسمعان الحوار الإذاعي في صمت واجم.

وعندما انتهى البرنامج، سألت سفيتلانا:

ـ من سيتصل بالمحامي، أنا أم أنت؟

ـ لماذا؟

ـ لن يمكننا إخراس هذه المرأة إلا من خلال المحكمة، وإلا ستقوم بأخذ ما تريده منك.

*****

وبعد وقت قصير استُدعي الجميع إلى المحكمة، وهناك كان الحديث غير سار. فاستشعر الجميع أن القاضية تميل إلى جانب سفيتلانا؛ لأنها كانت تتحدث بنبرة جافة، وتحاول ألا تنظر في أعين الحضور. فأصبح جليًا من المرافعة أن نادية ستُجبر على إعادة الثلاثمئة ألف دولار. وسيكون الشريط السمعي دليلًا واضحًا في ذلك. أما المكروه الذي أصاب سفيتلانا، فاتضح فيما بعد أنه كيد مرتد، عاد وضرب نادية في وجهها.

استغرقت نادية في التفكير: يجب بيع الشقة على الفور، وإخفاء الأموال في أحد البنوك الغربية. أمر عسير بالنسبة إليها. ولكن أين سيكون الحل آنذاك؟ ... لقد عثرت عليه نادية.

قامت بإعداد ترموس من القهوة، ثم ذهبت إلى أندرية في العمل. وأخذت تراقب الأجواء هنا وهناك. وكان هذا المشهد مألوفًا بالنسبة إليها. لكنها هذه المرة لم تضطر إلى الجلوس طويلًا، فبعد مرور نصف ساعة خرج أندرية بصحبة سفيتلانا من المكتب، وبدا أنهما ينويان القيام بأمر ما.

ترجلت نادية من سيارتها واقتربت من الزوجين دون خوف أو رهبة ثم أومأت برأسها قليلًا قائلة لأندرية:

ـ مرحبًا.

- هل ينقصك شيئًا؟

- ما هذه الغلظة. أنسيتَ اللحظات الرائعة التي عشناها معًا.

فأقحمت سفيتلانا نفسها في الحوار قائلة:

- ماذا تريدين؟

- تنازلا عن البلاغ. وإلا سأضطر إلى الدفاع عن نفسي وأقول كيف كنت يا أندرية تغسل الأموال وتدبرها.

نزلت هذه العبارة على أندرية كالصاعقة. وقد تذكر كيف قام في إحدى الليالي الساخنة بإخبار نادية الشيء الذي أخفاه عن الجميع، بما فيهم نفسه. وإذا تسربت هذه المعلومات، سيُستبعَد من العمل، إن لم يحدث الأسوأ من ذلك.

فهمت سفيتلانا كل شيء على الفور. فرغبت في أن تلقن نادية الوقحة درسًا قاسيًا، لكن بالتأكيد لن يكون هذا على حساب حياتها الخاصة. فقالت لها بنبرة جافة:

- سنفكر.

- فكرا، فكرا ... لكن لا تتأخرا .

عادت نادية إلى السيارة. وذهبت أعين أندرية وسفيتلانا معها حتى اختفت عن الأنظار. وقد خامرهما الخوف وسرى في جسدهما. فماذا سيمنع نادية من الظهور على شاشات التلفاز أو القيام بحوار صحفي في إحدى الصحف للتحدث عن ذلك؟ ويمكنها كذلك أن تفعل الشيئين معًا.

وفي اليوم ذاته قام أندرية بسحب البلاغ من المحكمة.

تمنت سفيتلانا لو تخبر نادية بكل شيء تفكر فيه بشأنها. لكن أندرية حاد بينها وبين ذلك:

ـ لا تجيبيها فتحطي من قدرك، وإلا ما الفرق الذي سيكون بينكِ وبينها.

ـ ربما سنتمتع آنذاك بحياة جنسية جيدة.

فهمت سفيتلانا أن كل شيء له مقصد خَفي: الأموال، والطفل، والأسرار التي كُشِفت. وثمة شيء وراء هذه الليالي الساخنة كلها، والصرخات والهمسات والثقة والاتحاد. أشياء تتلخص في كلمتين: مشاعر جياشة.

لقد ضاقت السُبل بسفيتلانا. وهي بالتأكيد لا تريد أن تُصبح في مكان نادية، لكنها أيضًا لم تكن راضية عن المكان الذي توجد فيه. ولهذا يجب تغيير شيء ما.

كان لوكا قد أتم عامه الخامس. ومن الصعب أن نتخيله طفلًا عاديًا، لأنه كان من جذور ذات جودة عالية، وكانت ولادته مديونة في المقام الأول إلى أندرية. وجاءت الشقة كذلك بفضل أندرية، كما ساعدها الثلاثمئة ألف التي أخذتهم من أندرية على حل المشاكل جميعها التي كانت في حياتها. فإذا أمعنا في التفكير فسنجد أن نادية استفادت من أندرية أكثر مما تضررت. لكن من ناحية أخرى، لا يجب القيام بأي شيء من دونه. فكل شيء سيتلاشى، مثلما يحدث في فترات الغسق، وستطير الأيام، كأنها تتحطم.

كانت نادية تستطيع الاستغناء عن الزوج، لأنها تمتلك الأموال والأطفال. لكنها مع ذلك لا تستطيع العيش من دون حب. وقد هاج الشوق إلى أندرية حتى وصل إلى درجة الاختناق. وكانت نادية قد اعتادت إذهاب ذلك الشوق عن طريق شرب الكحوليات، التي لم تكن تشرب الأنواع الرديئة منها؛ تشرب الويسكي من نوع «Black label» ؛ لأنها كانت تحافظ على صحتها.

وفي مرة من مرات سكرها اتصلت نادية بمنزل لينا السكرتيرة.

فأخبرتها لينا أن أندرية سيطير إلى أمريكا. فسألتها نادية بنبرة متوترة:

- متى؟

- بعد سبعة أيام. على إحدى رحلات «ترانس-أرو» . ولقد ذهبت ديما لشراء التذاكر.

وخلال هذه الأيام قامت نادية بتحريك الجبال من أماكنها، فاتصلت بهذا، وأخفت الحقيقة عن ذاك، ودفعت الأموال لأولئك، وركضت في أنحاء موسكو جميعها. وهذا لأنها كانت تحب منذ صغرها وضع هدف صعب صوب عينيها ثم تحقيقه بأية طريقة، وإذا لزم الأمر كانت تلجأ إلى الطرق غير المشروعة أو تدخل في مصادمات شديدة، ثم تشعر بعد ذلك بسعادة الانتصار. وبالنسبة إليها كان ذلك الشعور أفضل بكثير من تحقيق الهدف نفسه.

لكن ها هي التأشيرة تظهر على جواز السفر؛ ستطير نادية إلى شيريميتيفو. لكنها سألت بعد ذلك على شباك التذاكر عن وجود تذاكر خاصة بـ« ترانس أرو» إلى مدينة لوس أنجلوس، فبدا أن هناك وفرة في التذاكر. وستقلع الطائرة شبه فارغة.

كانت نادية تشعر بالخوف، ففي حالة ما إذا رآها أندرية ستكون هناك مشكلة كبيرة، وربما لا. لأنه ببساطة يمكنه أن يُدير وجهه ويعود إلى منزله ويرتمي في أحضان سفيتلانا ويقول لها: «نادية تلاحقني، وأنا أخاف منها».

لذلك كان عليها التسلل إلى الطائرة قبل إعلان إقلاعها والاختباء في مكان ما هناك.

اقتربت نادية من سلم الطائرة الذي يربطها بالمطار، وعند باب الدخول كانت هناك مضيفة يبدو على وجهها ملامح الخشونة والصرامة:

ـ سَيُعلَن الدخول إلى الطائرة في غضون نصف ساعة.

ـ أنا حامل، أحتاج إلى الراحة.

فقامت المضيفة بالنظر إلى نادية التي كانت آنذاك جميلة الهندام. ورأت في عينيها نظرات التوسل. فربتت على كتفها وسمحت لها بالدخول. وعلى أية حال هذا ليس بالانتهاك الكبير للقوانين.

مرقت نادية إلى الداخل بسرعة السهم، ثم هرعت إلى مضيفتين، التفتتا إليها فرأت نادية وجهين مختبأين وراء مساحيق التجميل، ثم قالت:

ـ يا فتيات، خبآني بسرعة! سيدخل حبيبي الآن إلى الطائرة. وإذا رآني سيرميني من شباك الطائرة.

فهمت المضيفتان كل شيء على الفور. «الحبيب» و«سيلقيها من شباك الطائرة»؛ أمر ليس بالبعيد. لأن العشاق يمكنهم القيام بهذه الأفعال. أما غير العشاق فيتصرفون بطريقة طبيعية. شعرت المضيفتان بالمرح، فانسلت إحداهما إلى قمرة القيادة، ثم خرجت قائلة:

ـ لقد وافق فاديك، لكن فقط حتى لحظات الإقلاع. سوف أعرج لآخذك من هناك.

تقدمت نادية إلى القمرة، وهناك أوقفتها إحدى المضيفات:

ـ ارفعي يديك.

ـ لماذا؟

ـ هذه تعليمات.

وقامت المضيفات سريعًا باصطحاب نادية، حتى يتأكدن من سلامتها. ولمَ هذا؟ ألن تكون شهيدة آنذاك؟ لا بالطبع لأن الشهيدات يمتلكن وجوهًا

أخـرى، وعيونًا مختلفة، ولا يهرعـن وراء الحبيب، بل إلى الأبدية؛ إلى اللّه، الذي سيأخذهم من أياديهم إلى الجنة.

دخلت نادية إلى قمرة القيادة، وجلسـت على مقعد صغير بالقرب من الباب. وجلـس القائـد والطيـار الأول في مكانهمـا، ثم تأكـدا من لوحـة التحكم. وهمـا يتبادلان أطراف الحديث بهدوء وبلغة لا يدركها سـوى العاملين في هذا المجال؛ كانا يفهمان بعضهما بعضًا من أنصاف الكلمات. شابان يمتلكان شـخصية حادة ويقظة، وفي أيديهما أرواح بشـرية عديـدة، بجانب روحيهما. كما أنهما يتمتعان بمنكبين عريضين، يجعلهما يبدوان وكأنهما ليسا بشريين.

لم يلتفت الشـابان إلى نادية، أو بالأحرى، التفتا و لم يروها؛ لأن هناك أشـياء أكثر أهمية منها.

أقلعـت الطائرة بنجـاح. ثم انفصل سُـلم الطائرة، التي شـرعت تأخذ اتجاهها علـى ممر الإقـلاع. زمجر المحرك، وبدأت الطائرة تسـير بسـرعة شـديدة على الممر، ثم ارتفعت عن الأرض، التي سرعان ما بدت على مسافة بعيدة في الأسفل. ولم تعـرج المضيفـة على نادية لتأخذهـا. من المرجح أنها نسـيت ما كان يجب عليها فعله.

كانت السحب تحيط نادية من كل الاتجاهات. وكان محيط الرؤية واسعًا للغاية، في الأمام وعلى الجانبين. ونادية تجلس في نصف كرة زجاجية، فبدا أنها مثل الشهيدة، تطير إلى الخلود.

لم تشـعر نادية بهذا الإحسـاس منذ فترة طويلة. لأنها مؤخرًا لم تكن تفعل شـيئًا سـوى أن تشـق طريقها خلال الغابة مثـل الخنزير البري الحامل بداخله مشاعر الغضب والانتقام. أما الآن فهناك سحب، ولون أزرق لا نهاية لهما، واثنان لا يبدو عليهما علامات البشر العاديين يمسكان عجلة القيادة بقوة.

وصلت الطائرة إلى ارتفاع شاهق. فتناثرت السحب من تحتها قطعًا كنتف القطن. وأشرقت الشمس محتفلة بوقاحة من دون حواجز أو عوائق. وفي أثناء هذا وقع نظر إحدى المضيفات على نادية فقامت بأخذها على الفور واصطحبتها إلى مقصورة الدرجة الأولى.

كان أندرية جالسًا على مقعده ينظر من النافذة. فالأرض ما زالت واضحة بين تلك الأدخنة الزرقاء الموجودة على خلفية السحب المتناثرة. يا إلهي! يا له من ارتفاع سنسقط منه إذا ما تعطلت الطائرة فجأة. سيكون هذا مؤلمًا للغاية. وربما لا؛ لأن القلب سيتوقف قبل الاصطدام بالأرض. وإذ فجأة يطرق ذهن أندرية أن هذا وقت جيد للموت. خاصة أنه لا يشعر بالأسف على حياته. ما الشيء الذي ينتظره؟ العمل، والعمل، ومرة أخرى العمل والأموال، الكثير من الأموال؛ ولمن سيترك هذا بعد موته؟ سيرحل الأبوان مبكرًا. وهذا يعني أن الأموال ستذهب إلى أبناء أخت سفيتلانا. وبالتالي فإن أندرية يعمل كالنحلة من أجل أقارب لا يعرفهم، لكنه يمتلك ابنًا.

أحس أندرية بأن هناك شخص ينظر إليه. فرفع عيناه، فإذا بنادية واقفة أمامه ويرتسم على ثغرها ابتسامة غامضة.

اعتقد أندرية أن هذه هلوسة بصرية؛ لأنه ظل يفكر في نادية أيام كاملة، يكرهها، ويجري معها بعض الحوارات الملتهبة. لذلك ليس غريبًا أن ينذهل هكذا وتصيبه الدهشة، الأمر الذي جعل نادية تقترب منه وتقول:

ـ أنا لست شبحًا، لقد اشتقتُ إليك فقط.

وجلست نادية بجواره. وكانت رائحة الكريز تفوح من شعرها.

هبطت الطائرة. فبدأ أندرية يدبر أموره، ويتقابل مع بعض الأشخاص البارزين ممتنعًا عن أخذ نادية معه في أي مكان يذهب إليه. لأن تقريبًا شركاء العمل جميعهم الذين كانوا في موسكو يعرفون سفيتلانا حق المعرفة.

شعرت نادية بالغضب. فعزمت على وضع تطور آخر للأحداث. وقد علقت آمالًا كبيرة على دفع أندرية إلى اتخاذ القرار المناسب. ولديها في ذلك العديد من الأوراق الرابحة: الحب، والشقة، والطفل. فماذا ينقصها حتى تحقق انتصارًا كاملًا؟ لكن أندرية يقف ثابتًا مثل شجرة البلوط في المرج. نعم، لقد شعر بالتوتر عندما اختفت نادية من حياته فجأة. ولكنها ظهرت مجددًا فشعر أندرية بالطمأنينة.

ظلت نادية بمفردها، فشرعت تتعرف أمريكا.

لوس أنجلوس، مدينة تمتد إلى الاتجاهات جميعها: من المحيط حتى هوليوود، يعيش فيها مجتمع بسيط من طبقة واحدة. وفي وقت من الأوقات قام الأمريكيون باقتطاع هذه المدينة من المكسيك، لذلك كانت المدينة أقرب إلى النكهة المكسيكية، ويُرجح أنها كانت قرية وليست مدينة.

أما مدينة نيويورك فشيء آخر تمامًا. هذه هي أمريكا؛ مدينة الشباب والحيوية. كانت نادية تتجول على شاطئ برايتون، وتقرأ اللافتات الروسية. ثم تجلس في أحد المقاهي التي تقدم طعامًا أوديسيًا: البطاطا المقلية في الزبد مع طبقة مقرمشة، وهذا سم بالنسبة إلى المعايير الأمريكية؛ مادة مسرطنة مميتة.

فهمت نادية سريعًا أن على المهاجرين ألا يتباهوا بروسيا ويمجدونها بأية حال من الأحوال، لأنه إذا كان الوضع سيئًا في روسيا، فهذا يعني أنهم يتصرفون بطريقة صائبة، أما إذا كان الوضع جيدًا في الدولة، فماذا يفعلون هنا على شاطئ برايتون، وفي عربات المترو المقعقعة؟ يتجسد هذا في كلمات الأغنية التي تقول: «لقد هجرت شاطئ وطنك، وذهبت إلى آخر لا يليق بك ....».

ظلت نادية تجلس في المقاهي بمفردها، وتأكل الوجبات المليئة بالكوليسترول والمواد المسرطنة، في الوقت الذي يذهب فيه أندرية الماكر إلى أصدقائه الأثرياء من الأمريكان ويلتهم هدايا البحر: الكركند، والجمبري،

وبلح البحر، والكابوريا.

وفي المساء سألته نادية:

ـ لماذا جئت بي إلى هنا؟

ـ جئتُ بكِ؟ أنا حتى لم أدعُكِ. لقد قمتِ بملاحقتي وجئتِ بنفسك.

كان هذا حقيقيًا وفي الوقت نفسه غير حقيقي. لأن أندرية كان يتمنى من أعماق قلبه أن تظل نادية معه، لكنه لم يخبرها بذلك. وكانت نادية سترحل عنه فورًا إذا أحست بأنه ليس مسرورًا بوجودها.

لم تحتمل نادية هذا وانقضت عليه باللكمات الخفيفة، فأمسك أندرية يديها بقوة، لأنه بطبيعة الحال أكثر قوة منها، الأمر الذي جعل دموعها تسيل من شدة الغضب، في حين كان أندرية يضحك ويقبلها. ماذا كنتُ ستفعل أنت؟

وفي مساء اليوم الأخير ظل الهاتف يرن لحظات طويلة. ولم يكن مسموحًا لنادية أن تلمس سماعة الهاتف، إلا أنها قامت بالرد:

ـ نعم، أسمعك.

أطبق الصمت في سماعة الهاتف.

ـ لا أسمع شيئًا.

استشاطت سفيتلانا غضبًا:

ـ ماذا تفعلين عندك؟

ـ ما نفعله دائمًا؛ نمارس الحب سويًا.

وفي تلك اللحظات خرج أندرية من الحمام. فأعطته نادية سماعة الهاتف وذهبت. لعل الموقف يشتعل كما تتمنى.

أقلعت الطائرة عائدة إلى الديار كانا صامتين لا يتفوهان بكلمة واحدة. فهم أندرية أن على سفيتلانا أن تشعر بما يحدث حولها؛ ففي البداية حنث الزوج بيمينه، الذي أقسمه في حضور الأب ميخائيل. فأصبح حانثًا بالعهد. ثم غفر لنادية ذلك الحديث الإذاعي الذي أجرته في الإذاعة؛ العار المعلن. ثم ابتزازها له. من يكون أندرية بعد كل هذا؟ إنه بالتأكيد يحاول التخلص من هذه الحالة الحرجة، لكن...

كانت نادية تجلس في الطائرة وتفكر: هل سيكون من الجيد أن تهجر ابن الكلبة هذا، وتدفن الحب الحي تحت الأرض؟ فأي حُب هذا الذي يأخذك إلى القاع، وماذا ينتظرها؟ الشيخوخة؟! لا. هذا ليس من أجل نادية. فإما أن تُصبح زوجة له وإما لا. وهناك خيار آخر، وهو أن تتزوج من بوريس أو جورج الأمريكي، ثم تخونه مع أندرية. عندئذٍ سيصبحان متساويين. لأنه لا يعطيها الآن سوى النصف، أما هي فتعطيه كل شيء.

شرع المضيفات في توزيع الوجبات على الركاب، بالإضافة إلى زجاجات النبيذ الصغيرة.

قامت نادية وأندرية بملء كأسين من البلاستيك. ثم أخذا يتبادلان النظرات، حتى قطعت نادية العابسة هذا قائلة:

- تزوجني.

- لا أستطيع.

- لا تستطيع « تعني أنك «لا تريد». لأنك إذا كنت تريد هذا، كنت ستجد مخرجًا مناسبًا.

- ربما. أنا لا أستطيع ولا أريد.

الأمر واضح تمامًا. والحديث لن يُجدي نفعًا. وهذا يعني أن تلك القصة ليست لنادية وأندرية، وإنما لأندرية وسفيتلانا. وتحكي القصة أنه على الرغم من

العشق الهائج، ومصادمات الحياة، لم يبتعد أندرية سنتيمترًا واحدًا عن زوجته. فحب سفيتلانا مثل المحيط، الذي تختفي فيه السفن والمحطات الفضائية والقارات الكاملة دون أثر، ولا حديث هنا عن البشر.

وفي يوم من الأيام اتصل الشخص الأمريكي بنادية وطلب منها المجيء. فتساءلت نادية:

- ما الأمر؟

- تعالي وستعرفين.

ذهبت نادية إليه سريعًا ونظرت من النافذة فإذا شجرة البلوط وبجانبها مجموعة من العمال وحفارة صفراء. فاشتدت بها الهواجس:

- ما هذا؟

- إنهم يعزمون بناء مرأب تحت الأرض، وهنا في الأعلى سيكون موقفًا لانتظار السيارات. ستهاجمني العوادم من النافذة، وأنا أعاني من مشكلة في الرئتين. لذا سأضطر إلى الرحيل.

- انتظر قليلًا، سأفكر في شيء ما.

- لقد احتج الجيران جميعًا.

- وكيف كان احتجاجهم؟

- اظهروا استياءهم.

- فقط؟

- وماذا عليهم أن يفعلوا غير هذا؟!

فأطلقت نادية ضحكة ساخرة: يطلقون على الشخص الأمريكي ...

ويعتقدون في روسيا أن الشعب الأمريكي يحب العمل وذا مِراس وهمة. لكنه أيضًا تأملي وسريع الإدراك. وكان جورج شخصًا مثقفًا، درس مجموعة غير عادية من المفردات اللغوية في اللغة الروسية. وكان يقول عبارات غريبة بلهجة محددة، فتطرق السمع وكأنها كلمات بذيئة. ويحتمل أن تلك العبارات تكون جزءًا من إحدى الأغاني.

اقترح جورج قائلًا:

- تريدين مني أن أتحدث مع العمال؟

- لن تُجدي معهم تلك المفردات، فهم في حاجة إلى الأموال.

- لكنهم كثيرون للغاية.

فكرت نادية قليلًا ثم قررت اللجوء إلى الطريق القانوني. فقامت باستدعاء جينا المحامي، شخص لا يختلف كثيرًا عن المحامي السابق. وصل جينا واستفسر قائلًا:

- الأمر يحتاج أولًا إلى تفسير، من سيقوم ببناء هذا، من سيكون صاحب المشروع؟

اتضح فيما بعد أن موسكو صاحبة المشروع. لذلك ظهرت الحاجة إلى جمع التوقيعات ثم الذهاب إلى حكومة موسكو. فاقتطعت نادية جزءًا من وقتها وقامت بالعروج على المئة شقة حتى تجمع التوقيعات والأموال، التي لم يكن سكان العمارة الأثرياء يبخلون بها على أي شيء.

وفي نهاية القائمة قامت نادية بتسجيل أربعة أسماء لعائلات بارزة. ووقعت لهم بنفسها باستخدام أربعة أقلام مختلفة. ومن سيبحث وراء هذا؟ خاصة

أن لا أحد يعرف كيف يُزَوِّر توقيع عازف التشيلو روستروبوفيش أو مايا بليسيتسكايا. ولا أحد يعرف أيضًا عناوينهم. لأنهم يعيشون في العالم كله؛ في كل مكان، وبالتالي لن يصعُب عليهم امتلاك شقة في هذه العمارة.

وبعد انتهاء نادية من جمع الأموال أخذت تندفع مثل الصاروخ، وكانت وجهتها في هذا مبنى مجلس المدينة القابع في موسكو. ثم اقتربت بالسيارة وألقت إلى المبنى نظرة لا تخرج إلا من سمسمار عقارات. فأجمل بهذا المبنى الذي شُيد بأفضل الوسائل في حقبة ستالين، فخاف العمال أن يهملوا في عملهم أو يختلسوا شيئًا ما. لذلك يقولون أن الخوف مفيد في بعض الأحيان.

نظرت نادية إلى باب الدخول، فإذا بأحد رجال الشرطة يقف في الخارج، واثنان آخران متمركزان في البهو، فاستوقف أحدهما نادية قائلًا:

ـ أين تصريح الدخول الخاص بكِ؟

ـ لا أملك تصريحًا. لكن الأمر في غاية الأهمية.

وجهت إليهما نادية نظرات التوسل ورفعت أمامهما ورقة مليئة بالتوقيعات، فقال رجل الشرطة الآخر:

ـ اطلبي إليهم أن يسمحوا لكِ بالدخول.

ـ وإلى من يُمكنني أن أطلب؟

ـ مَن تقصدين بمجيئك إلى هنا؟

وبينما يتحدثون وقع نظر نادية على وجه مألوف؛ رجل بدين ذي وجه بَيضي ورأس دائري يخرج من المصعد. كانت نادية قد رأته على شاشات التلفاز، في برنامج «من دون رباط عنق».

هرعت نادية إلى هذا الشخص ووقفت أمامه. وعجز الشرطيان عن اللحاق بها فأخذا يتابعانها باهتمام. ولم تتباطأ نادية عن تقديم نفسها:

ـ أنا نادية فارلاموفا، ابنة الفنانة فارلاموفا.

لم يكن الرجل البدين على معرفة بتلك الفنانة، ولكن هذا ليس بالأمر المهم. فالأهم أن هناك امرأة شابة تقف أمامه تشبه كارمين التاتارية.

ـ أنا المحافظ إيفان شوبين.هل هناك مشكلة ما؟

ـ لقد أردتُ الدخول، لكنهم لم يسمحوا لي عند البوابة.

ـ إلى من تريدين الذهاب؟

ـ لا أدري.

ـ وما الأمر الذي أتيتِ فيه؟

ـ ثمة شجرة بلوط أمام العمارة التي أسكن فيها. وعمرها يتجاوز السبعين عامًا. وكان بوشكين في وقت من الأوقات يستريح تحت هذه الشجرة ويستظل بظلها. وكذلك أندرية بولكونسكي.

ـ ليس هناك أحد يُدعى أندرية بولكونسكي؛ هذا الشخص من ثمار خيالك. وكذلك شجرة البلوط التي تزعمين أنها ماتزال خضراء.

ـ لكن بوشكين شخصية حقيقية.

اعترضت نادية وأخرجت الورقة من حقيبتها، فأخذها المحافظ وشرع يدرس ذلك الخطاب الجماعي. في حين كانت نادية تنظر إلى صلعته النظيفة اللامعة التي تُشبه كرة البلياردو. فتذكرت سريعًا إحدى حلقات برنامج «من دون رباط العنق»، التي قام فيها المحافظ باستعراض مزارعه وحقوله، وإسطبل

الخيل، الذي تبلغ تكلفة كل جواد فيه أكثر من السيارة المرسيدس. كان رجل فاحش الثراء، مثل أوناسيس، وربما أكثر ثراءً منه. أعاد المحافظ الورقة إلى نادية قائلًا:

ـ عليكِ الذهاب إلى كروجلوف.

ـ لن يستقبلني.

فكر شوبين قليلًا ثم قال:

ـ حسنًا، اتبعيني.

فسارت نادية مندفعة وراء المحافظ. وقبل الدخول إلى المكتب، التفت إليها وسألها:

ـ إليست بليسيتسكايا تعيش في ميونخ ؟

ـ نعم، إنها تعيش أيضًا في ميونخ.

وكان كروجلوف رجلًا أشيبًا عابس الوجه.

جلس المحافظ أمامه، وأخذا يتحدثان بصوت خافت مستخدمين لغتهما الخاصة، تمامًا مثل الطيارين اللذين كانا في قمرة القيادة. الاختلاف الوحيد أن هناك كانا يستخدمان مصطلحات تقنية، أما هنا فيتحدثان بكلمات بيروقراطية: حُدِدت القضية، لقد حلت المسألة. وأشياء أخرى بين السطور. يملكان لغة خاصة مثل الثعالب والذئاب. ويفهمان بعضهما بعضًا، لأنهما من سرب واحد.

وجلست نادية بعيدًا عنهما لأنها لم تكن من هذا السرب، الذي بالتأكيد لن يسمح لها بدخول الدائرة، لأنها كانت من الذين يطلبون فقط. أما هما فمن هؤلاء الذين يعطون أو لا يعطون. نظر كروجلوف إلى الخطاب قائلًا:

ـ يقتل الناس بعضهم بعضًا، وهنا يشفقون على شجرة.

فأجابه المحافظ:

ـ إذا بدأنا بالإشفاق على الشجر، ربما سيصل الأمر بعد ذلك إلى البشر.

نحى كروجلوف الورقة جانبًا ثم استطرد قائلًا:

ـ القضية ليست بهذه البساطة. سيكون هذا إهدارًا للمال العام. وقد تسبب الضرر لبعض الأشخاص.

ـ أنا أعرف جيدًا الأشخاص الذين يمانعون هذا. لكن علينا أن نأخذ الرأي العام بعين الاعتبار. لا سيما أننا في أوقات ...

ومجددًا شرعا في التحدث بلغتهما الخاصة عن بعض الأمور المهمة. فأدركت نادية أن المحافظ عرج على كروجلوف ليس من أجلها. ليس من أجل الشهامة واللطافة. بل من أجل نفسه، لأنه كان يحتاج إلى شيء ما. ربما، يسعى إلى امتلاك عمارة خاصة داخل المدينة.

توصل المحافظ إلى حل بشأن قضيته، ثم قال وداعًا ورحل. تدحرج مثل كولوبوك. وظلت نادية وجهًا لوجه مع كروجلوف. فأخرجت من حقيبتها ظرفًا منمقًا ووضعته على الطاولة. نظر كروجلوف إلى الظرف بتوتر شديد. حدث هذا كله بطريقة غير مباشرة. لكن من الواضح أن ابنة فارلاموفا لم تكن تعرف التفاصيل الدقيقة. لقد اصطحبها المحافظ إلى المكتب، وهذا يعني أن العلاقات هي التي تُجدي وليس الأموال.

نظر كروجلوف إليها قائلًا:

ـ خذي هذا فورًا. أنتِ لم تفعلي هذا، وأنا لم أره.

شعرت نادية بالارتباك وقامت سريعًا بإعادة الظرف إلى حقيبتها. وقد ظهر على وجهها آيات الخجل، فقالت لمجرد القول:

ـ إذا بُني هذا المرأب أمام العمارة، فسأحرق نفسي.

ـ هذا سخيف. لن يُقدر أحد هذا. لقد قتلوا فون ليستافا، ولم يحدث شيئًا. ثار الناس في البداية ثم نسوا. و سيحدث الأمر نفسه معك.

أخذت نادية تُفكر: «شخص أحمق. أيظن بأنني سأحرق نفسي فعلًا بسبب مرأب سيارات؟ سيكون من الأفضل لي حرق المرأب نفسه. والأفضل من ذلك كله بيع الشقة بثلاثة أضعاف سعرها وشراء شقة أخرى في مكان مختلف.».

الشيء الذي يراه غالبية الناس العاديين صعبًا للغاية، وبالتحديد: بيع الشقة، وشراء شقة جديدة، ومن ثم الانتقال للعيش في مكان آخر، أمر ليس له أية قيمة بالنسبة إلى نادية. والأمر الوحيد الذي يحز في نفسها أنها لا تستطيع التغلب على سفيتلانا. أما الأشياء الأخرى فتُحققها من مرة واحدة، مثل كسر حبة البندق.

وبعد مرور أسبوع دوى صوت الهاتف لدى نادية، فإذا بأحد العاملين في مكتب كروجلوف يخبرها بأن القضية قد حُلت.

وبعد ثلاثة أيام أخرى قامت الحفارة بإنزال الجاروف وذهبت في اتجاه غير معلوم.

شعرت نادية بأنها حققت انتصارًا حقيقيًا. لقد انتصرت على الدولة بأكملها.

اتصل ساكنو العمارة بنادية ووجهوا لها أسمى آيات الشكر. الأمر كان يُشبه المغنية التي تنهال عليها الكلمات المعسولة بعد انتهائها من أداء فقرتها الغنائية، وقد بدا أنها كانت في حاجة شديدة إلى مثل هذه الكلمات

الإنسانية. لأنها دائما ما كانت تشعر بالإهانة مما يفعله أندرية معها. فدُفنت «الأنا» المثالية في الأرض. فأحست نادية أنها تتقلب في التراب. أما الآن فإن كرامتها ترتفع عن الأرض وتتوهج بمرور الوقت. فتمنت نادية لو تتصل بأندرية لتصيح في وجهه بعبارات النصر. لكن من أجل ماذا؟ سيقول أندرية: «هيا نتقابل». سيأتي ثم يغادر. لا، لن يحدث هذا مجددًا.

أما بخصوص الأموال التي جمعتها نادية من أجل تقديمها رشوة للمسئولين، فاحتفظت بها لنفسها، لأنها ثمار أتعابها وغلة مجهوداتها التي بذلتها. صحيح أن كروجلوف لم يأخذ الأموال، لكنه كان يستطيع أن يأخذها.

قامت نادية بشراء سيارة جديدة. وحجتها في ذلك أن سيارتها القديمة كان حالها يتدهور باستمرار وبالتالي كانت تستنزف أموالًا كثيرة.

وفي المساء دوى صوت جرس التليفون. فخمنت نادية أن هذا اتصال من أحد الجيران، الذين يودون شكرها. فرفعت السماعة لكنها لم تسمع شيئًا، فالتزمت هي أيضًا الصمت وأخذت تنتظر أن يبدأ المتصل بالكلام. فربما يكون هذا ليف روبينشيك. وإذا فجأة بأندرية:

ـ حسنًا. أنا موافق. لقد تغلبتِ علي.

ـ هل أنت في حالة سكر؟

ـ نعم. لكن هذا ليس له علاقة بما أقوله. لقد تعبت من مقاومتك ومقاومة نفسي. أنا أستسلم.

وضع أندرية السماعة. فجلست نادية كالمخبولة تفكر، لقد سعت طويلًا من أجل سماع هذه الكلمات، بعدما مدت يدها محاولة أن تمسك بالهدف، الذي كان يبتعد طوال الوقت، واتضح في نهاية الأمر أن نادية كانت تجري في مكان واحد. وفجأة يسعى الهدف بنفسه إليها ويصبح وردي اللون.

لم تستطع نادية أن تشعر بالفرح؛ لأن الحيرة كانت تهاجمها من الداخل.

فالتقطت سماعة التليفون وأدارت رقم ناليا:

ـ قال لي: «أنا موافق. لقد تغلبتِ على» ماذا يقصد بذلك؟

ـ إنه يطلب منكِ الزواج.

ـ وقال أيضًا: لقد تعبت، أنا أستسلم.

ـ يعني هذا أنه سيترك زوجته و يتزوج منكِ.

سكتت ناليا عن الكلام، لأنها دائمًا ما كانت ترى أن إصرار نادية شيئًا مخزيًا يدعو للخجل. فكانت توبخها في أغلب الأحيان قائلة: لن يُجدى هذا نفعًا. أما الآن فيبدو أن نادية كانت على صواب. فها هي تحقق الانتصار المرجو. أما ناليا فما تزال في مكانها. الأشخاص المتواضعون يشعرون بالخجل وبالتالي يمكثون في الظل، حيث السقيع والظلام الدامس. أما الأماكن المشمسة فيشغلها الأشخاص الوقحون أقوياء العزم. ثم قطعت ناليا صمتها بنبرة حزينة:

ـ مُبارك لكِ.

وضعت السماعة. فأدركت نادية أن صديقتها تشعر بالحزن. فقامت بالاتصال بنينا:

ـ أنائمة أنتِ؟

ـ لا، أنتظر خروج الفطيرة من الموقد. ماذا هناك؟

ـ أنت واقفة أم قاعدة؟

ـ واقفة. أخبريني ما الأمر!

ـ اقعدي. لقد طلب أندرية الزواج مني.

ـ ماذا كنتُ أقول لكِ؟

ـ ماذا كنت تقولين؟

ـ إنه يحبك. وإلا لماذا كان يسامحكِ في كل مرة تُخطئين فيها؟ متى سيكون حفل الزفاف؟

ـ لما نقرر بعد

ـ فلتفعلا هذا في أقرب وقت.

ألقت نينا سماعة الهاتف. لأن المحيطين بها كانوا يعيقونها عن التحدث، أو ربما لأن الفطيرة كانت ستصبح كالفحمة في الموقد.

وبعد ذلك قامت نادية بالتحدث إلى كسينيا، التي علقت على ذلك قائلة:

ـ لايمكن حدوث ذلك؛ إنه يكذب.

ـ لماذا تقولين هذا؟

ـ لأن الوقت تأخر كثيرًا على ذلك. فالرجال إما أن يتزوجوا في الحال وإما لا يتزوجون أبدًا. ولقد مرت عليكما سبع سنوات كاملة من دون أن يتخذ خطوة واحدة.

ـ كان يتأكد من مشاعره.

ـ أنا لا أصدقه. صحيح، لماذا تحتاج امرأة مثلك إلى الزواج؟ لديكِ الأطفال والأموال. ما الشيء الذي يمكن أن يكون أفضل من الحرية؟

ـ الحب.

صمتت كسينيا قليلًا، تحدثت بنبرة حالمة:

ـ أنا أريد بيتًا يطل على البحر، أستيقظ في الصباح أذهب على الفور إلى مياه البحر الدافئة. أمر سيجعلني أعمل طوال اليوم بشكل مختلف. وأفكر أيضًا بشكل مختلف.

ـ هل تستطيعين أن تفكري قليلًا في أحد غيرك؟

ـ ببساطة لن تسمعيني.

ـ وأنت كذلك.

وضعت نادية السماعة وشرعت في التفكير: لقد تلخصت المشاعر الإنسانية المتبقية لدى كسينيا في حبها لوظيفتها. فضلًا عن أنها لا تشارك انتصاراتها مع الناس. وعلى الجانب الآخر شعرت عمارة كاملة بالسعادة بسبب التوقف عن بناء المرأب. فعلى الجميع أن يبصق على سعادة الحياة بأكملها، تلك السعادة التي لا تتحقق سوى بهذه المعاناة وذلك الذل. أما سفيتلانا فيجب عليها ألا تفعل ذلك. والآن يُدوي الرعد ويُسمع صوته المجلجل! مع ذلك ة شيء ما داخل نادية تأثيره مثل تأثير المكابح . فهي لم تعد في حاجة إلى سماع صوت الانتصار بقدر حاجتها إلى الشعور بالهدوء. فاندست في الفراش لتسلم نفسها إلى النوم، وأخذت تنصت إلى صوتها الداخلي، لكنه توقف فجأة. إنه أمر غريب.

وفي اليوم التالي قام أندرية بدعوة نادية لتناول طعام الغداء.

دلفت نادية إلى المطعم الذي يقدم أجود أنواع الجبن جلست على مقعد أمامه. ولم يكن النُدُل يغنون. فمن الواضح أنهم لا يفعلون هذا إلا في المساء.

كانت نادية في انتظار تطور العرض الذي قدمه أندرية أمس. وقد شغلت التفاصيل الدقيقة جزءًا في اهتماماتها: متى سيقوم أندرية بجمع متعلقاته؟ أين سيقام حفل الزفاف؟ ما الظروف التي جعلت سفيتلانا تسمح له بالرحيل؟

لكن أندرية كان واجمًا لا ينطق بكلمة واحدة.

نظرت نادية مباشرة إلى عيني أندرية، الذي أخذ يحملق إلى قصبة أنفها، إلى أذنيها. وظل يحوم بعينيه ولم يقل مجددًا إنه تعب من مقاومة نفسه. فبقي كل شيء على وضعه السابق: سفيتلانا هي الزوجة, ونادية لا شيء سوى عشيقة.

بدأت نادية في تناول الطعام. وقد أصبح كل شيء واضحًا، البارحة كان أندرية في حالة سُكر ولم يكن في وعيه، أما اليوم فقد عاد إلى صوابه وفاق من سكره.

ظلت نادية طوال هذه السنوات تسحب الحجارة إلى إحدى قمم الجبال، تمامًا مثل سيزيف. وعندما أنهت مهمتها تصدعت الأحجار كلها وسقطت إلى الأسفل. لكن سيزيف كان رجلًا عفيًا، أما نادية فامرأة ضعيفة تعاني من التهاب شُعبي مزمن.

قطع أندرية حبل الصمت بنبرة حزينة:

ـ أنا أحبك.

ـ أعرف هذا.

لم يجدِ هذا الحب نفعًا. كانت فائدته تكمن فقط في التأكد من صلابة العش.

وخلال تلك اللحظات قام النُدُل بإحضار السلطة، التي لم تكن الأعشاب فيها مقطعة بالسكين، وإنما ممزقة بالأيدي. ليس بحديد بارد، بل بأيادٍ دافئة.

كانت نادية تأكل في صمت مطبق، وبعد انتهائها قامت بإخراج نقود من حقيبتها. فاقترب النادل منها.

فقال أندرية:

ـ لا تأخذ منها نقودًا.

فوضعت نادية ورقة بمئة دولار على المائدة، لأنها العملة الوحيدة التي كانت تمتلكها في ذلك الوقت.

نهضت عن مقعدها وغادرت.

وعند عودتها إلى المنزل كانت رائحة الفانيليا تسيطر على المكان، لأن تانيا كانت تُعد كعكة الزابيكانكا، في حين كانت ماشا تلهو في الجوار وتلعب، وتساعد تانيا من حين لآخر. أما لوكا فيقوم بتجميع الأشكال بواسطة المكعبات، بهدوء ورزانة ويكأنه ملكًا يبسط جناحيه.

جلست نادية وقد خارت قواها، بعدما مزق أندرية روحها، كما يفعل القط في عش الطيور. على الرغم من أنه جعلها تعيش تجربة الحب. ولم يسبق لنادية أن أحست بمثل هذه السعادة الكاملة، أو بتلك التعاسة الكاملة مع أي أحد. أما الآن فكل شيء قد انتهى. ستعاني نادية من الشيزوفرينيا، فتصب البنزين على نفسها وتضرم فيها النيران.

وما هي إلا ساعات قليلة واتصلت كسينيا حاملة معها أخبارًا جيدة. سيكون هناك بوفيه مفتوح بعد انتهاء أحد المعارض، وسوف يتحمل الرعاة تكلفته بالكامل، فطلبت من ابنتها أن ترتدي ملابس أنيقة، الأمر المفضل بالنسبة إلى نادية و يجب أن تتجاوب معه سريعًا. وخلال المكالمة لم تتطرق كسينيا للسؤال عن أندرية. هل نسيت؟ أم أن المعرض أكثر أهمية من ذلك؟ الأشياء الأخرى كلها غير مهمة إذا ما وُضعت في مقارنة مع المعرض.

وبالفعل كان المعرض مثيرًا للاهتمام.

لقد رأت نادية لأول مرة الأعمال كلها مجمعة في مكان واحد. مجموعة عبقرية من التماثيل، مثل الديك البرونزي، أو البقرة المصنوعة من الطين التي يُزين عنقها بجرس جميل. ولا تختلف كسينيا كثيرًا عن تلك البقرة، فهي امرأة طيبة وصريحة، تتمتع برموش رائعة على عينيها.

كانت نادية تحب مشاكسة كسينيا أحيانًا فتسألها بنبرة ساخرة: ماذا جنيتِ طوال حياتك من العمل؟ لكن المغزى من حياة الأم كان خارج الإطار المادي. كانت كسينيا تتحرك بأصابعها وتهرب إلى عالمها المصنوع من الطين، حيث كانت تشعر بحالة مزاجية جيدة. فالإبداع الناجح يعد أقوى أنواع المخدرات. وهذا أكثر أهمية من الأموال.

نعم، يمكن للأموال أن تُجمل الحياة وتُزينها، لكنها مع ذلك لا تستطيع أن تحقق مغزاها. وكسينيا امرأة ثرية، ليس لأنها تملك أموالًا وفيرة، ولكن لأنها لا تحتاج إلى أشياء كثيرة.

كان الناس يتجولون في أرجاء المعرض جميعها. وكانت هناك امرأة بجوار كسينيا تُدعى أفيلينا، أحد الأشخاص القادمين من الوزارة. بالإضافة إلى بعض الشخصيات التي ترتدي سترات ينة ومنمقة، لا شك في أنهم الرعاة.

قامت كسينيا بإحضار نادية أمام الجميع وقالت:

ـ صحيح، لدي ابنة جميلة.

كما لو كان هذا غير واضح.

نظرت نادية بأسف إلى والدتها. امرأة موهوبة، لكن الموهبة مخبأة داخلها، أما من الخارج فهي مهرجة تمتلك روح دعابة ثقيلة. ربما، شعرت كسينيا بالارتباك. وعندما لا يثق الشخص في نفسه، يشرع في النفاق والتصنع.

انتهى المعرض وتوافد الناس على البوفيه .

كانت الموائد تأخذ شكل حرف الـ«ب» المقلوب، وكان الطعام مخزيًا: بطاطا مسلوقة بقشرها، لكنها ساخنة. ورنجة بروليتارية، لكنها قليلة الملح؛ وشطائر السجق، لكن السجق طازج للغاية؛ وفاكهة لكنها مقطعة لأربع قطع.

بدا أن الرعاة إما فقراء وإما بخلاء. فشعرت نادية بالخجل، ومع ذلك أصرت على البقاء ولم ترحل إلى أي مكان. قامت بصب الفودكا في كأس زجاجي حتى يعتقد الناس أنها تشرب المياه المعدنية ليس إلا. وبدأت تأخذ رشفات صغيرة، وتغرق ذلك الفراغ الموجود داخلها. فمن قبل عندما كان كل شيء يتحطم داخلها وينهار، كانت تُجري اتصالًا كل ثانية لتشرح لهذا وتثبت لذاك. أما الآن فلا شيء في الداخل عدا صحراء، ورياح محملة بالرمال، ومع ذلك لا تريد أن تشرح أي شيء لأي أحد؛ وقد اقتنعت أن الكلمات مثل الهواء، الذي يهتز بفعل الصوت. يتوقف الاهتزاز بعد ذلك تدريجيا. وينتهي الأمر. امتلكت كسينيا طوال حياتها ديكًا وبقرة. شيئان في منتهى الروعة يستحقان الحياة بأكملها. لكن من يعرف أن الحياة لا تستحق شيئًا.

وعلى الناحية الأخرى من المائدة كان يقف المحافظ شوبين و يحملق بنظره إلى نادية. ما الذي جاء به إلى هنا ؟ اقتربت منه نادية، وسألته:

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ وماذا، ياترى، يفعل الشخص الثري في معارض البيع؟

ـ يشتري.

ـ هذا صحيح، يا لكِ من امرأة ذكية، وماذا تفعلين أنتِ هنا؟

ـ أنا ابنة الفنانة فارلاموفا.

ـ أحسنتِ.

ـ علامَ؟

ـ لقـد اخترتِ أمًا جيدة. كان يمكنك أن تأتـي إلى هذا العالم من رحم امرأة أخرى حسب هواكِ.

أرادت نادية أن تبتسـم بأدب، لكنها أعادت التفكير. ولماذا يبتسم المرء من الأساس إذا كان لا يريد ذلك؟

ـ وما الشيء الذي تريد شرائه؟

ـ ثلاثة أعمال.

ـ أية ثلاثة؟

ـ الديك، والبقرة، والحمام.

فتمتمت نادية قائلة: شـخص كيِّس. على الرغم من أنه قروي، فإنه يمتلك ذوقًا رفيعًا.

ـ سـيكون مـن الصعـب التخلـي عن تلـك الأعمـال؛ كأنك تقـوم بتوزيع أطفالك.

ـ يمكنكِ أن تأتي إلي في سيبيريا وتزورينهم.

حركـت نادية حاجبيها بطريقة عشـوائية. سـأقطع سـبعة كيلومترات ونصف لأحتسي الكيسيل .

كانت نادية قد شربت ثلاث كؤوس من الفودكا، فخافت أن تقود سيارتها. لذلك عرض المحافظ أن يقوم بتوصيلها إلى البيت.

ألقت نادية بنفسها على المقعد الخلفي، ودخلت في سبات عميق سريعًا.

وكان سائق السيارة يتمتع بالرزانة. فالتفت المحافظ قائلًا:

ـ أولًا ستوصلني أنا إلى المنزل.

عنى هذا أنه لا ينوي السير في موسكو، ومن تضييع الوقت وفقدان الطاقة.

اقتربت السيارة من إحدى عمارات النخبة، حيث كان لدى المحافظ شقة عمل يسكن فيها خلال رحلات العمل حتى لا يتنقل بين الفنادق. وكانت هذه الرحلات تحدث كثيرًا، فمنذ فترة طويلة وهم يحاولون جذب هذا المحافظ إلى موسكو. فالأشخاص الأذكياء ليسوا كثيرين في الدولة كما كان يبدو. أما مُبهرجو الدوما فمثل الديوك، يبسطون رقابهم ويصيحون، ويظهرون ببهائهم. ولا يُجدي هذا نفعًا. ومع ذلك لم يكن المحافظ يود الذهاب إلى موسكو. كان وحشًا ضاريًا لا يقيده شيء، تمامًا مثل الدب. ملك الغابة.

خرج المحافظ من السيارة، فاستيقظت نادية، واقتفت أثره.

ألقى عليهما السائق نظرة استفهام. فالتفت إليه المحافظ:

- حسنًا، غدًا ستأتي.

- متى؟

- سأتصل بك.

وفي شقة المحافظ كان هناك عدد غير معقول من البط: خزفي، وزجاجي، وحجري، وكذلك من ورق البابا ماشا. فاندهشت نادية:

- ما كل هذه الطيور؟

- تقوم زوجتي بتجميعهم.

- زوجة مجددًا. أشعر بالقيء من هؤلاء الزوجات.

- ماذا تقولين؟

- لا شيء.

ذهبت نادية حتى تستحم، فخلعت ملابسها وانسالت تحت المياه الدافئة، في حين كانت تشعر ببرودة داخلية، وقد اتضح أنها لن تشعر بالدفء طوال حياتها.

ظل المحافظ ينتظر وينتظر، وكان عليه الاستيقاظ مبكرًا، والذهاب إلى العمل في ساعة محددة، والالتزام بهذا. حيث كان من الضروري إجراء ندوة للمثقفين في بلدته كل صباح.

وكان المفكرون والمثقفون بعد مرحلة البيريسترويكا يتفرقون في الزوايا وينبحون، مثل الكلاب، ولا يسمعهم أحد. على الرغم من أنهم كانوا يعيشون في تضافر، خلال الاشتراكية ويملكون اتحاداتهم، ونواديهم، وبيوتهم. وكان الشاعر في روسيا أكثر من مجرد شاعر. أما الآن فالشاعر في روسيا لا يهتم أحد لأمره. ولا يعنى أحد بالموهبة في العموم أو الأفكار التي لا تقدر بثمن. كان من الأفضل للمرء أن يموت قبل أن يطلع على هذه المصيبة.

كل هذا وما تزال نادية في الحمام. ولماذ تغتسل من الأساس؟ لم يكن المحافظ ينوي النوم معها. فمثل هذه الشقق تكون مليئة بأجهزة التنصت وكاميرات المراقبة التي تقوم بالتصوير ثم تعرض المؤخرات العارية على شاشات التلفاز. نعم، كان هذا موجودًا في روسيا. الأزواج الذين يعملون في المصالح الحكومية يفقدون وظائفهم، والأخطر من ذلك ، يفقدون شرفهم. الأمر الذي قد يجعل الشخص يطلق النار على نفسه وينتحر.

لم يتحمل المحافظ هذا فذهب إلى الحمام واسترق النظر. فإذا بنادية نائمة تحت طبقة من الصابون، ومتكئة برأسها على كتفها الأيسر.

خاف المحافظ أن تكون نادية قد أفرطت في شرب الخمر، فعندئذ ستصبح في شقته جثة امرأة شابة؛ وهو أمر لن يمر مرور الكرام على الشرطة والصحافة، وكل هذا قبيل بدء المرحلة الثانية من الانتخابات.

خلع المحافظ سترته، وبدأ يسحب نادية الثقيلة العارية من تحت الماء الدافئ، وقد وضعها على كتفه مثل جوالق البطاطا، ثم أخذها إلى غرفة النوم، ورمى بها على السرير.

تقلبت نادية قليلًا ثم أخذت وضعية الجنين وأكملت نومها. وكان هذا سقوطًا، من دون أحلام، وخارج الفضاء الزماني والمكاني.

كان المحافظ ينظر إلى نادية العارية كمؤلفة فنية. وكأنها شُكِلت من قطعة واحدة؛ لا يزيد فيها شيء أو ينقص.

كان إيفان شوبين على مشارف الحادي والخمسين. لكنه لم يكن يحس بذلك، وكان يعرف جيدًا أن هناك عشرين عامًا أخرى ثم سيُغطى بغطاء اللامبالاة. والعشرون عامًا ليسوا بالوقت الكثير. فضلًا عن أن الأعوام تنقضي بضعف سرعتها خلال النصف الثاني من الحياة. خمن المحافظ أن قيمة الحياة الأساسية تكمن في الشباب، الذي تتمتع به نادية الآن.

قام المحافظ بإغلاق النور واستلقى بجوار نادية، التي كانت تفوح منها رائحة خفيفة، تشبة رائحة الزنبقة. وربما تكون هذه هي رائحة نضارة الشباب. فتمتم المحافظ قائلًا: «يا إلهي، منذ متى وأنا لم أشعر بهذا الشعور».

ظل شوبين متزوجًا لمدة ثلاثين عامًا. فنضبت مشاعره وبردت. وأصبح متشوقًا إلى رياح التغيير، لكنه لم يفعل شيئًا واحدًا في سبيل تحقيق هذا. وقد حلم بأنه سيأتي اليوم الذي ستقترب منه إحدى الفتيات الرائعات تأخذه من يده وتصطحبه إلى حياة أخرى تعتني به فيها وتهتم لأمره، لأنه لا يملك الوقت ولا الطاقة من أجل الشعور بالمعاناة.

وقبل بزوغ شمس الصباح رأت نادية حلمًا بأنها تهبط من ضفة عالية بواسطة زلاجات في قدميها، وفي الأسفل تظهر نقرة في الجليد ممتلئة بالمياه الباردة، فأخذتها الزلاجات مباشرة إلى تلك النقرة. لحظة أخرى وستموت. لقد رأت نادية الموت بعينيها. فتغلغل الرعب في كل ذرة من جسمها. كان لديها موعد مع حتمية الموت. غطست نادية تحت المياه، وبدلًا من أن تشعر بالاختناق والبرودة أحست بنشوة جنسية شديدة. وهذا يعني أن سكرة الموت ما هي إلا نشوة

جنسية، والناس لا تعرف هذا. والموتى بالتأكيد لن يعودوا مجددًا. وبالتالي فإن الموت يبدو أمرًا جيدًا.

فتحت نادية عينيها في وقت كان المحافظ يقوم فيه معها بحركات عشوائية ساخنة. وقد ساعدت أفعاله على استمرار حالة الاسترخاء. نظرت إليه نادية وقالت:

- مرحبًا.

وكانت سعيدة أن نقرة الجليد لم تكن سوى حلم عابر.

وفي اليوم التالي ظل المحافظ يعمل كالنحلة طوال اليوم. وكان هناك عدد لا يُحصى من القضايا المعلقة، لكنه تمكن من إيجاد حل مناسب لها. فكان يتصل بهذا، ويتلقى اتصالًا من ذاك، ويعرج على أولئك، ويستقبل هؤلاء. ومهما كان الموضوع مهمًا، فإن إيفان شوبين لم يكن يفكر في شيء سوى نادية. وبالتأكيد كان هناك موضوع للمحادثات التي يجريها، لكنه كان على خلفية ما؛ خلفية نادية النائمة على الفراش، وأنفاسها الشبابية، ثم نادية بعد الاستيقاظ من النوم.

كانت حياة المحافظ الشخصية لا تختلف كثيرًا عن الساعة الرملية التي لا تنتهي، لأن الرمال تنساب من جانب إلى آخر. والحسنة الوحيدة في ذلك هي الاستقرار. وكان هذا موجودًا، وما يزال، ولن ينتهي. لكن أليس القبر أيضًا يتمتع بالاستقرار؟ فلماذا إذًا لا يتعجل المرء في دخوله؟

كان المحافظ القوي، ملك الغابة، دُبًا وحيدًا، يشعر بوحدته ليلًا. أما في الصباح فكانت تلك الوحدة تنتزعه وتدفع به إلى الماضي، الذي طالما كان مثيرًا ومليئاً بالتوتر، مثل الروليت، أو رياضة القفز بالزانة: الركض بسرعة، التوكؤ على الزانة ومن ثم الصعود إلى الأعلى، وتجاوز العارضة.

ومؤخرًا رغب أحد الأشخاص في سرقة الزانة من المحافظ حتى يفشل في القفز وتجاوز العارضة. شخص أكثر شبابًا، يمتلك نابان قويان، لا يخشى شيئًا في الحياة، ويبصق على الأرض مثل المجرم.

ولا شك في أن الوقت يعمل لصالح الشباب، لكن من الأفضل ألا يُفكر في هذا. فكما يقولون: ما يراه الشيخ وهو جالس, لا يراه الشاب وهو واقف.

إذًا، من الأفضل التفكير في ابنة الفنانة.

طلب المحافظ من مساعده أن يعثر على نادية فارلاموفا، ويطلب منها أن تتصل به، وكذلك أن يرسل إلى بيتها باقة جميلة من الزهور. وكانت السلطات تمتلك حدائق خاصة بها وأشخاص متخصصين في تزيين باقات الزهور.

وبالفعل تحدثت نادية بعد نصف ساعة إلى المحافظ، الذي سمع صوتها الأجش، فسألها:

ـ أنتِ نائمة؟

كان التوتر يملأ صوته. وبالمناسبة المرة الأخيرة التي توتر فيها المحافظ كانت منذ ثلاثين عامًا خلال اختبار نهاية العام:

ـ لا أدري.

تجيب نادية وهي بالفعل لا تفهم أنائمة هي أم مستيقظة.

ـ فلتأتي إلى شقتي في التاسعة مساءً.

ـ ألا يمكنك أن تأتي أنت هذه المرة؟

ـ إلى أين؟

صمتت نادية قليلًا ثم أخبرته العنوان.

ـ حسنًا، سآتي.

وضع المحافظ السماعة. وقد لاحظ أن نادية لا تهاب شيئًا. تتحدث مع المحافظ كما تفعل مع صديق لها يبلغ نفس عمرها؛ أمر جيد للغاية. لقد سئم المحافظ نظرات التملق والعبارات التي تنتهي عادة بكلمة «أعطيني».

وكان الجميع يرونه مصدرًا لتلبية طلباتهم، من سكن وخدمات وأموال. ولا أحد يحتاج إليه شخصيًا، غير ملتفتين في ذلك إلى حالته المزاجية، ووحدته، وارتفاع ضغط دمه.

*****

وفي المساء ذهب إيفان شوبين إلى العمارة التي تعيش فيها نادية. ثم ضغط على زر الجرس. فخرج رجل أملس، يرجح أنه بلغ سن التقاعد، فسأله:

- من تريد بزيارتك؟

سأله الرجل على الرغم من أنه يعرف المحافظ حق المعرفة. لأن السياسيين آنذاك كانوا يرتدون الملابس وكأنهم عارضو أزياء.

- نادية.

- دقيقة واحدة.

اتصل الحارس بنادية حتى يتأكد من هذا، ثم سمح له بالدخول:

- الطابق الرابع.

صعد المحافظ إلى الطابق الرابع وكانت نادية في انتظاره عند عتبة الباب مرتدية كيمونو أصفر. الجيشا اليابانية. رغب المحافظ في عناقها، ولكنه شعر بالخجل. وشعرت نادية كذلك بالارتباك. فبدا وكأنهما واقفان عند الباب مثل طلاب المدرسة.

دلفا إلى الشقة، فإذا بطفلين يتدحرجان عند أرجلهم مثل حبات البازلاء، صبي وفتاة، وقد شعرا بسعادة فياضة لمجيء الضيف. نظر المحافظ إليهما وسأل:

ـ أبناء من؟

ـ أبنائي. أهناك شخص آخر؟

ـ وهل الزوج هنا؟

ـ أي زوج ؟ لا أملك زوجًا.

تنفس إيفان الصعداء. لأنه خاف أن تكون نادية قد دعته إلى الأسرة، ولمَ لا؟ هل من السيء تكوين صداقة مع محافظ إحدى المناطق البارزة؟

كانت رائحة كعكة التفاح تتضوع من الشقة. وقامت الخادمة الهادئة باصطحاب الطفلين إلى غرفتيهما، اللتين ظل يصدُر منهما أصوات متتابعة.

وكانت المائدة مغطاة في غرفة الطعام. والطبق الرئيس عليها هو البطاطا مع الفطر. وكان المحافظ يحب البطاطا مع اللحم، الذي كان موجودًا أيضًا على المائدة، ولكنه كان بمفرده.

وجهت نادية نظرها إلى المحافظ قائلة:

ـ أشكرك على باقة الزهور. لم يسبق لي أن جائني مثل هذه الزهور الرائعة.

فنظر المحافظ إلى باقة الزهور الموضوعة في تلك المزهرية الكبيرة الموجودة على الأرضية. وكان شوبين يعشق الزهور البرية والقنطريون والبابونج، أما هذه الكالة البيضاء فكانت تُخيفه، لذلك لم يصدق كلمات نادية وقال:

ـ هذا غير حقيقي.

ـ بلى. أنا لا أريد أن أكذب اليوم، ولن أفعل.

كانت نادية تجلس أمامه وعلى وجهها سحابة من الحزن:

ـ هل هذا من مزارع العنب الخاصة بك؟

ـ لا، من مزارع فرنسا؛ فالعنب لا ينمو لدينا في سيبريا.

كانا يشربان وينظران إلى بعضهما بعضًا. فقطع المحافظ هذا بقوله:

ـ أخبريني عن نفسك.

ـ لا يهم.

ـ ولكنني أهتم.

فكرت نادية قليلًا ثم بدأت تخبره بكل شيء. الفترة التي عاشتها في أوروبا، وفي موسكو، وأندرية الذي ظل معها سبع سنوات كاملة. لم تغفل عن شيء واحد وإن كان صغيرًا.

انتهت فترة «أندرية»، والآن ثمة فراغ داخلها وظلام وعدم اتزان، تمامًا مثلما يوجد في الفضاء. وهي لا تعرف كيف سيمكنها العيش مستقبلًا. وقالت معترفة:

ـ لو أنني لم أخشَ الموت لما كنت لأعيش.

ومضت إضاءة خفيفة، بدت فيها نادية فتاة شابة وكأنها ماتزال في مرحلة الصبا، لكن وجهها كان يظهر أنها منهمكة بشدة. فقال المحافظ:

ـ ألم يكن لديكِ رجل من قبل؟

ـ كيف هذا؟ لدي ابن من أحدهم وابنة من الآخر.

ـ الكثير يعني لا أحد. فالمرأة لا تحتاج سوى رجل واحد فقط.

التزمت نادية الصمت. وقد أدركت تلك الحقيقة البسيطة. فأكمل المحافظ حديثه قائلًا:

ـ الألماني شخص مريض، والروسي لا يختلف كثيرًا عن الطفل، الذي يأخذ كل شيء إلى فمه ولا يريد تحمل المسئولية. هذان ليسا رجلين؛ لأن الرجل يتحمل مسئولية المرأة التي تكون معه.

كانت نادية تُنصت لهذه الكلمات باهتمام شديد.

ـ كنتِ بمفردك. من دون ظهر. تعيشين في الحياة بقدر ما تستطيعين. وهذا أمر ليس بالهين. أنا أعرف جيدًا أنه ليس هناك أحد قد وقع في حبك من قبل.

ـ ربما لا أستحق الحب؟

ـ أنتِ امرأة حقيقية غير مزيفة؛ ماسة بين قطع الزجاج. أنتِ ساطعة وغير متوقعة مثل الألعاب النارية في سماء الليل .

«الألعاب النارية في سماء الليل» وجهة نظر جديدة. وكانت نادية تنجذب للأشخاص الذين ينتقدونها ويلومونها قائلين: هذا ممنوع، وهذا سيء للغاية. لكن يبدو أن كل الأشياء يمكن فعلها وكل الأشياء جيدة. ولا يشغلها إلا شيء واحد، هو أن تظل على قيد الحياة.

أحست نادية بالدفء داخلها، فنظرت إلى المحافظ، الذي بدا لها شخصًا وسيمًا يتمتع بصلعة نظيفة وأسنان بيضاء قوية. ومصدرًا للمروءة والرجولة. فقالت له:

ـ فلتبقَ معي.

ـ وماذا عن الأطفال؟

ـ الأطفال في غرفتهم، و نحن في غرفتنا.

ـ لا أستطيع.

ـ لا أفهم.

ـ سأبقى فقط في حالة الزواج منكِ. وعندئذ سيدرك الأطفال جيدًا لماذا أنام هنا.

ـ حسنًا، اطلب هذا مني.

ـ هل ستوافقين؟

ـ بالطبع.

ـ وما حاجتكِ إلى هذا؟ أنتِ امرأة شابة، أما أنا فأبلغ الخمسين من عمري.

ـ لطالما كنت أحلم أن أتزوج من أرسطو أونانسيس. وأنت تشبهه إلى حد كبير.

ـ هل هو أصلع وقصير مثلي؟

ـ عندما ستقف فوق أموالك ستصبح الأعظم شأنًا.

ـ هل تبادلين الشباب بالأموال؟

ـ لا. أبادله بالقوة.

صدق إيفان شوبين هذا. وربما أراد أن يُصدقها ففعل. ولم يكن المحافظ يشعر بعمره، فقط يعرف أنه يناهز الخمسين عامًا. ولكن لم يكن هذا الرقم يعني أي شيء بالنسبة إليه. ومجددًا نظرت إليه نادية:

ـ لا ترحل.

ـ لا، لا أستطيع أن أتسلل صباحًا على أطراف أصابعي مثل اللصوص. أنا رجل ريفي بسيط. كرامتي لن تسمح لي.

ـ غريب.

لقد كان أندرية يرحل عن المنزل على أطراف أصابعه مثل اللصوص.

لم يطرق ذهن نادية أن الناس ليسوا سواءً.

نزل المحافظ في المصعد. فنظر إليه الحارس وفي عينيه العديد من التساؤلات. فاعتقد إيفان أن الحارس أحد أتباع «لافرينتي بيريا» المخلصين. على الرغم من أنه كان شابًا بالنسبة إلى لافرينتي، الذي لم يتبق أحد من جيله.

خرج المحافظ من العمارة. واستقل سيارته، وكان السائق يقودها بهدوء ورزانة. وفجأة قال شوبين:

ـ سأتزوج.

رفع السائق حاجبيه إلى أعلى.

ـ إذا لم يحدث هذا الآن فمتى سوف يحدث؟

كان هذا سؤالاً بلاغيًا لا يحتاج إلى إجابة. فنظر إليه السائق وحاول تحذيره:

ـ وهل تعرفها جيدًا؟

ـ لا، ولكنني أشعر بها.

يقولون إن الشعور أهم من المعرفة.

وبمجرد رحيل المحافظ التقطت نادية سماعة الهاتف وأدارت رقم كسينيا:

ـ لدي أخبار جديدة.

ـ أنتِ حامل مجددًا؟

ـ لقد طلب المحافظ شوبين الزواج مني.

ـ هذا مستحيل.

ـ لقد طلب ذلك مني، وأنا قبلت.

صمتت كسينيا طويلاً ثم سألت:

ـ وماذا وجد فيكِ حتى يفعل هذا؟

ـ وجدني، ووجد نفسه.

وضعت نادية السماعة واتصلت بناليا.

ـ سأتزوج.

ـ لقد أخبرتني بذلك من قبل.

ـ ليس من أندرية، وإنما من المحافظ شوبين.

ـ ومن أين حصلتِ عليه؟

ـ لقد أرسله اللّه إلي.

ـ إلى المنزل؟

ـ لا. محفوظ بالبريد.

ـ منذ متى؟

ـ أمس.

ـ وستتزوجين منه سريعًا هكذا؟

ـ خير البر عاجله.

سكتت ناليا عن الكلام وكأن هناك شيئًا قد حدث لها.

يبدو أن نادية كانت على صواب؛ لقد جلست فريدا كاهلو بثبات في عشها الزوجي، فأصبح مستحيلًا أن ينتزعها أحد منه، أو يحاول فعل هذا حتى.

وبعد ذلك أجرت نادية اتصالًا هاتفيًا بنينا.

ـ سأتزوج من أوناسيس.

ـ اليوناني؟

ـ لا، الروسي. هناك أونانسيس لدى الروس أيضًا.

ـ وماذا عن أندرية؟ لقد كان حبًا جميلًا.

ـ الحب يستمر طويلًا، لكن الحياة ما تزال أطول.

ـ هذه كلمات إحدى الأغاني.

كانت موسكو تشهد آنذاك ربيعًا متأخرًا؛ فتارة تتجمد وتارة تُصبح دافئة. لذلك اقترح المحافظ على نادية الذهاب إلى إحدى المناطق الدافئة.

وبينما هما واقفان على شاطئ البحر الذي يرسل مياهه الصافيه لتداعب أقدامهما، قالت نادية:

ـ سيكون من الرائع أن نمتلك بيتًا هنا.

وبالفعل كان هناك بيت أمام البحر مباشرة. مثل قصة الصياد والسمكة. ومن أجل شرائه ظهرت الحاجة إلى مكالمة هاتفية واحدة يقوم بها المحافظ، وعلى إثرها تحرك المحامون وموظفو الشهر العقاري على الفور. وسارت العجلة. لم تحاول نادية فهم أي شيء، وها هي تحصل على أكثر مما كانت تتمنى. ودون أن تكون في حاجة إلى أن ترهق نفسها في الفهم، أو أن تشغل رأسها بهذا أو تتوتر أو تدفع أموالًا أو تتذلل لأحد الأشخاص، أو تحرق دمها، أو تستشيط غضبًا، بل يمكنها أن تقف على الشاطئ وتضع كريم ليسيون الجزر الغني بمادة الكروتين المفيدة للبشرة.

ظهرت لحظتان سيئتان، أولهما عندما قامت إحدى العاهرات بقرص نادية من صدرها، فتورم وأخذ شكل المنطاد. وثانيهما عندما اشتبه عليها الأمر فنطقت اسم أندرية بدلًا من إيفان. وهذا يعني أن أندرية ما يزال موجودًا في عقلها الباطن وتفكر فيه.

وعندما عادا إلى الشقة كانا يدركان أنها ستكون صغيرة للغاية. وكان الأطفال، كالعادة، يركضون ويتنقلون بين الغرف كلها. لهذا حاول المحافظ شراء الشقة المجاورة. وعاند الجيران في البداية عناد المستميتين، إلا أن المحافظ عرض عليهم بعض الخدمات التي لا يستطيع أحد أن يرفضها. ومجددًا جاء بعض الناس وعقدوا اتفاقًا وقاموا بالإجراءات الرسمية. فشرع العمال في تكسير الحائط. ثم طقطق الأطفال في الشقة المجاورة مثل الخيول.

نظر لوكا إلى نادية وسألها:

- أين والدي؟

- لقد رحل.

والحقيقة أن نادية هي التي رحلت وتخلصت من حياتها السابقة.

كان أندريه قد عود نادية الوقوف في مكانها: خطوة إلى الأمام واثنتان إلى الخلف. أما هنا فثمة إنفراجة في الفضاء، مثل الصاروخ المنطلق من مركز بايكونور الفضائي. لحظة وتصبح في مجرة أخرى.

وبالفعل كانت الحياة مع المحافظ مجرة أخرى تمامًا. فكان يستقبل باستمرار دعوات لحضور العروض الأولى وحفلات التقديم. وكان يشغل مكانة كبيرة بين الناس الذين يدعونه، مكانة بين خيرة المجتمع وأصحاب السلطة.

كان الجميع يوجهون نظرات الاستمالة إلى المحافظ و يحاولون التقرب إليه. والأمر نفسه كان يحدث مع نادية، التي عرفت جيدًا كيف تتجاهل الأشخاص المتطفلين؛ ترى أو لا ترى. وقد تبصق في خيالها على القابعين في الأسفل. فإذا كنت لا تريد أن يبصق أحد عليك، ارحل سريعًا عن القاع، ولا تطرح الأسئلة. لأنك إذا فعلت، لن تجد إجابات كافية. تقدر السلطات المسيطرة على مقاليد الحكم الاستقلال حق قدره. أما وطنيو الاتحاد السوفيتي فيميلون إلى المجانية، بعدما اعتادوا عليها خلال السبعين عامًا ماضية.

ارتوت نادية من إحساسها بالتفوق، فقررت الشروع في الانتقام. وكانوا يهينونها في الماضي باستمرار و يجردونها من كرامتها. والآن قد حان دورها. لقد سبق لنادية أن تجاوزت التعرجات الحياتية وتحملت العديد من الصعاب، أما الآن فهي تسير على طريق مستوٍ ومضاء. والحقيقة أن هذا الطريق مضاء لإيفان شوبين، لكنه بالتأكيد لن يستثني نادية من ذلك.

ومن ناحية أخرى كان أندرية خينكين يتحمل تلك القطيعة. وقد أدرك أن صمت نادية ما هو إلا ضغط تمارسه عليه. فعندما كانت تشعر بالاستياء من قبل كانت تختفي هكذا من دون أي أثر، وتتوقف عن ملاحقته، والاتصال به كل دقيقتين كالمجنونة.

ورد أندرية على صمتها بصمت مماثل. من سيهزم من، ومن سوف يستسلم أولًا

وبعد مرور شهرين استسلم أندرية، لأنه شعر وكأنه يسقط من ارتفاع شاهق ولا يستطيع التنفس، وإذا لم تظهر نادية الآن، فسيتوقف قلبه عن النبض. حيث كان في حاجة إلى طاقتها العدوانية، التي كان يستمد منها قوته. ظلت سفيتلانا تشده من اليسار، ونادية تشده من اليمين، في حين كان يقف هو في المنتصف، مثل القطب الكهربائي، يقف بثبات واستقرار. وبالتالي إذا ضعفت قوى نادية في الشد، فسيميل ويسقط.

قام أندرية بشراء دراجة للوكا ثم ذهب إلى نادية من دون حتى أن يتصل بها، وكأن شيئًا لم يكن، كما لو كانا قد افترقا أمس.

فتحت نادية الباب، وكانت هادئة آنذاك ووجهها ملوح بالشمس. نظرت إلى أندرية باهتمام ضعيف كما لو كانت تنظر إلى ساعي البريد. فقال أندرية:

- مرحبًا. أين كنتِ تتشمسين؟

- في مصر.

- مع ناليا؟

- لا، ليس مع ناليا.

- مع بوريس؟

- ولمَ بوريس بالتحديد؟

ـ لأنه يحوم حولك طوال الوقت.

ـ لا. ليس بوريس.

ـ من؟

ـ المحافظ شوبين. هل تعرفه؟

ـ بالتأكيد.

كان أندريـة يعـرف المحافظ شـخصيًا بفضل مصارفه الـتي كان المحافظ يضع نقوده فيها باستمرار.

ـ هذا عشيقك؟

ـ لا، إنه خطيبي، وسأتزوج منه .

ـ متى؟

ـ أنتظرُ الحصول على نسخة الطلاق من ألمانيا.

ركز أندرية نظراته إلى نادية.

ـ أنتِ تكذبين. هذا مستحيل.

ـ لماذا؟ أنا امرأة مسـتقلة ولدي طفلين. أريـد امتلاك زوج، وأريد أبًا للأطفال. ألا أملك الحق في هذا؟

ـ بالتأكيد تملكين الحق. أيمكنني الدخول؟

ـ لا، تانيا ليست هنا.

ـ و هل لوكا بالداخل؟

ـ لديه درس في اللغة الإنجليزية.

ـ حسنًا، إلى اللقاء.

تـرك أندرية الدراجة وأخذ يهبط الدرج، وهو يتمتم قائلًا: «كلبة.. حمقاء.. المال لا يكفيها.».

وفي المساء ظل أندرية يتململ على الفراش طوال الليل ولم يستطع النوم.

فمن ناحية كان الوقت قد حان لفك العقدة التي شكلها أندرية لها، وفعلت نادية هذا. الأمر الذي جعلها تستغني عنه بسهولة. ومن ناحية أخرى، فإن أندرية مابـرح يمارس سـلطته الكاملـة عليها. حيـث كان واثقًا من أن كل شـيء سـيعود كما كان من قبل. لكن ماذا حدث؟ حـل المحافظ محله. وهذا يعني أنها تنام معه كل يوم على سرير واحد. وفي شقة أندرية التي اشتراها بنقوده. بجانـب ابنـه الذي جاء إلى هذه الحيـاة من أجله خصيصًا. مع امـرأة أندرية، ماذا يكون هذا؟ وماذا يقولون لبعضهم بعضًا، وأي كلمات يتبادلونها: «سويًا؟» أم «إلى الأبد؟».

ولما لا يحدث هذا؟ ونادية امرأة ذكية وجميلة. يمكنها أن تُشرّف أي رجل، بمـا في ذلك المحافظ أو حتـى رئيس الدولة. لقد أضاعها أندرية من يده، فأخذها المحافظ واهتم لأمرها وجعلها تشعر بقيمتها.

هل نادية تكذب؟ أهناك محافظ بالفعل، أم أنها تريد فقط أن تعذبه؟

وفي الصباح استيقظ أندرية والإرهاق يرافقه، وبدلًا من أن يذهب إلى العمل، قـام بالتوجـه إلى منزل نادية. وصف سـيارته أمـام العمارة بوضعيه تسـمح له برؤية الخارج منها والداخل إليها. وشرع في الانتظار، الذي استمر ساعة كاملة.

وفي الحادية عشـرة صباحًا ظهر إيفان شوبين وهو يخرج من العمارة. كان وجهه أسـفعًا، وقوامه ممشـوقًا، يرتدي سـترة سـوداء مصنوعة من الكشمير ووشاحًا أحمر اللون. وسرعان ما اقتربت منه سيارة لونها لون السترة.

فهـم أندريـة علـى الفـور أن هذا لم يكـن كذبًا، فأخـرج الهاتف مـن جيبه واتصل بنادية:

ـ انزلي من فضلك.

ـ أين أنت؟

ـ واقف عند مدخل العمارة.

ـ حسنًا، يمكنك الصعود.

ـ لا أستطيع.

ـ لماذا؟

ـ لأنني لا أريد.

كان أندرية يشعر بالتقزز لدخوله شقة تفوح منها رائحة «الكذب».

ألقت نادية المعطف على كتفيها ثم نزلت إلى أندرية. وجلست في سيارته. فقال أندرية بشكل مباشر:

ـ لن أعطيكِ الطفل، اعلمي هذا.

ـ هذا ليس ابنك.

ـ بلى. إنه يُدعى لوكا أندريفيتش خينكين.

تكرر كل شيء بمنتهى الدقة لكن بطريقة عكسية. وقد باتت نادية امرأة مختلفة. وأصبح لها عينين مختلفتين تصوب بهما نظرات غير طبيعية. فقال أندرية:

ـ حسنًا. لقد تغلبتِ علي. سأطلقها.

ـ هذا ليس من شأني، افعل ما يحلو لك.

ـ ليس من شأنك؟! يجب عليكِ اليوم طرد هذا الشخص من حياتك.

ـ لا، طلقها أولًا.

ـ ما هذه المساومة، ألا تصدقيني أم تعتقدين أننا في سوق؟!

ـ نعم، لا أصدقك.

كانت نادية تنظر بهدوء وشجاعة إلى أندرية. لأنها لا تهابه أو تريد شيئًا منه.

وفي الماضي كانت نادية امرأة عصبية تتوتر دائمًا، تمامًا مثل الكلب الضال، الذي يركض في ساحة غريبة عنه. أما الآن فهي تشبه الكلب الواقف في المعرض بجانب صاحبه، وقد حصل على العديد من الميداليات والأوسمة، الأمر الذي يجعله ينظر بعجرفة إلى الناس.

التفتت نادية إلى الساعة فترجلت عن السيارة. لأن لديها أمورًا أخرى أكثر أهمية من الجلوس مع أندرية. بعدما كان أندرية منذ فترة أهم من أي شيء في حياتها.

خرج أندرية من سيارته وصاح:

ـ لكنك ستنامين اليوم معه على سرير واحد! وأنا لا أتحمل هذا.

ـ تحمل. لن يحدث لك شيء.

أخذ أندرية يبحث عن المذنب، وسريعًا ما عثر عليه. إنها سفيتلانا، التي قامت بخنقه من خلال نزاهتها وأمانتها. فتوجه إلى العمل، وفي أثناء دخوله إلى المكتب التفت إلى سفيتلانا قائلًا:

ـ علينا التحدث قليلًا.

ـ ألا يمكننا فعل هذا في البيت؟

ـ لا. الأمر سيكون أسهل هنا.

نظرت سفيتلانا إلى الساعة، إنها الثانية عشرة ظهرًا. فوضعت رأسها على الطاولة مثل التلميذة:

ـ كُلي آذان مصغية.

صمت أندرية قليلًا. لأنـه كان يحاول أن يُخرج من فمه الرصاصات بصورة بطيئة، لأنه ليس قاتلًا.

وكانت سـفيتلانا قد تعلمت خلال العشـرين عامًا التي عاشـتها مع أندرية أن تشـعر بزوجها كما تشعر بنفسـها، وتقرأ أفكاره وتحس بحالته المزاجية. فسألته:

ـ هل تريد الطلاق؟

ـ نعم.

ـ ما الذي حدث؟

ـ إنني أحبها.

ـ كان هذا موجودًا من قبل، ماذا جَد في الأمر؟

ـ لقد عثرت لنفسها على شخص آخر.

ـ من يكون؟

ـ المحافظ شوبين.

ـ أهاا .. إيفان سافيليفيتش. الشخص الثري

وضعت سفيتلانا رأسها على الطاولة، لقد هُزمت في الحرب التي استمرت لمدة سبع سنوات. وممن؟ استخفت سفيتلانا بعدوها وقللت من شأنه.

ـ وهل تظن أنها ستترك شوبين وتتزوج منك؟

ـ نعم، ستتزوجني عندما أصبح حرًا طليقًا.

ـ لن تتخلى عن المحافظ. فكن مستعدًا للدخول في ماراثون طويل.

ـ لقد استمر ماراثونها سبع سنوات من قبل. وسأتحمل إذا تطلب الأمر هذا.

ـ تحمل، لكن لا تشرب المسكرات.

نهضت سفيتلانا في علامة منها أن الحديث قد انتهى. وبعد مرور ثلاث دقائق فقط تحطمت الحياة، وقد تمنت سفيتلانا لو تضع يديها على وجهها وتبكي بحرارة وتصرخ حتى تخرج تلك المعاناة من روحها. لكنها بالتأكيد لن تفعل هذا في حضور أندرية، الذي أصبح رجلاً لنادية، وهذا يعني أنه جزء منها. فأرادت سفيتلانا أن تبتعد بنفسها عن أي شيء يلحق به اسم نادية. فقالت بصوت جاف لأندرية وكأنه أحد عملاء البنك:

ـ لدي أعمال أقوم بها.

ـ و أنتِ، هل ستكونين في انتظاري؟

ـ ليس هناك شيء واضح، بالتأكيد لن أركض بحثًا عن شيء ما، لكن في الوقت نفسه لن أمنع نفسي من الحصول على شيء سيأتيني. أندرية، هل تعرف معنى الإخلاص؟ هو القدرة على كبح جماح النفس.

تقاطعت الأعين عدة مرات خلال الحديث، فرأت سفيتلانا أن نظرات أندرية مليئة بالحزن والقلق، نظرات لم تختلف آنذاك عن نظرات الكلب المريض. أمر جعلها تشفق عليه، لكنها أخفت عنه هذا للسبب نفسه الذي منعها من البكاء أمامه.

*****

رحل أندرية عن البيت واستأجر شقة في مكان ما، ثم أخذ ينتظر أن تقوم نادية بطرد المحافظ من حياتها. لكنها لم تكن على عجلة من أمرها.

كان المحافظ كل شيء بالنسبة إلى نادية؛ لأنه أحبها ولم يُدنس حياتها لحظة واحدة. أحبها فقط. وكان يُجيب على أي طلب تطلبه نادية بـ «حسنًا، بالطبع، يا عزيزتي». ومن اليسير طلب الأشياء من العاشقين، لأنهم يستقبلون هذا بسعة صدر كبيرة.

أما الشيء الذي لم يكن أحد يحبه في نادية، وهو الجشع والوقاحة وسفالة المبادئ، فكان إيفان شوبين يراه شجاعة وإبداع. فنادية لا تخشى الحياة وتضعها تحت ضروسها. أمر يجعلها تنتصر في نهاية الأمر.

ترتعد فرائص النساء المحافظات عادة عندما يسرن في الطرق المبهمة. أما نادية فوحش بري مفترس.

والمحافظ رجل نبيل، على الرغم من كونه سياسيًا. وعندما يظهر النبل الإنساني في الجوار، فإن الجميع يتطلعون إلى بلوغه، والتجاوب معه. ثم تساعد الحياة الجديدة على تكوين وعي جديد.

وانطلاقًا من ذلك الوعي، قالت نادية لإيفان:

ـ أحتاج إلى نقود؛ أريد تسديد ديني.

ـ حسنًا، فالأموال تغسل الاستياء وتجرفه.

اتصلت نادية بزوجة روبينشيك، فرد عليها بنفسه. وهذا يعني أنه الآن في موسكو، فقالت له مباشرة:

ـ مرحبًا. أريد تسديد الدين.

لم يتفوه روبينشيك بكلمة واحدة، وكأن هناك شيء واقف في حلقه، وربما غص بالفعل من هذه المفاجأة، فسألته نادية:

ـ هل أنت مندهش؟

ـ لا. لقد كنت واثقًا أنكِ ستردينه.

ـ لماذا؟

ـ لأنكِ فتاة جيدة من عائلة محترمة.

استغرقت نادية في التفكير: هل هي حقًا من عائلة محترمة. الجد والجدة من طبقة المثقفين السوفيت، الطبقة الساذجة الصريحة التي ظلت طائشة على

مدار سبعين عامًا. وقد آمنوا، كالأطفال، وعاشوا بهذا الإيمان. ثم اتضح فيما بعد أن الإيمان بالأساطير أفضل من عدم الإيمان نهائيًا.

أما الأم فامرأة موهوبة تحب العمل. والأب يتجول في هولندا، فليكن الله معه. هي لا تعرفه، وهو لا يعرفها. بعدما قرر بنفسه الابتعاد كليًا عن العائلة وعدم التواصل معها.

ـ حسنًا. اكتب رقم الفاكس.

أرسل ليفا التفاصيل المصرفية عن طريق الفاكس. فقام إيفان سافيليفيتش بتحويل الأموال من حسابه إلى حساب ليفا.

وأجرت سفيتلانا هذه العملية المالية بنفسها.

انجدل كل شيء وانعقد في عقدة واحدة، وقد بدا أن هذا العالم الفسيح ضيقًا للغاية؛ أمر غريب.

ولم تكن نادية على عجلة من أمرها في تسديد الدين إلى أندرية. فما زال غير معروف حتى الآن مَن مديون لمن ..

اتصلت نادية بناليا:

ـ إنه يحبني، على الرغم من كل شيء.

ـ لأنه يحبك أنتِ.

هذه هي الحقيقة. كان إيفان شوبين يرتقي درجات السلم، ومع كل درجة تُضيء عيناه وتلمعان من الشعور بالسعادة. حتى أنه توقف عن إخفاء كراهية غريمه، وبدأ يفهمه شيئًا فشيئًا. والسلطة شيء مرغوب فيه، وهي أقوى أنواع المخدرات، من عرفها مرة لن يبتعد عنها.

ترك حب المحافظ بصمة كبيرة على نادية، فكان يُمكنها الجلوس بالساعات تنظر كيف يترنح الشجر بفعل الرياح. ولم تكن لتوافق مقابل

أيـة كمية مـن النقود على العـودة إلى حالة الصيد السـابقة، عندما كانت تتشنج كل عضلة في جسدها.

اتصلت نادية بنينا وأخذت تسرد أغنيتها القديمة عن الحدث الرئيس:

ـ إنه يحبني، على الرغم من كل شيء .

ـ ألم يخشَ الارتباط بكِ؟ من المفترض أنه شخص بالغ يستطيع التفكير.

ـ هذا هو السبب.

ـ الارتبـاط بكِ مثل ركـوب الأفعوانية: إلى الأعلى، ثم إلى الأسـفل، وكل شيء يحدث بصورة سريعة وعمودية.

كانت زوجة إيفان شوبين امرأة مستقيمة ونظيفة، مثل الخبز اليهودي. أما نادية فتشـبه الألعاب النارية في سماء الليل. من المستحيل التنبؤ أين ستضيء وإلى أين سـينتهي بها المطاف. وكان المحافظ كل شـيء بالنسـبة إلى نادية، كما كان أندرية في فترة من الفترات. والحب الذي استمر لمدة سـبع سـنوات كان يشبه القطار المحمّل بالبضائع، الذي لا يستطيع الوقوف إلا بعد الضغط على المكابح فترة طويلة.

زد علـى هـذا الحب حـلاوة الانتصار علـى سـفيتلانا. الأمر الـذي كان من المؤسف التغاضي عنه.

أخذت نادية تتمايل وتتأرجح حتى تشـعر بالغثيان. وقد اعتقدت في البداية أن هـذا الشـعور تولد جـراء الصدمـات والتجارب الشـاقة التي تعرضـت إليها. ثم أدركـت بعد ذلك أن هناك سـبب آخر؛ لقد حبلت مجـددًا، فتحدثت إلى أندرية قائلة:

ـ أنا حامل.

ـ يا له من خبر رائع. سيكون لدينا طفلان.

ـ بل ثلاثة.

كان الجميع يتجاهل ماشا لعلة ما.

*****

وبعد انتهاء الحديث مع نادية توجه أندرية إلى شقته المستأجرة حتى يمنح نفسه الفرصة في التفكير والشعور بالمعاناة.

وكانت الثلاجة هناك فارغة تمامًا. والمطاعم لا ترحب إلا بالأشخاص البارزين. وهو يرغب بشدة في تناول طعام ساخن، ومراجعة نفسه.

وفي يوم من الأيام وجد أندرية نفسه واقفًا أمام شقته الخاصة؛ من الواضح أنه كان غارقًا في التفكير ولم يلاحظ أنه متوجه إلى بيته القديم. فالطبع دائما يغلب التطبع.

أخرج أندرية المفتاح من جيبه، وقام بفتح الباب.

تصرفت سفيتلانا بهدوء، وكأن شيئًا لم يكن. مجرد زوج عاد من عمله.

ثم أرسلته سفيتلانا حتى يغسل يديه. ففعل هذا ثم جلس إلى الخوان، فأحضرت له الزوجة حساء البورش الساخن المزود بكرات اللحم مع البنجر.

وبعد تناول الطعام استلقى أندرية أمام التلفاز، ثم غلبه النعاس مثل الرجل العجوز. وقد بدا أنه متعب للغاية.

اقتربت منه سفيتلانا وقالت:

ـ اذهب إلى السرير.

وصل أندرية إلى السرير، ثم خلع ملابسه، وقبل أن يغفو تذكر أن السعادة غير موجودة في هذا العالم، هناك فقط راحة واستقلال. السعادة هي نادية، وهي ليست هنا. أما الشعور بالراحة فيتجسد في سفيتلانا، شعور سيصعب

على أندرية الإحساس به من دونها. فاتضح أنه ليس في حاجة إلى هذه الشقة المستأجرة التي يعيش فيها مع شخص غريب وسط مجموعة من الروائح المقززة.

وهذا يعني أن الشعور بالراحة والاستقلال يتجسد في سفيتلانا، فضلًا عن الاستقرار.

والاستقرار هو حجر الزاوية؛ ينبض القلب بشكل مستقر: ٧٠ نبضة في الدقيقة. والتنفس أيضًا سيكون مستقرًا: شهيق ثم زفير. ومن ثم يفكر العقل على خلفية مستقرة، حتى وإن وصل الأمر إلى نادية، تلك المرأة العاطفية.

وخلال ساعات الليل قام أندرية بالقبض على يد سفيتلانا وضمها إليه. مثلما كانا يفعلان في شبابهما، ثم هربا إلى نوم عميق، ماسكين يدا بعضهما بعضًا، وكأنهما يخافان أن يفرقهما أحد.

وفي الصباح سأل أندرية:

ـ أكنتِ على علم بأنني سأعود؟

ـ بالتأكيد، وأنت أيضًا كنت تعرف هذا.

استغرق أندرية في التفكير: أكان بالفعل يعرف هذا أم لا؟ لكن ما الفرق؟ الأهم هنا أن الرصاصة لم تصل إلى العظام، اخترقت الملابس فقط. سيلتئم كل شيء ويتماثل للشفاء، تمامًا مثلما يحدث مع الكلاب.

وربما لن يلتئم هذا، مما سيجعلهما يعيشان طوال حياتهما والألم في قلوبهما، لكن الأهم أنهما سيعيشان.

وفي الصباح توجهت نينا فجأة إلى نادية وفي يدها خطاب إلى عمدة المدينة. لا أكثر ولا أقل. فسألتها نادية:

ـ ماذا يوجد في الخطاب؟

ـ طلب. أريد وزوجي الحصول على رخصة.

ـ أية رخصة؟

ـ لا تشغلي رأسك بهذا. ستكون الرخصة طريقنا إلى الجنة.

ـ حسنًا، توجهي إليه بنفسك.

ـ لا يسمحون لي بالدخول. سيكون هذا أمرًا هينًا للغاية بالنسبة إلى إيفان سافيليفيتش. سيدخل إلى المكتب ويضع الخطاب على الطاولة فقط.

ابتسمت نادية ابتسامة عريضة. فالشيء الذي ترى نينا أنه هين، سيحتاج في الواقع إلى جهد كبير. والتماس طلب لشخص ما يعد طلبًا أيضًا. وهذا يعني أن نينا ستذهب في المرة القادمة إلى المحافظ مباشرة.

لم تبلغ نينا المستوى الذي ظلت تحلم بالوصول إليه. وبعد انتهاء مرحلة البيريسترويكا لم يكن هناك شخص واحد يتوجه لأحد بطلب لأن كل شيء كان يُباع ويُشترى.

رفعت نادية عيناها في وجه نينا وقالت:

ـ حسنًا، سأعطيه إياه.

فخمنت نينا أن نادية لن تقوم بهذا، وقررت أن تختبرها:

ـ أعطيني رقم إيفان سافيليفيتش.

كتبت نادية الرقم على ورقة. فبدا أنه رقم قديم سمعت نينا عند الاتصال به صوتًا نسائيًا يقول بنبرة ماكرة إنه خارج نطاق الخدمة.

اتصلت نينا بنادية وسألتها قائلة:

ـ لماذا تفعلين هذا معي؟ نحن أصدقاء منذ الطفولة.

ـ أنا أحمي إيفان سافيليفيتش .

ـ لكن ثمة مفهوم يُدعى «المشاركة». إذا كنتِ محظوظة، فعليكِ أن تشاركي نسبة من النجاح.

ـ ومن قال هذا؟

فَطنت نينا للأمر. ستضطر بنفسها إلى زيارة أحد المسئولين رفيعي المستوى من خلال شباك الخدمة، وليس من خلال نادية الماكرة.

وبعد أسبوع قامت نادية بالاتصال بنينا وكأن شيئًا لم يكن.

كانت تشعر بالحزن. لأن أندرية قد اختفى عن الأنظار مجددًا. ولم تعد سيارته تقف أمام البيت. وهذا يعني أن النهاية قد حانت. وكل نهاية في الأصل موت قصير. ولا يتعظم الشخص في الأعين إلا بعد موته.

كانت نادية تفهم كل شيء، ومع ذلك كانت تعاني بشدة. فأرادت مشاركة مشاعرها مع شخص آخر، وتقاسم أحزانها مع روح ثائرة. إلا أن نينا لم ترد أن تستمع إلى هذا الحديث الفارغ:

ـ اتصلي بناليا.

ـ وهل أنت مشغولة؟

ـ لا، لست مشغولة؛ لا أريد التحدث فقط.

ـ حقًا!!

لقد اعتادت نادية أن نينا دائمًا تنصت إلى أحزانها العاطفية بشغف كبير. لأن حياتها مثل المستنقع الراكد، الذي لا يحتوي سوى على العمل. وكان سماع نادية وما يحدث معها أمر لا يختلف كثيرًا عن مشاهدة المسلسل التليفزيوني. لكن من الواضح أن اهتمام نينا قد تلاشى تجاه هذا المسلسل، بعدما ظهر كل شيء. نادية تُحِب وتُحَب. وتنتظر طفلًا. ثم ماذا؟

اتصلت نادية بكارينا في فرنسا، لكنها لم ترغب في سماعها، وقالت:

ـ اذهبي إلى طبيب نفساني. ليس لدي وقت.

ثم اتصلت بعد ذلك بناليا:

ـ مرحبًا، ماذا تعتقدين، هل أضع هذا الطفل أو لا؟ ما يزال أمامي أسبوع كامل.

ـ ماذا قال المحافظ؟

ـ إنه لا يعرف. سأخبره إذا اتخذت قرارًا بوضعه.

ـ بالطبع، ضعيه.

ـ ثلاثة أطفال من ثلاثة رجال مختلفة. أفتاة ليل أنا؟

ـ فتيات الليل لا ينجبن. لأنهن يقمن بعمليات الإجهاض. نادية، أقرضيني نقودًا لمدة ثلاثة أشهر.

ـ أقرضك ؟! أنا أحدثك في مسألة ستغير حياتي.

ـ وأنا ستتغير حياتي أيضًا إن أعطيتني النقود.

وضعت نادية السماعة بقوة. فهي تعرف تلك القروض جيدًا، لأنها قامت ذات مرة بأخذ قرض لأربعة أيام فقط. من الواضح أن الكل يسعى جاهدًا إلى اقتطاع جزء منها. وقد اعتقدوا أن المحافظ يقوم بطباعة النقود باستخدام ماكينة خاصة. مع أنه لا يفعل هذا، بل يدبرها من عرق جبينه وانشغال رأسه.

استشاطت نادية غضبًا، فصعد الدماء إلى وجهها. وأرادت الاتصال بسفيتلانا حتى تقذف في وجهها أقذر الكلمات. لكنها كبحت جماح نفسها. لا سيما وأنها خطيبة المحافظ. وستصبح زوجة له بعد قليل. السيدة الأولى. حسنًا، الثانية.

سيقوم المحافظ بتأخير الطلاق من زوجته الأولى حتى تنتهي الانتخابات الجديدة. لأنه يخاف أن تقوم المعارضة باستغلال «هذا الخور الأخلاقي» وتأخذ

هـذا الطـلاق ورقة رابحـة في حقيبتهـا. والمنتخبات مـن النسـاء لا يحبذن عدم الاسـتقرار، وبالتالي سيخسـر المحافظ عددًا كبيرًا من الأصوات. سـيهجرونه. فيسقط من فوق جواد مرتفع، وهذا شيء مؤلم للغاية بالإضافة إلى أنه أمر مهين. فالمحافظ أمر، والمحافظ السابق أمر آخر تمامًا. وعندئذ ماذا سيتبقى؟ رجل مسن بصحبة طموحه. فيمَ ستحتاجه نادية آنذاك؟ وفيمَ سيحتاج هو نفسه؟

كان المحافظ يحب السـلطة، ويسـتمد قوته منها. ولا يرى أن حب السـلطة نقيصـة أو وقار. ببسـاطة كان يحبهـا فقط. وتمنح السـلطة حرية الاختيار، أمر يمكنه تحديد مسـتوى الحياة، وفعل الأشياء الجيدة ووضعها على إحدى كفتي الميزان. ثم تجميعها بعد ذلك من أجل الحصول على تصريح الدخول إلى الجنة. أشارت نادية، ذات يوم، إلى المحافظ بإصبعها وقالت:

ـ يا لك من شخص ماكر! تريد تدبير أمورك هنا وهناك.

ـ ومن رأيك، الأفضل أن أفعل هذا هنا أم هناك؟

فكرت نادية قليلًا، فأحسـت بصعوبة الأمـر. لأن التركيز يجب أن يُحصر في شـيء واحـد فقـط. وكانت نادية، آنـذاك، تنتظـر ورقة الطـلاق التي من المفـترض أن تأتي من ألمانيا. فوجب عليهـا العثورعلى رانير، الذي كانت حياته تسـير على أكمل وجه، فقد تزوج من سوزي، التي حصلت منه في الماضي على رد سـلبي عندما سـألته عن الزواج، لكن من الواضح أن رانير قد عاد إلى صوابه وأقسم على ذلك. حدثته نادية مازحة:

ـ وماذا، ألم تستطع سوزي أن تعثر لها على زوج طبيعي؟

ـ هاااه! الزوج الطبيعي الآن في ألمانيا شيء نادر للغاية.

ـ وإلى أين اختفوا؟

ـ أصبح نصفهم مثليًا والآخر كبر في السن. وأنا سكير ليس إلا.

وكان رانير يتمتع بحالة مزاجية جيدة. فبدا أنه في حالة سكر شديدة.

وتـزوج جونتر، الـزوج الأول، مجددًا من امـرأة ألمانية. فأصبحـت حياته أكـثر استقرارًا.

أمـا جان ماري فأصبـح غارقًا في الثـراء. وكان ليفا روبينشـيك يتنقل بين دولتين، بل يريد شراء شقة في إسرائيل أيضًا، وبالتالي سيعيش في ثلاث دول. شخص ثلاثي المزاج.

لقد أصبح كل شـيء مسـتقرًا في حياة أزواجها وعشـاقها السابقين؛ لأنهم أخذوا يعيشون لأنفسهم، ولا يعبأون بأي شيء. أمر كانت تفعله نادية أيضًا. وهـي تعقد النية على الزواج من أوناسـيس. من يسـتطيع أيضًا التباهي بمثل هذا المشوار الأنثوي؟.

يجلـس النـاس الأذكيـاء والمتواضعـون في البيـوت المشـيدة مـن الكتـل الخرسـانية، ويقومون بإعداد البيض مع السجق. يغضبون و يحسدون. معروف أن الغضب يتولد من الضعف. ونادية تعرف هذا جيدًا. لأنها شعرت بالغضب في كثـير من الأحيان، تتذكر هذا وهي تشـعر بالخجل، ومـع ذلك كانت دائمًا ما تثير غضب سـفيتلانا المسـكينة. ولكن لماذا سـفيتلانا بالتحديد؟ نادية محتلة، أما سـفيتلانا فهي كالجندي الشـجاع الذي يحمي وطنه من هجمات العدو.

تخلصـت ناديـة من ماضيهـا، تمامًا مثلما تتخلـص الطائرة مـن الأرض عند إقلاعها. فجأة تجد نفسـك في الهواء. فيتوارى الماضي وراء الضباب، فيخيل إليها أن هذا لم يحدث معها. أو لم يحدث من الأساس.

ذهب إيفان شوبين من أجل إعادة الانتخابات. ثم اختفى بعد ذلك من دون أثر. مر شهر كامل ولم يتصل بنادية؛ أمر غريب. وقد حاق الفشل بنادية في العثور على وسيلة تشغل بها نفسها. فكانت تجلس ليل نهار أمام التلفاز وتنتقل من قناة إلى الأخرى.

وظهر على الشاشة برنامج «مصنع النجوم»، الذي كان يناقش مشاعر الشباب وطرق السعادة المختلفة، ومع هذا كان يوجد في جلساته أشخاص لا تقل أعمارهم عن الأربعين عامًا، فنجدهم يلعقون شفاههم مثل القطط الصغيرة. مع أن الوقت الحالي مهيأ للشباب، وليس الشباب فقط، بل المراهقين أيضًا. فالجمال والطاقة العنيفة، ونقص الخبرة هي الأولويات في أيامنا الحالية. صباح الحياة.

لم تكن نادية تستطيع أن تندفع هكذا وتتأرجح، لأنها تبلغ ثلاثة أعوام من عقدها الرابع. عمر بلزاك. ويعتقد كثير من الناس أن عمر بلزاك يتعدى الخمسة والأربعين عامًا. لكنهم مخطئون. ولم يقرأوا الرواية باهتمام. أو لم يقرأوها من الأساس.

دوى صوت الهاتف، فأخذت نادية السماعة. وأخذت تسمع صوت بوريس يتحدث:

ـ سأشرع في بناء مجمع سكني. هل ستستثمرين معي؟ وسنصبح شركاء.

ـ ربما، سأفعل.

ـ ولماذا صوتك هكذا ؟ أأنتِ مريضة؟

كانت نادية تتحدث بصوت ضعيف للغاية. وبعد انتهاء المكالمة عادت سريعًا إلى الأريكة لتشاهد التلفاز، الذي كان يظهر على شاشته نمر جميل يتسكع، ويعيش حياته الضارية الذكية. توقف الزمن للحظات. وشعر الأطفال بالكلل، لأنهم يسيرون في الحياة من دون أي هدف. ووجود نادية في حياتهم لا يختلف عن كم القميص المنفصل. فما فائدة ذلك الكم إذا كان بمفرده؟ لاشيء.

وكانت نادية في البداية ترى أن إيفان مثل الحشو المؤقت، الذي يمكن أن يوضع في الضرس المنخور. لكن اتضح مرة تلو الأخرى أن الحشو ليس مؤقتًا، وإنما دائمًا. وقد استُخدم ليس لوضعه على الضرس المنخور، لكن حتى يسد ذلك الثقب الذي تعاني منه الروح.

لقد حدث تسرب في السفينة التي أخذت تهبط إلى القاع. وكانت الخادمة تانيا أول من يعرف بالأمر، عندما كانت تنظف الشقة، وقامت بفتح التلفاز حتى لا تشعر بالملل. وبدأت تنتقل بين القنوات الإخبارية.

وإذ فجأة يعلن أحد مُقدمي البرامج أن المحافظ السابق إيفان شوبين قد حصل على نسبة تسعة وأربعين في المئة، وحصل منافسه على نسبة واحد وخمسين في المئة.

من أين جاء هذا الفارق البسيط؟ ومن الذي أحصاه؟ لا شك في أن المنافس قد دفع بعض الأموال من أجل الحصول على تلك النسبة. تجمدت تانيا في مكانها وارتسم على وجهها علامات الحزن. وهذا لأنها أحبت إيفان سافيليفيتش، الذي كان يعطيها أموالاً أضافيه من دون علم صاحبة البيت. يعيش حياته ويسمح للآخرين أن يعيشوا حياتهم.

سار الضعف في جسد المحافظ، لقد أفلت الحبل من يده فالتف حوله وقيده.

أغلق باب الشقة بشدة، هذه نادية عائدة من المتجر. وبالطبع لن تُعلمها تانيا بالشيء الذي سمعته في التلفاز. فلعلها ستعرف من الآخرين.

وبالفعل عرفت نادية من كسينيا، التي حدثتها بكآبة في أحد الأيام وهي داخلة إلى البيت:

- لن يعود المحافظ.

- لماذا؟

- عندما يفقد هؤلاء الأشخاص السلطة، فإنهم لا يعيشون، وإنما يقضون الأيام الباقية من حياتهم. ومن الأفضل أن يفعل هذا في بيته.

- من فقد السلطة ؟

- افتحي التلفاز، وستعرفين.

ضغطت نادية على الزر.

وكانت البرامج التليفزيونية جميعها تقوم باستعراض السيرة الذاتية للمحافظ الجديد. شخص رياضي ما يزال في فترة الشباب، لكنه كان مجرمًا إلى حد ما. ويمتلك أسنانًا كبيرة إذا ما قورنت بالأسنان الطبيعية. ويبتسم طوال الوقت، فمن الواضح أنه معجب بأسنانه، الأمر الذي جعله لا يتباطأ في إظهارهم.

فأدركت نادية لماذا كان إيفان صامتًا طوال هذه الفترة. لقد فضل أن يقضي الأيام الباقية له في بيته، مع زوجته التي شهد الزمن على إخلاصها. أما نادية فمثل الألعاب النارية في سماء الليل. غير معروف إلى أين سينتهي بها المطاف.

أخذت كسينيا تشد على ساعد ابنتها وتدعمها، فتقول لها:

- من الجيد أنهم لم يقتلوه. كان من الممكن أن يطلقوا عليه النار أو يلقونه من إحدى المروحيات.

وسريعًا شعرت نادية بألم كبير في رأسها. وكانت كسينيا تمتلك القدرة على التفوه بالكلمات الجارحة في الأوقات العصيبة.

التفتت نادية إلى والدتها قائلة:

- اجلسي مع الأطفال.

ثم خرجت إلى الغرفة لارتداء ملابسها. وقد تمنت لو تُخرج نفسها من هذه المساحة الانطوائية. وتتطلع إلى تنفس هواء منعش والقيام بحركات جديدة؛ فخرجت إلى الشارع، وأخذت تسير من دون أن تعرف إلى أين ستقودها قدماها.

دوى صوت الهاتف في حقيبتها. فسارعت إلى الرد، لكنها كانت المفاجأة، إنه أندريه، أمر جعل نادية تشعر بخيبة الأمل وتنفجر غضبًا. بدأ أندرية حديثه:

ـ هل عرفتِ؟

ـ أيعقل أن تعرف أنت وأنا لا؟

ـ حسنًا، أنا أعرف شيئًا لا تعرفينه أنتِ.

شعرت نادية بالتوتر:

ـ وماذا هناك؟

ـ لقد حول أمواله جميعها إلى حساب زوجته، وأغلق حسابه.

فتذكرت نادية على الفور العبارة التي قالها لها من قبل:

ـ الأموال تذهب الاستياء.

ـ هكذا إذًا، إنه فقير الآن .

ـ لا يهم. أنا ثرية.

ـ وماذا تمتلكين؟

ـ إيفان.

صمت أندرية، فلم تُسمع كلمة واحدة بعد ذلك. ربما، انقطع الاتصال، أو نفدت البطارية.

من يكون أوناسيس من دون ثروته؟ تتزايد الثروة وتتناقص مثل الإطار المثقوب. أما المرء فيظل على حاله لا يتغير.

يضع الناس قبل النوم نقودهم في الخزانة التي تجاور السرير وينامون عرايا. ينام المرء بصحته وضميره وحبه. وهذا الشيء الأهم. أما الأموال فهي مجرد أسباب للراحة ليس إلا. وهل قامت الأموال من قبل بحماية أوناسيس؟

دخلت نادية إلى السينما. وكانت صالة العرض شبه خالية بسبب ارتفاع أسعار التذاكر. وكانوا يعرضون أحد الأفلام الأمريكية، الذي يطلق فيها بعض الأشخاص طوال القامة النار على عدد من الوحوش الخيالية.

توقفت نادية فجأة عن متابعة الأحداث. وأخذت تفكر: إذا كان إيفان قد قام فعلًا بتحويل النقود إلى حساب زوجته، فهذا يعني أنه دفع الأموال من أجل الحصول على الحرية، التي تتكلف كثيرًا. عندما كان تامبيلسمان ينوي الذهاب إلى جاكلين المريضة، كانت زوجته تأخذ منه ملايين كثيرة. إذًا، أحلال على زوجة تامبيلسمان، حرام على زوجة شوبين؟ لكن إذا كان إيفان حرًا، فأين هو الآن؟

كانت نادية تشعر بألم في بطنها. إنه الجنين يجلس في رحمها، وكأنه في حجرة صغيرة، يقوم بإزالة الجص والملاط من على الحوائط. وكانت الفرصة ما تزال قائمة للقيام بعملية الإجهاض، لكنها كانت قد وقعت في حبه. وباتت واثقة أنه سيكون ولدًا، كولوبوك آسيوي. فأخذت تفكر في اسم له: سافوشكا، ربما. إيفان، أين هو الآن؟ هؤلاء الناس الذين يفقدون السلطة، لا يعيشون، وإنما يقضون الأيام الأخيرة في حياتهم.

خرجت نادية بهدوء من صالة العرض. وتوجهت سريعًا إلى الشارع وأوقفت إحدى السيارات الأجرة. وهرعت إليه في شقته الممتلئة بالبط. وقد قادتها مشاعرها في ذلك.

توقفت السيارة الأجرة بجانب مدخل المنزل. فترجلت نادية من السيارة ووجهت نظرها إلى الأعلى، وكان الضوء ينبعث من نوافذ الشقة. وربما، هذه نوافذ شقة أخرى. صعدت نادية في المصعد، واستنشقت الهواء. فلم تجد أثرًا لرائحة الغاز. أخذت تتحرك بسرعة كبيرة، وما إن وصلت إلى باب الشقة حتى دفعته بكتفها. وقد بدا الباب مفتوحًا، فلم تتباطأ نادية عند المدخل. وكانت ثابتة للغاية، وتركض إلى الأمام فقط.

كانت الشقة فارغة تمامًا؛ الحوائط عارية، فقط منضدة في وسط الغرفة يجلس عليها إيفان. وينظر إلى الأرض. كان يشبه التمثال وسط تلك المساحة الخالية.

ثلاثة أمتار على الجانب مكتظين بالزجاجات الفارغة. وأدخل إيفان نفسه في حالة من الإغماء الخفيف. فسألته نادية:

ـ أين البط؟

ـ لقد طار، طار إلى أماكن أكثر دفئًا.

نظر إيفان دون اندهاش إلى نادية:

ـ وها أنا أقوم باخلاء الشقة. من أجل الشخص التالي.

بدت حركات شفتيه غير واضحة، وكأنها متجمدة. وقد أصبح إيفان هزيلاً للغاية وخارت قواه مثل الشخص المتشرد. لقد هاجمه التشرد، بعدما كان وسيمًا. فنظرت إليه نادية مجددًا وقالت:

ـ لكنني أحبك.

ـ لقد سبق وقلتِ هذا.

ـ نعم. قلته، لكني لم أكن أصدقه. وها هو الأمر يتضح أمامنا.

اقتربت نادية من إيفان، الذي نهض من على كرسيه، فقامت بعناقه واحتضانه بيديها، وكأنه ابنها، الذي قام أولاد الحي بضربه.

وكان إيفان يقف ويداه بجوار جسده. ولم يقدر على الفهم، أخاسر هو أم منتصر؟

وفي الوقت الأخير كانت السيارات في موسكو كثيرة للغاية، ربما أكثر من الناس، أو بالعدد نفسه، الأمر الذي كان يجعلها تعلق في الاختناقات المرورية وتظل وقتًا طويلاً دون حراك.

أخذ بوريس ينظر بتركيز إلى الطريق. وقد ارتدى أفخر الثياب وتعطر بأفضل الروائح. أمر مهم للغاية. وكانت نادية تتعذب في الفترة الأخيرة من شم الروائح النفاذة. فالتفتت إلى بوريس فجأة قائلة:

- لماذا لم تتقرب مني؟ ألم تكن تريد هذا؟

- عندما رغبت في ذلك، كنتِ منشغلة عني. فأدركت أن الصداقة أفضل بكثير من الحب؛ لأن الحب ينضب أما الصداقة فلا.

- نعم، الصداقة أكثر العملات النقدية استقرارًا.

كانت نادية تحصر تفكيرها مؤخرًا في أفضل طريقة تقوم بها ببيع المنزل المطل على البحر، وتفاضل بين البيع بالدولار أو اليورو.

وعادت الحياة إلى طبيعتها، لكن بطريقة عكسية. ففي الماضي كانت الحاجة إلى الأموال من أجل شراء شقة، أما الآن فمن أجل تجهيز المجمع السكني. الأمرين من جوهر واحد.

دخلت السيارة إلى الطريق الدائري، وقام بوريس بتشغيل الأغاني، التي كانت تنتمي لفترة السبعينيات. محطة ريترو الإذاعية. وكانت الموسيقى جيدة، لكنها في وقت غريب قليلاً؛ الاشتراكية. ويمكن فقط لهذا النظام الصناعي أن يأتي بحلم أوناسيس. سيأتي العم ذات مرة ومعه كل شيء في يده. وعليه أن يصبح مثل أوناسيس ويقف على ثروته. هذا هو التعبير الأدق.

كانت السيارة تسير والعوادم تحيط بها من كل مكان. فسألها بوريس:

- هل تشعرين بالغثيان؟

- لا. كل شيء على ما يرام.

لقد رحل عنها الشعور بالغثيان وتلك الوخزة التي يقوم بها الجنين. وقد اتضح أن الحمل انتقل إلى مرحلته الثانية.

وصلا إلى المكان المرجو. معسكر الطلائع المهجور (فيسوتا)، الذي يقبع على هضبة عالية.

وبات المعسكر خاليًا تمامًا منذ عشرين عامًا. بعدما سُرق كل شيء هناك، حتى البراويز لم يستثنوها. فلم يتبق سوى الرياح التي تتجول والثلوج التي تتراقص ببطء.

وأصبحت المنازل رطبة وبالية، أمر يجعل الناس ينظرون إليها ببرود شديد.

وكان ملعب كرة القدم ذو الشبكتين الصامدتين مايزال يحتفظ بأصوات الأطفال داخله. وبجواره مجموعة من التماثيل الطلائعية التي تمتلك أنوف مقشرة وأيادٍ مكسورة.

وكذلك تمثال لسباحة ما بمؤخرة محطمة. وما فائدة هذا هنا؟ من الواضح أن هذا تمثال لإحدى فتيات المعسكر.

وكانت نادية تنظر وترى ما ليس موجودًا الآن، وإنما ما سيوجد في المستقبل.

وسيوجد هنا مجمع ذهبي يدخله الناس من خلال بوابات نظيفة كبيرة مزينة بنجمة ماسية. وسيكون في الداخل حديقة كبيرة مفعمة بالزهور والأعشاب، تركض فيها الحيوانات الأليفة.

وكذلك منازل خشبية سوف تُشيد من أعمدة الخشب الطويلة، وستُغطى بعد ذلك بطبقة من الشمع. الأمر الذي سيكسب البيوت لونًا ذهبيًا تحت أشعة الشمس.

طائر السعادة، طائر ثقيل وسمين مثل الديك الرومي، نهض أخيرًا عن الأرض ثم غادر إلى اتجاه غير معلوم.

فأدركت نادية أن سعادتها لا تتجسد في طائر، وإنما في ذئبة شابة تجوس في الطرقات وتخاطر ولا تعرف على ماذا سينتهي يومها. هل ستنجح في اصطياد عجل صغير، أم ستصبح صيدًا ثمينًا لأحد الحيوانات المفترسة؟!

إصدارات

دار نشر أنباء روسيا

Russia News

www.russiannewsar.com

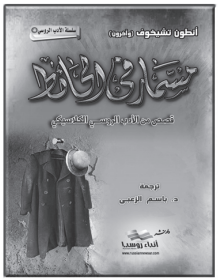

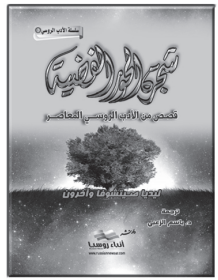

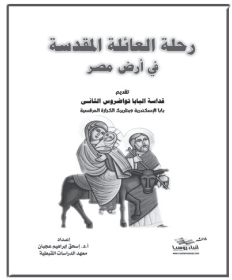

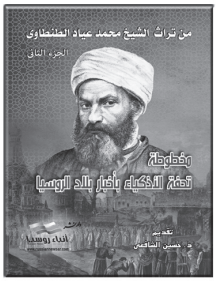

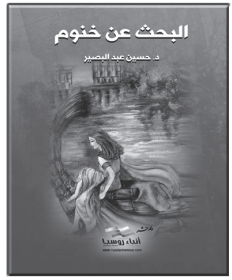

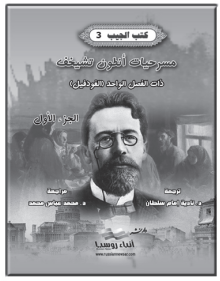

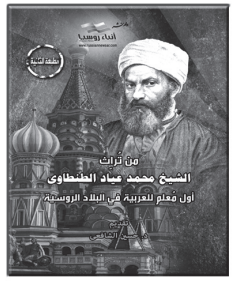

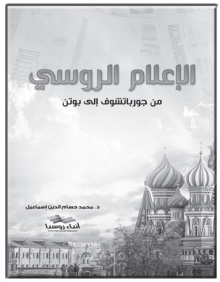

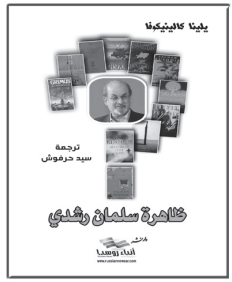

دار نشر
أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

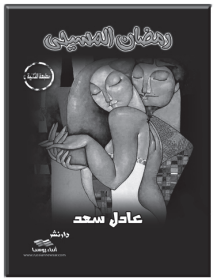

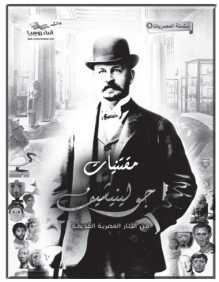

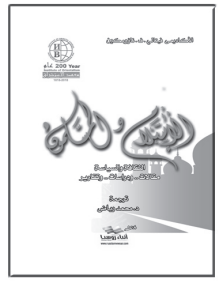

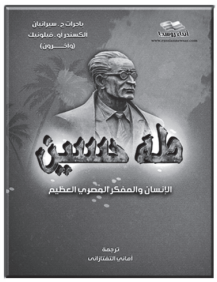

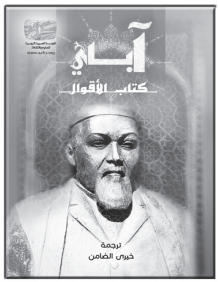

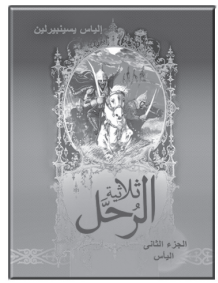

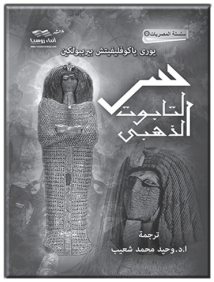

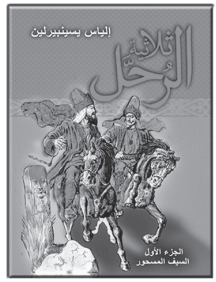

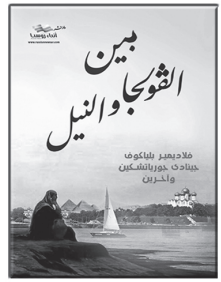

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

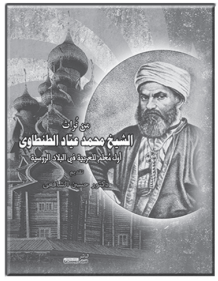

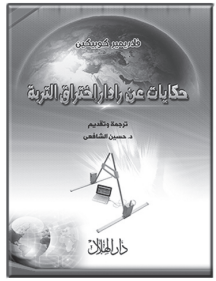

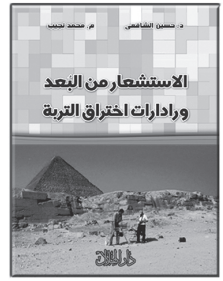

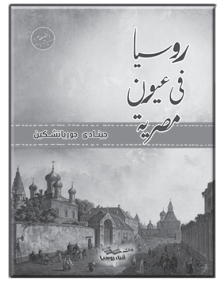

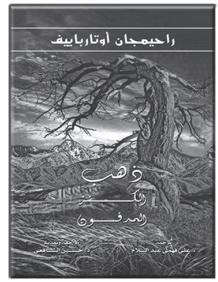

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

أنباء روسيا
Russia News
www.russiannewsar.com

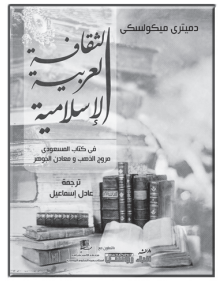

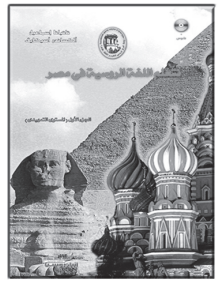

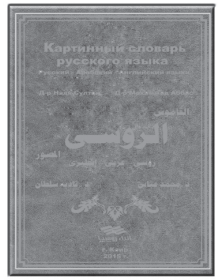

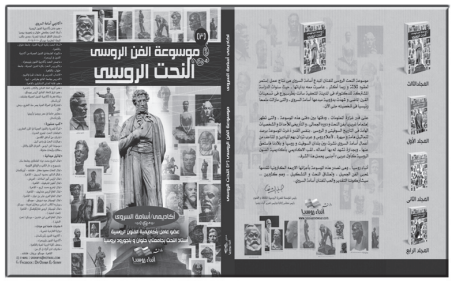

أنباء روسيا
Russia News

www.russiannewsar.com

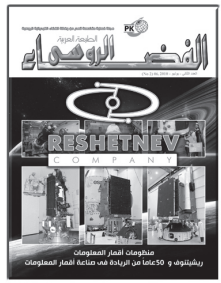

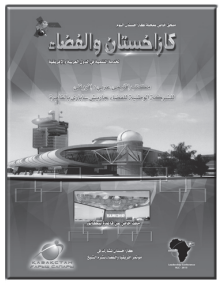

إصدارات دار نشر أنباء روسيا متوفرة لدى

مقار المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم	114 شارع جوزيف تيتو برج رقم 2- النزهة الجديدة- القاهرة	01006774027
	مدينة العبور – جمعية أحمد عرابى الزراعية 4/26، 85 ص.ب . 72	(+2) 02-24698170 & 8071
	4 ميدان بن خلدون مدينة الصحفيين العجوزة-الجيزة. بجوار معهد القلب وأمام مستشفى أمبابة العام	33028975 – 33043052 01006157783
المركز الروسى للثقافة والعلوم	27 التحرير، الدقى، القاهرة	0233370577
الهيئة العامة المصرية للكتاب	كورنيش النيل – رملة بولاق – القاهرة	25775000 – 25775109 داخلى 200 - 01007772711 -01223100145
وكالة الأهرام للتوزيع	مؤسسة الأهرام – شارع الجلاء – القاهرة	(+202) 27705019 (+202) 25786622
شركة المكتبة الأكاديمية	121 ش التحرير – الدقى الجيزة	01002515013/14-01125043188 - 33362341/2
مكتبة عمر بوك ستور	15 ش طلعت حرب – أعلى مطعم فلفلة - القاهرة	01003361217 0223960047
مكتبة آفاق للنشر والتوزيع	4 ش محمد مظلوم– تقاطع هدى شعراوى وسط البلد – القاهرة	02 23926114 01003434967
دار الثقافة الجديدة	32 شارع صبرى أبو علم – باب اللوق – القاهرة	23922880
مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر شركة التوزيع المتحدة الجمهورية	إدارة التسويق 21 شارع قصر النيل – 3 شارع طلعت حرب – 111 شارع رمسيس	01150575075 3901617 3923749
مؤسسة دار المعارف	27 شارع عبد الخالق ثروت وسط البلد – القاهرة	23936123
	9 شارع كامل صدقى بالفجالة	25905948
مكتبة دار حراء	33 شارع شريف القاهرة	23928963 01010524112
دار البلسم للنشر والتوزيع	128 شارع قصر النيل – الدقى – الجيزة – جمهورية مصر العربية	(+202) 37627147

دار نشر

أنباء روسيا
Russia News
russiannewsar.com

www.russiannewsar.com

و

المؤسسة المصرية الروسية
للثقافة والعلوم

www.a_rfcs.org

رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

د. حسين الشافعى